

مركز الترجمة الأذربيجاني

المركز القومى للترجمة

مختارات من القصة الأذربيجانية المعاصرة

ترجمة وتقديم :

أحمد سامى العايدى

2987

سلسلة الإبداع القصصى



بدأت القصة الأذربيجانية في الظهور في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان فن القصة آنذاك يشبه النبتة التي نبتت في أرض بعيدة عن أذربيجان، وقد تطور الأدب القصصي الأذربيجاني خلال فترة الاتحاد السوفييتي وتأثر بالأدب الروسي.

لأول مرة يتعرف القارئ العربي في هذا العمل على مجموعة قصصية مميزة بلغت عشرين قصة مختلفة من روائع الأدب الأذربيجاني المعاصر، كتبها عدد من كبار الكتاب الذين أثروا الحياة الأدبية الأذربيجانية، ليس فقط في مجال القصة، بل في مجال النثر الأذربيجاني المعاصر وأنواعه الأدبية المختلفة. وقد جرى اختيار القصص الواردة هنا بعناية فائقة، بحيث ترسم صورة لتطور القصة الأذربيجانية.

مختارات من القصة

الأذربيجانية المعاصرة

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2987
- مختارات من القصة الأذربيجانية المعاصرة
- أحمد سامي العايدى
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة مختارات من القصة الأذربيجانية المعاصرة

(صدرت هذه الترجمة بالتعاون مع مركز الترجمة التابع لمجلس الوزراء الأذربيجانى)



مركز الترجمة
التابع لمجلس الوزراء الأذربيجاني



شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مختارات من القصة
الأذربيجانية المعاصرة

ترجمة وتقديم

أحمد سامى العايدى



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

العايدي، سامي
مختارات من القصة الأذربيجانية المعاصرة/ ترجمة وتقديم: أحمد سامي العايدي.
ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦
٤٠٠ ص ، ٢٤ سم
١ – القصص الأذربيجانية
(أ) العايدي، أحمد سامي (مترجم ومقدم)
٨٩٤,٣٦١٣

رقم الإيداع ١٩٥٥٨ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N – 978 - 977- 92 - 0798- 8

المحتويات

مقدمة المترجم

(١)

تعتبـــر جمهورية أذربيجان من أولى الدول التـــي حصلت على اســـتقلالها من الاتحاد السوفيتي السابق، وذلك في الثامن عشر من أكتوبر عـــام ١٩٩١م، أي إنها تحتفل هذا العام ٢٠١٦م بمرور خمسة وعشرين عامًا على هـــذا الاســـتقلال. ومع أن أذربيجان دولة حديثة العهد بالاستقلال، فإن لها تاريخًا قديمًا يمتـــد عبـــر آلاف السنين.

لقد مرت أذربيجان عبـــر تاريخها القديم والحديث بالعديـــد مـــن الظـــروف والأحداث التي جعلت من أدبها مرآة تعكس هذه الأحداث، وتجعل المتتبع لتـــاريخ الأدب الأذربيجاني يدرك مدى ما عانته أذربيجان من تغيرات عرقية وطبوغرافية، شأنها في ذلك شأن معظم الدول الإسلامية التي استقلت عـــن الاتحـــاد الـــسوفيتي السابق. وبالطبع لم يكن الأدب الأذربيجاني بمنأى عما مرت بـــه أذربيجـــان مـــن أحداث قديمًا وحديثًا.

وثمة آراء متباينة حول نشأة الأدب الأذربيجاني تمثلت في اعتبـــاره فرعًـــا داخل تركيبة الثقافة التركية، أو إرجاع نشأته إلى إبـــداع الأدبـــاء الأذربيجـــانيين القدامى الذين كتبوا باللغة العربية أو الفارسية، أو اعتبار البداية الحقيقيـــة لـــلأدب الأذربيجاني منذ القرن الثالث عشر والرابع عشر، حيث ظهرت أعمـــال شـــعرية خالدة لكبار الشعراء الأذربيجانيين.

وقد أدى ضعف روسيا القيصرية في بداية القرن العشرين، خاصة بعد هزيمتها في حربها مع اليابان عام ١٩٠٥م، إلى ظهور حركات التحرير القومية في عدة مناطق خاضعة للقيصرية الروسية، ولاسيما في أذربيجان. وقد انتهز الكتاب والباحثون فرصة ضعف القيصرية الروسية في تلك الفترة، وسعوا إلى لفت الأنظار إلى القضايا القومية والاجتماعية والسياسية والمعنوية من خلال الكتابة على صفحات الصحف والمجلات التي كانت تصدر آنذاك مثل: "شرق روسيا"، و"همت"، و"الحياة"، و"مولا نصر الدين"، و"خواجه"، و"فيوضات"، و"إرشاد"، و"إقبال"، و"الترقي"، و"التكامل"، و"الرفيق"، و"المدرسة"، و"الإحياء" وغيرها من وسائل الإعلام المطبوعة. وقامت هذه الصحف والمجلات بدور فاعل في تلبية احتياجات الشعب الأذربيجاني المعنوية التي حُرم منها سنوات عديدة.

ومن المراحل التي لا يمكن إغفالها في تاريخ الأدب الأذربيجاني المعاصر مرحلة "**جمهورية أذربيجان الشعبية**" (١٩١٨ – ١٩٢٠م)؛ حيث حصلت أذربيجان على استقلالها لأول مرة في ٢٨ مايو ١٩١٨م، بعد أكثر من مائة عام من الأسر تحت حكم القيصرية الروسية، واستمرت هذه الجمهورية الأذربيجانية لمدة ثلاثة وعشرين شهرًا فقط. ولكن على الرغم من هذه المدة القصيرة، فقد مثل قيام هذه الجمهورية صفحة مضيئة في تاريخ أذربيجان، وحجر الأساس في كثير من المجالات السياسية والعلمية والاقتصادية، ونجد أن "الاتجاهات الأدبية" من حيث المضمون في تلك الفترة دارت حول بعض الموضوعات الاجتماعية الأساسية الملحة هي: مدح فكرة رمزية الألوان الثلاثة الموجودة في العلم الأذربيجاني[١]

---

(١) يحتوي علم أذربيجان على ثلاثة ألوان هي: اللون الأزرق يرمز إلى الأصل التركي للأذربيجانيين، واللون الأحمر ويرمز إلى المعاصرة، أما اللون الأخضر فيرمز إلى انتساب الشعب الأذربيجاني إلى الإسلام.

(الترك، الإسلام، المعاصرة)، والتغني بتاريخ الترك والإسلام، ودعم أول دولة مستقلة قومية حرة بالمفهوم المعاصر، والتعبير عن تأريخ قيامها، وأيديولوجيتها القومية، والتغني بالنجاحات العسكرية التي يحرزها الجيش، وصراع قراباغ مع الأرمن، وقتل الأبرياء من الأذربيجانيين على يد الأرمن، ونهب الأراضي الأذربيجانية من قبل الأرمن، ومدح الشهادة وصفحات البطولة في التاريخ الإسلامي.

ولا شك أن مثل هذه الموضوعات أثرت تأثيرًا مباشرًا على تطور الأدب الأذربيجاني المعاصر، وعلى مضامين النقد الأدبي الأذربيجاني.

(٢)

اصطبغ الأدب الأذربيجاني بصبغة جديدة بعد دخول أذربيجان ضمن الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٠م. ولا شك أن الاحتلال السوفيتي أثر على الحياة العامة في أذربيجان، ولاسيما الحياة الأدبية والعلمية؛ حيث قام النظام الأيديولوجي السوفيتي بتطويع الأدب كأداة من أدوات السياسة، وبإعداد منهج إبداعي خاص من أجل التحكم في تطور هذا الأدب، كما سعى هذا النظام أيضًا إلى إخضاع جميع الفنون لهذا المنهج، مما أدى إلى ظهور أدب يستند على مبدأ يسمى "الواقعية الاشتراكية"، وهو أدب يستند في الظاهر على المنهج الواقعي، ولكنه في الأصل بعيد عن المدرسة الواقعية في الأدب؛ فقد تحول الأدب إلى ما يسمى الأدب الملتزم أو الأدب الموجه الذي يترنم بنظام الحياة السوفيتية فقط. وبهذا لم يدخل الاتجاه "الواقعي الاشتراكي" إلى الأدب الأذربيجاني والفكر الاجتماعي الأذربيجاني بطريقة طبيعية، بل أُقحم عليها، وفرض عليها فرضًا.

ومن المبادئ الرئيسة لاتجاه "الواقعية الاشتراكية" خلق أدب يحمل سمات قومية، ومضمونه يكون اشتراكيًا. وأدى هذا بدوره بشكل مباشر إلى إبعاد الأدب عن القومية وقولبته في شكل يوافق المبادئ الروسية تحت مسمى "الاشتراكية".

(٣)

استمر الاتجاه الأدبي في أذربيجان يتخذ هذا المنحى حتى وصل إلى مرحلة فاصلة سميت بمرحلة "أدب الستينيات" أو "مساعي الأدب لإعادة الوعي القومي"؛ حيث "سعى "أدباء الستينيات" إلى إزالة قوالب وحدود المنهج "الواقعي الاشتراكي" التقليدي، ورغبوا في إنشاء أدب مميز لا يكون خاصا بالمجتمع السوفيتي آنذاك. وبدأ تدريجيًا الابتعاد عن منهج البطل الإيجابي والبطل المثالي الذي كان ينادي به الأدباء الروس، وذلك بفضل الأعمال الأدبية التي كتبها هؤلاء الكتاب. وبدأ استخدام نماذج الإنسان العادي والبسيط بدلاً من هؤلاء الأبطال. كما نجح "أدباء الستينيات" في العزوف عن استخدام الأدب الموجه لخدمة الأيديولوجية السوفيتية، وطبقوا فكرة أن الأدب ينبع من الحياة وما هو إلا نتاج إبداعي فردي.

وقد اتجه الأدباء إلى تناول موضوعات جديدة مثل: "السلام، والعمل، وصداقة الشعوب" في أعمالهم الأدبية، وذلك عقب انتصار الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م) والتي شارك أبناء الشعب الأذربيجاني فيها ضمن تركيبة القوات السوفيتية.

كما قويت القضايا الاجتماعية وإعادة الوعي للإنسان في الأدب الأذربيجاني منذ ستينيات القرن العشرين. وسعى لتجديد وتحديث الأدب كتاب أمثال: "إسماعيل شيخلي"، و"عيسى حسينوف"، و"أكرم إيلسلي"، و"عزيزة جعفر زاده"، و"علي

عيسى نجات"، و"عيسى ميلك زاده "، وكذلك شعراء أمثال " باختيار وهاب زاده "، و"خليل رضا"، و"محمد آراز". وبدأت الأعمال الأدبية التي تهتم بالإنسان وهمومه ومآسيه تكسب أهمية كبيرة في البيئة الأدبية والاجتماعية. وأصبحت أيضًا قضية الوجدان والحقيقة في الفن الإبداعي ضرورة ملحة. وقد ظهرت في هذه الفترة أعمال أدبية ساعدت في إعادة وعي الشعب وإحياء شعوره ووجدانه القومي، ومن هذه الأعمال رواية (الدعامة الرئيسية) لـ"ميرزا إبراهيموف"، ورواية (نهر كور المجنون) لـ"إسماعيل شيخلي"، ورواية (غابات ساحل نهر كور)، ورواية (محمد، ممد، مميش) لـ"جنكيز حسينوف"، ورواية (القلب المحترق) لـ"عيسى حسينوف"، ورواية (عرش الدنيا) لـ"صابر أحمدوف"، ورواية (لو لم تكن الوردة الحمراء) لـ"رسول رضا"، (جولستان) لـ"باختيار وهاب زاده" وغيرها.

وبسبب أن هذه الحركة الأدبية قد بدأت في الستينيات من القرن العشرين عُرف كتاب وشعراء تلك الفترة في الأدب الأذربيجاني باسم "أدباء الستينيات".

(٤)

اتخذت اتجاهات الأدب الأذربيجاني المعاصر شكلاً جديدًا عقب حصول أذربيجان على استقلالها عن الاتحاد السوفيتي في الثامن عشر من أكتوبر عام ١٩٩١م، حيث بدأت تدريجيًا تتلاشى الأيديولوجية السوفيتية التي سادت أكثر من سبعين عامًا خلال الحكم السوفيتي، وكذلك المنهج الأوحد (الواقعية الاشتراكية) في الدراسات الأذربيجانية التي كانت لا تعرف سوى الأفكار والآراء التي تتلاءم مع الحكم السوفيتي.

فبعد أن خرجت أذربيجان من عباءة الاتحاد السوفيتي، أصبح التغير أمرًا حتميا في شتى المجالات، ولاسيما مجال الأدب والدراسات الأدبية المعاصرة.

والحق أن هذا التغير لم يأت فجأة بعد الاستقلال، بل كان له إرهاصات قبل سقوط الاتحاد السوفيتي نظرًا للوهن الذي أصابه في أواخر أيامه.

ويمكن القول: إنه حدثت في اتجاهات الأدب الأذربيجاني المعاصر في فترة الاستقلال حالة يطلق عليها "**حالة انفتاح واندماج ورحابة أفق**" من حيث الشكل والمضمون في الأدب الأذربيجاني المعاصر؛ فقد ظهرت على الساحة موضوعات وقضايا جديدة، وكذلك رفع الحظر عن قضايا وموضوعات أخرى كان ممنوعًا التطرق إليها أيام الاتحاد السوفيتي، وكذلك رفع الحظر عن دراسة شخصيات وطنية كان لها دور أثناء حكم الاتحاد السوفيتي في الحفاظ على هوية الشعب الأذربيجاني من خلال أعمالهم الأدبية وأفكارهم التي لم تنل القبول أثناء الحكم السوفيتي.

إن قضية "إعادة الوعي القومي" للشعب الأذربيجاني كانت في مقدمة الموضوعات التي أولاها الكتاب والنقاد والباحثون في أذربيجان بعد الاستقلال اهتمامًا كبيرًا في أعمالهم الأدبية، لأن الروس سعوا طيلة سبعين عامًا إلى طمس هوية الشعوب التي كانت تحت سيطرتهم، وإبعادهم عن جذورهم القومية، فبالنسبة إلى أذربيجان حاولوا إبعادها عن جذورها التركية وعلاقاتها التاريخية مع الأتراك والعالم التركي وقطع كل ما يمت بصلة إلى التاريخ المشترك بينهما.

(٥)

بدأت القصة الأذربيجانية في الظهور في النصف الأول من القرن التاسع عشر، على يد الكاتب الأذربيجاني "إسماعيل بك قوتقاشينلي (١٨٠٨– ١٨٦١م) من خلال قصة طويلة تسمى "رشيد بك وسعادت خانم" ألفها باللغة الفرنسية عام

١٨٣٥م. ثم تلت هذه التجربة القصصية البدائية قصة "الكواكب المخدوعة" للكاتب الأذربيجاني الشهير "ميرزا فتعلى أخوندوف" (١٨١٢ – ١٨٧٨م) والتي كتبها عام ١٨٥٧م، وكانت بمثابة خطوة نحو بداية تطور هذا الفن الأدبي المهم.

لقد اتسمت جميع المحاولات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر لكتاب القصص الأذربيجانية بالبدائية وأنها أول تجربة على طريق تطور هذا الفن الأدبي.

وكان "فن القصة" آنذاك يشبه النبتة التي نشأت في أرض بعيدة عن أذربيجان، ثم جلبت للمناخ الأذربيجاني. لذلك كان لزامًا على بعض الكتاب الأذربيجانيين آنذاك أن يُطوعوا هذه النبتة "أي الفن القصصي" للمناخ الأدبي والذوق العام الأذربيجاني. وكان هذا الأمر من نصيب كبار كتاب الواقعية الأذربيجانيين آنذاك "جليل محمد قولوزاده" (١٨٦٩– ١٩٣٢م) و"عبد الرحيم بك حق ويرديف" (١٨٧٠ – ١٩٣٣م)، و"سلمان صاني آخندوق" (١٨٧٥– ١٩٣٩م).

ولم يكن الفن القصصي الأذربيجاني قد اكتمل بمفهومه الحالي آنذاك، لذلك بدأ هؤلاء الكتاب الثلاثة في إبداع العديد من القصص القصيرة التي كان لها دور كبير في تطور فن القصة الأذربيجانية المعاصرة، وذلك من خلال تناول القضايا التي تعبر عن تطلعات الشعب وتجسد مشكلاته من خلال لغة بسيطة يفهمها الشعب.

ويعد الكاتب الأذربيجاني "جليل محمد قولو زاده" رائدًا من رواد القصة القصيرة الأذربيجانية، حيث جلب للنثر الأذربيجاني بصفة عامة أسلوبًا إبداعيًا جديدًا يضم بداخله قضايا المجتمع الأذربيجاني، ويعكس الحالة النفسية للشخصية الأذربيجانية والخصائص الداخلية لها. وكانت أولى قصصه القصيرة قصة "صندوق البريد"، تلاها العديد من القصص الأخرى مثل "حكايات قرية دانا داش"، و"الأسطى زينال"، و"قربانلى بك".

(٦)

ومما لا شك فيه أن الأدب القصصي الأذربيجاني تطور خلال فترة الاتحاد السوفيتي وتأثر بالأدب الروسي شأنه في ذلك شأن سائر الأنواع الأدبية الأخرى كالرواية والمسرح والشعر. ولكن طرأت على الأدب القصصي الأذربيجاني في فترة الاستقلال موضوعات جديدة لم تكن موجودة قبل ذلك، مثل الصراع الأرميني- الأذربيجاني، وقضية قراباغ، وقضية اللاجئين النازحين من قراباغ، وكذلك القضايا الاجتماعية والنفسية المختلفة التي تعكس واقع الشعب الأذربيجاني، وكذلك القضايا التاريخية.

ومن هذا المنطلق تتضح أهمية العمل الذي بين أيدينا؛ فلأول مرة يتعرف القارئ العربي على مجموعة قصصية مميزة بلغت عشرين قصة مختلفة من روائع الأدب القصصي الأذربيجاني المعاصر، كتبها عدد من كبار الكتاب أثروا الحياة الأدبية الأذربيجانية ليس فقط في مجال القصة، بل في مجال النثر الأذربيجاني المعاصر بكل أنواعه الأدبية.

وقد تم اختيار القصص الواردة في هذا الكتاب بعناية فائقة؛ من أجل إطلاع القارئ العربي لأول مرة على نماذج من أهم القصص التي أثرت في الأدب الأذربيجاني المعاصر، وكان لها دور كبير في رسم ملامح هذا الأدب.

ومما لا شك فيه أن عنوان العمل الفني، ولا سيما القصة القصيرة له دور كبير في قراءتها أو الإحجام عن هذا الأمر، وذلك لأن العنوان هو أول تجليات الخطاب التي يقابلها القارئ قبل أن يشرع في قراءة النص، ومع أن وظيفة العنوان الأساسية هي التحديد والتسمية، فإن دلالته تؤسس بصفته دالا يكتمل بمدلوله، أو أفقًا يفتح المجال أمام توقع القارئ أو علامة ناجزة.

وعند استقراء عناوين القصص التي بين أيدينا، نجدها تندرج تحت مسمى العناوين المباشرة التي تعكس لنا مدلول القصة وموضوعها بشكل مباشر، ويتضح هذا جليا في عناوين قصص مثل "رصاصة الخائن"، "التعويذة"، "العتبة"، "الذعر"، "مصير قاشي"، "عبرة الكلب"، "الفقيد"، "الاحتضار"، "الفراشة". وبالطبع فإن استخدام مثل هذه العناوين المباشرة يلعب دورًا في تحفيز القارئ لقراءة هذه القصص، والتطلع لمعرفة مغزى العنوان.

كما أن موضوع الراوي وزاوية الرؤية من العناصر الفنية المهمة في أي عمل فني، ولاسيما في القصة القصيرة. ويعرف الراوي بأنه واحد من شخوص القصة، إلا أنه قد ينتمي إلى عالم آخر غير العالم الذي تتحرك فيه شخصياتها، ويقوم بوظائف تختلف عن وظيفتها، ويسمح له بالحركة في زمان ومكان أكثر اتساعًا من زمانها ومكانها، فبينما تقوم الشخصيات بصناعة الأفعال والأقوال والأفكار التي تدير دفة العالم الخيالي المصور، وتدفعه نحو الصراع والتطور، فإن دور الراوي يتجاوز ذلك إلى عرض هذا العالم كله من زاوية معينة، ووضعها في إطار خاص، فالشخصيات تعمل، وتتحدث وتفكر، والراوي يعي، ويرصد ما تفعله الشخصيات، وما تقوله، وما تفكر فيه وما تتناجى به، ثم يعرضه.

ومن خلال هذا المنظور فقد تعددت زوايا الرؤية في القصص التي بين أيدينا، حيث إننا نلحظ في معظم القصص التي اخترناها استخدام تقنية "الرؤية من الخلف" التي تعتمد على ما يسمى بـ "الراوي العليم" الذي يعرف كل شيء في الماضي والمستقبل عن الشخصية، ويعرف أيضًا ما يدور في خلدها وما تنوي أن تقوم به. وهو ما اتضح جليا في قصص مثل "التعويذة"، و"الاحتضار"، و"مسرح الغرفة".

(٧)

إن الأدب القصصي الأذربيجاني المعاصر تفاعل مع قضايا وشواغل المجتمع الذي عانى منها فترات طويلة تحت وطأة الاحتلال. فاقترب من الحياة ومشاكل المجتمع، وتفاعل أيضًا مع هموم الشعب، وعكس آماله وآلامه، والقصة الأذربيجانية بهذا المعنى أصبحت قالبًا يعكس حقائق الحياة في الأدب ويفسرها، وإن كانت موضوعات القصة الأذربيجانية مرتبطة بالحياة السياسية والاجتماعية والتاريخية للشعب الأذربيجاني، فإنها لم تخل من تقنيات فنية واتجاهات ومذاهب أدبية عدة. متأثرة في ذلك بمثيلتها الروسية والتي بلغت شأنًا كبيرًا بين الفنون والآداب العالمية.

لقد شغل موضوع الاغتراب والصراعات التي تجري في جنبات المجتمع الأذربيجاني بطوائفه، وطبقاته المختلفة حيزًا لا بأس به من صفحات الأدب القصصي الأذربيجاني المعاصر، كما نجد ذلك في قصة "العتبة" للكاتب الأذربيجاني "يوسف صمد أغلو" الذي يجسد لنا في هذه القصة شعور الإنسان بالاغتراب الذاتي أو الاغتراب عن الذات. وهذا النوع من الاغتراب هو الأصل في كل اغتراب، وأن هذا النمط من الاغتراب المتمركز حول الذات قد يؤدي إلى أنماط أخرى؛ كالاغتراب عن المجتمع أو الاغتراب الديني، أو بأكثر شمولية الاغتراب عن العالم الموضوعي.

كما استخدم بعض القصاصين الأذربيجانيين الفولكلور الأذربيجاني كمادة خصبة لأعمالهم القصصية، على نحو ما رأينا ذلك في قصة "الغلام الحجري" للكاتبة عزيزة جعفر زاده، وقصة "حادث غريب" للكاتب أورخان فكرت أوغلو. كما كان للصراع النفسي للشخصية نصيب في أعمال القصاصين الأذربيجانيين،

حيث اتجه الكاتب الأذربيجاني الكبير "آنار" في قصته الطويلة "الذعر" إلى تصوير الصراع النفسي الرهيب الذي أصاب البطل جراء انحرافه الأخلاقي.

وتناولت بعض القصص كقصة "ميناء التبغ" للكاتب "أجدر أول" وقصة "ثلاثة أيام في تيغا" للكاتب "محمد أوروج" إعادة تصوير موقف من مواقف الحياة الماضية بلغة درامية مؤثرة؛ فقصص المزج بين ذكريات الماضي وأحداث الحاضر تدفع المتلقي نحو الجنوح بخياله وتصور أشياء ربما لم ترد في نص الراوي، وهي الفجوات النصية التي تزيد القصة تأثيرًا.

ونلحظ أن معظم الأدباء يشتركون في أن الماضي برغم كونه ماضيًا، فإنه يمارس تأثيرًا ضخمًا سواء على الأديب في أثناء عملية الإبداع، أو على مضمون العمل الأدبي وما يحتويه من شخصيات ومواقف. وتلعب رواسب العقل الباطن وأوهام الماضي وذكرياته المهزوزة دورًا كبيرًا في تحويل الأوهام إلى مؤثرات ملموسة تعزل الإنسان عن حاضره وتدفعه إلى الماضي. ومن هنا كان الانفصام الذي يحدث بين روح الإنسان التي تعيش في الماضي وجسده الموجود في الحاضر.

كما نجد أن القاص الأذربيجاني يغرق في التصورات الشعبية والتراث القديم حين يعالج موضوعًا من الموضوعات القصصية التي يربطها بشكل كبير بواقع الإنسان؛ فقصة "التعويذة" للكاتب "إيسي مليكزاده" تعبير عن هذا الطرح بكل مفرداته. ولم يتخلص الكتّاب الأذربيجانيون من التأثيرات الروسية في تصوير العلاقات غير الشرعية ودورها في رسم الشخصية والتندر أحيانًا على من يتبنون هذه الرؤى المتحررة من الاشتراكيين.

وقد تنوعت المعالجات الفنية للفن القصصي في أذربيجان فنجد أن الكاتب "صابر أحمدلي" في قصته "صوت قادم من البحر" وجه رسالة مؤثرة على لسان

ميت – على يد القوات الروسية التي اقتحمت أذربيجان في العشرين من يناير ١٩٩٠م –يوجهها لأمه الرؤوم وكأنه يوجهها لوطنه.

ويبدو لنا جليا من خلال النماذج القصصية الواردة في هذا الكتاب أن التجارب الإبداعية للقصاصين الأذربيجانيين أوضحت براعة ونضجًا فكريًا كبيرًا لهؤلاء القصاصين وأظهرت أيضًا قدرتهم على ربط الأدب بقيم ومبادئ وتراث الشعب الأذربيجاني. وليس أدل على براعة هذه النصوص سوى الاطلاع عليها والغوص في أفكارها وأخيلتها وتجاربها الفنية المتقنة. وهو ما سيدفع المتلقي نحو الاستزادة من هذا الأدب الرائع.

وفي الختام يجب الإشارة إلى أن كتاب "مختارات من القصة الأذربيجانية المعاصر" يعد باكورة التعاون المشترك بين المركز القومي للترجمة بجمهورية مصر العربية ومركز الترجمة التابع لرئاسة الوزراء الأذربيجانية. كما يعد هذا أيضا أول تعاون لمركز الترجمة الأذربيجاني مع أحد مراكز الترجمة بالدول العربية. ولا شك أن هذا يجعل مصر ومؤسساتها لها السبق دائما في التعاون البناء مع مثل هذه الدول التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق.

ونأمل في القريب العاجل صدور العديد من الأعمال الإبداعية الأخرى الهادفة باللغتين العربية والأذربيجانية والتي تلعب دورا مهما في تقريب الشعبين المصري والأذربيجاني.

د/ أحمد سامي العايدي

(١)

قصة "رصاصة الخائن"



الكاتب/ إسماعيل شيخلي

(١٩١٩ - ١٩٩٥م)

كاتب أذربيجاني حصل على لقب "كاتب الشعب الأذربيجاني"، وعرف أيضًا بـ"خادم اجتماعي مرموق"، حصل على جائزة "ميزا فتحعلى أخوندوف" الأدبية. له العشرات من المؤلفات الأدبية مثل "في مياه كرتش"، و"الجبال تنادي"، و"الطرق المنفصلة"، و"نهر كور المجنون"، و"منافسي"، و"سنوات تعود للذكرى"، و"لا تفقدوني"، و"طرق الجبهة" وغيرها من المؤلفات. ترجمت أعماله إلى اللغات الروسية والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية وجميع لغات شعوب الاتحاد السوفيتي السابق. شغل منصب "الأمين الأول" لاتحاد الكتاب الأذربيجانيين (١٩٨١ - ١٩٨٧م)، ومنصب "أمين اتحاد كتاب الاتحاد السوفيتي السابق (١٩٨١ - ١٩٨٧م). كما حصل على وسام "علم العمل الأحمر" عام (١٩٧٩م)، وشهادات فخرية من اللجنة العليا للاتحاد السوفيتي السابق. كما حصل على جائزة الدولة عن رواية "نهر كور المجنون".

قصة "رصاصة الخائن"

للكاتب / إسماعيل شيخلي

إلى صديقي حسين عارف

عندما كان شيخ البلد "نفتلي" يغير لجام الحصان، وحينها أراد أن يغير سرجه كذلك. وكعادته أراد أن يغسل ظهر الحصان من العرق بماء الترعة، ولكنه تراجع عن فكرته. كان لجام الحصان طويلاً يقترب من مجرى الماء. كان يعرف أن الجو حار، وأن الحصان غارق في عرقه، ولكن لا يوجد حل لهذا! كان يربط الحصان في أي مكان، ويغير لجامه حتى لا يعرق، ويرفع عنه السرج كي يستطيع أن يأخذ نفسه. وكان الحصان إما أن يأكل، أو يصهل، أو ينزع الوتد ويذهب إلى الحظيرة. كان "نفتلي" "لا يشبع من النظر إلى حصانه اللامع ذى العينين الجاحظتين، وحتى إلى مؤخرته، وإلى شعر رأسه الناعم الذي يشبه شعر الفتاة. وكان في أحيان كثيرة يقبض على شعر الحصان ويمتطيه، ويذهب به إلى نهر "كور" ويحمّمه وكان في أحيان كثيرة ينام على شعر رقبته، ويقفز إلى الجانب الآخر. آنذاك لم يكن لديه أو لدى الحصان أي خوف. كان شابًا عاديًا.... ولكنه الآن– بعد أن أصبح "شيخ البلد – يعيش حياة مضطربة ...

صعد إلى التل الصغير بخطى وئيدة. قفز من على مجرى الماء ووقف تحت ظل الأشجار. سلط عينيه نحو حقول القمح الممتدة في الآفاق. كانت هناك رياح تهب. وكانت أعواد السنابل السوداء تصطفق. كما كانت أشجار "الحور" الممتدة وسط هذه الصحراء الرمادية الواسعة التي ذبلت حشائشها منذ زمن بعيد تصطفق

هي الأخرى. كان مجرى الماء النابع من أعماق هذا الشجر الذي غرسه أحد الموتى من أجل الثواب يصدر خريرًا. نظر شيخ البلد "نفتلي" إلى السجادة والوسادة الملقيين في الظل. كان دائمًا عندما يأتي لزيارة المزارعين يستلقي هناك ويستريح. والآن مر من فوق السجادة وأراد أن يتكئ على الوسادة. وبالرغم من أن الجو خانق، فلم يخلع نعليه ولم يضع عن كتفه بندقيته ولم يلق عكازه. ولكنه رأى أن هذا مستحيل، فالعرق يكاد يغرقه. علاوة على ذلك فممن يخاف؟ فربما "كرم"[1] الآن في ناحية "ديليجان"، مستحيل أن يكون "كرم" هنا في حر هذا الصيف.

حتى ولو كان موجودًا، لا يخشى ذلك. لأنه لم يطلق رصاصة طيلة حياته على شخص أعزل. كان يحتاط فقط من ذلك الفتى (أي كرم)، فبعد أن بدأ "كرم" في مناهضة السلطة والإقطاعيين، كان يتجول في هذه الأماكن والمراعي....

أسند بندقيته على الشجرة، وخلع نعليه، وفتح أزرة قميصه ذي الياقة الحريرية، واستلقى على السجادة، واستند إلى الوسادة. كانت مناجل المزارعين الذين ربطوا على رؤوسهم بمناديل الجيب تصدر أزيزًا. كان صوت هذا الأزيز يختلط مع أصوات المراعي. كان المزارعون منهمكون في العمل. كانوا يريدون أن ينهوا أعمالهم بسرعة، ليتقاضوا أجورهم، وليذهبوا بالقمح لأولادهم في المراعي الصيفية[2]. لذلك كان شيخ البلد "نفتلي" يُسرع هو الآخر، لأن الناس

---

(١) يقصد بـ"كرم" هنا الشاطر "كرم"؛ وهو يسمى في اللغة الأذربيجانية "قاچاق كرم"، وهو شخصية شعبية في الأدب الأذربيجاني تعمل على مناصرة الفقراء في القرى، وتحاول منع ظلم الإقطاعيين ومن يمثلون السلطة في تلك الحقبة التاريخية. وهذه الشخصية دائمة الصراع مع السلطة وبينها صراعات مستمرة. ويصاحب هذه الشخصية عصبة مكونة من العديد من الأشخاص الذين يعاونونها في تحقيق هدفها المتمثل في سلب أموال الأغنياء والإقطاعيين وتوزيعها على الفقراء. (المترجم)

(٢) بسبب الطبيعة الجبلية في أذربيجان كان الناس في الشتاء يجلسون في الوادي، وفي الصيف يصعدون إلى المراعي الصيفية أعلى الجبال حيث الجو المعتدل هناك. (المترجم)

ولجوا منذ فترة إلى المرعى ولكنه أجل رحيله إلى المرعى الصيفي. والحق أنه كان يخشى من البقاء وحيدًا في القرية. هناك أشقياء كثيرون.... أحدهم هو "مرشد الغريب".

كان لا يعرف أحد في القرية جذوره، الشيء الوحيد الذي كان معلومًا من زمن بعيد أن غلامًا كان يقف أمام منزل أسرة "تفتلي" مُهلهَل الملابس، يعتصره الجوع، ذا نظرات مريضة مطأطأ الرأس. كانت في يده عصا، وعلى ظهره جوال قديم، وعلى رأسه قبعة متهالكة. شعث شعر وجهه وجفت شفتاه من شدة البرد. كانت عيناه تبرق بصعوبة كماء في غياهب بئر عميق.

خرجوا على صوت الضجيج، فقد عوت الكلاب على الواقف أمام الباب، قائلين: "أيها الصغير، من أنت؟ وضع والد "تفتلي" معطفه المصنوع من الفراء على كتفه، واتجه هو وابنه نحو باب حديقة المنزل. نظر بتعجب إلى هذا الذي قدم من مكان ما، وفهم أنه ليس من أهالي هذه البلدة. سرعان ما أصبح لجوء بعض الغرباء إلى القرية أمرًا متكررًا في الآونة الأخيرة، حيث يلجأ مثل هؤلاء للقرية إما بعد أن يكون قد قتل عدوه وجاء ليختبئ في هذه القرية، وإما يهيم في هذا المناطق على وجهه من أجل كسرة خبز. تفقد الرجل الفتى من رأسه إلى أخمص قدميه وقال في نفسه: "لا، هذا الفتى لا يشبه من قتل شخصًا وهرب، ربما في الأمر شيء آخر". في الحقيقة لم تُعجب الرجل عينا الفتى العميقتان.

كأن الغريب شعر بهذا، وفطن إلى أنه سوف يصده عند الباب ويطرده والشتاء في بداياته، فجعل في صوته بعض الشفقة:

-أنا لاجئ أيها الخال، وليس لي أحد مطلقًا.

نظر الرجل لابنه. أما "تفتلي" فركز عينه على إصبع قـدم اللاجـئ التـي خرجت من حذائه المتهالك.

-من دلّك على هذا المكان؟

-لا أحد. جئتُ من نفسي. أستجير بكم.

نظر الوالد إلى الابن، والابن إلى الأب.

-ما اسمك؟

-مرشد.

أكان يقول الصدق؟ الله أعلم، ليس معه أي مستندات، أو دليل على هويتـه. كان شخصًا غريبًا. ومنذ ذلك اليوم وهم يطلقون عليه في القرية "مرشد الغريب".

في البداية كان يرعى الماشية، ثم ذهب إلـى المـزارع. وأصـبح صـديقًا لـ "تفتلي"، بل أصبحا أخوين. وبعد أن مات والده، أعطاه "تفتلي" أرضًا.

تعاونوا وبنوا له منزلاً صغيرًا. وأعطاه نصيبًا أيضًا من الماشـية، وأهـداه حصانًا أيضًا. وتزوج إحدى بنات الأقارب وفتح بيتًا. كان "مرشد الغريب" مـاهرًا. بعد أن بدأت الأموال تجري في يده، اتجه إلى "تفليس" و"غنجة". وتحسنت معيشته. بل تحسن هو الآخر من حيث البنية والصحة والمنظر العام.

سمع "تفتلي" ذات يوم أن "مرشدا" يضايق زوجته. لم يعجبه هذا. فدعاه إليه. وانتظر يومين أو ثلاثة، ولكن لم يأته أي خبر من "مرشد". وذات يوم تقـابلا فـي الطريق.

-لماذا لا تظهر؟

-ماذا حدث، هل من الضروري أن أظهر؟

-ربما لدي بعض الكلام لك؟

-أي كلام من الممكن يكون لديك لي؟

-آه، كم تتحدث بتعال؟

-ألصمت؟

زمجر الفرسان وشدا لجامهما. وتواجها واقفين على أرجلهما الخلفية وأصدرا صهيلاً. علا غبار الطريق إلى عنان السماء.

-آه، ربما، تملكك الغرور؟ ما أسرع ما أصابك من غرور أيها الفتى؟

-لا تتحدث كلامًا فارغًا، هات ما عندك!

كتم "تفتلي" غضبه بصعوبة:

-لو سمعتُ مرة ثانية أنك رفعت يدك على زوجتك وأولادك، سوف أفعل معك ما ينبغي فعله، فهمت؟!

-أنت تخطئ، لازلت تتذكر الماضي!

-آه، أيها الوغد الغريب، أترد علي؟!

تزامن ضرب السوط في الهواء مع سقوط "مرشد" بجوار حوافر الحصان. فضربه "تفتلي" بالسوط وهو على ظهر الحصان. فغضب الحصان هو الآخر مثل صاحبه، ودهسه هو الآخر تحت أقدامه. فلم يهدأ غضب "تفتلي". قفز ونزل من على السرج. فأمسك بتلابيب "الغريب" الممرمغ في التراب، وجره إلى جانب الطريق. وسل خنجره.

-لقد أخطأت، ونسيتُ ماضي، يا "تفتلي". لا تقتلني، أولادي مساكين. بحق قبر والدك، اتركني لصغاري، تكسب خيرًا.

تركه "تفتلي". نظر بكراهية إلى عين "مرشد" التي كانت تشبه مياهًا تلمع في غياهب جب، وترك مجامع ثيابه.

-اذهب، اتركك من أجل أسرتك.

نهض "مرشد" دون أن يتفوه بكلمة. نفض التراب من على جسده، وأمسك اللجام وقفز على ظهر الحصان صامتًا. واتجه نحو القرية وكأن على رأسه الطير. فجأة شد اللجام، والتفت وراءه.

-حسنًا، يا "تفتلي"... لن أكون رجلًا لو لم أقتص منك بسبب هذا. ستأتي وتأخذ الحمارة التي ابتليتني بها.

أصدر الحصان صهيلًا وهز رأسه حينها عاد "تفتلي" إلى وغيه. ركب "تفتلي" الحصان، وأدار بندقيته، وغاب عن الأنظار في هذا الطريق المغبر. وفي اليوم التالي سمع أن "مرشد" أخذ أشياء وهرب من المنزل...

بعدما تولى "تفتلي" شياخة البلدة، بدأ الناس في الغضب منه بسبب أو من غير سبب.

مهما حاول الابتعاد عن المشاكل، وتجنب رؤية ما يفعله الناس من أخطاء، كان لا يفلح. كان الناس يبحثون عنه ويجدونه ويلقون اللوم عليه "لماذا لم تقبض على اللص؟ لماذا قدموا الطعام إلى الهارب الفلاني؟ لماذا جعلت الشاطر كرم" يعبر من نهر "كور"؛ ماذا كان سيفعل؟ ولكن أمثل هذه الأمور تدفعه لقطع علاقاته بالناس؟ المنصب مثل النير المعلق في عنق حيوانات الجر، فهم يضعون هذا النير على عنق الحيوان ويركبون على ظهره، ويقودونه إلى الاتجاه الذي يريدونه. فإما عليك أن تصبر، وإما عليك أن تجاريهم!

كان الجو شديد الحرارة. وكان السراب المتصاعد من المراعي يلعق الهواء كنار الموقد، ويعلو التلال الرمادية وينتشر فوق القرية، ويَعبر من هناك فوق نهر "كور" الذي تتلألأ مياهه ويحرق أشجار غابة "قارايازي". كانت اليعاسب الملتصقة

بجذوع الأشجار التي يتمدد شيخ البلد "تفتلي" تحت ظلها تصدر صريرًا يجعل أذن الإنسان تُصم. لقد أضاق الحر وكذلك صرير اليعاسب "تفتلي" ذرعًا. أراد أن يضع قدميه في الماء ليرطب جسده ويبلل صدره ورأسه ويستريح قليلاً. نهض على قدميه، وخلع سترته واقترب من مجرى الماء، وجلس القرفصاء. مد يده في الماء. ولم ير الفرسان القادمين من الطريق الترابي المتجه نحو التل بجوار المقابر والممتد ناحية نهر "كور". ولم يسمع صهيل الخيول وصوت ركابها أو حتى وقع أقدام الخيول؛ لأن صرير اليعاسب أصم أذنه. لم يشعر سوى برصاصة أصابت ظهره. سحب يده من الماء واستقام، والتفت إلى الخلف، فرأى أحد الفرسان قد سحب لجام فرسه وأسرع، واستدار صارخًا في شخص آخر، وضرب بالسوط محدثًا صوتًا:

-أيها الوغد الخائن!

لم يسمع شيئًا بعد ذلك. ضعف فجأة وتلاشى صوت القش، وهمس أوراق الأشجار، وخرير مجرى الماء وصرير اليعاسب، وأصبحت كل هذه الأصوات لا تسمع. وملأ السراب المتوهج عينه كأنه جمر، وتموج أمام عينيه، وتحول إلى ضباب، وغشى الضباب كل شيء...

قفز "كرم" من الحصان، وألقى بنفسه تحت الشجرة، أخذ رأس "شيخ البلد تفتلي" على ركبته. أصبت الرصاصة ظهره وخرجت من صدره.

كانت عينه مغلقة. وعُرف فقط من خلال اهتزازة خفيفة لشفتيه أنه لا يزال على قيد الحياة. لم يره "كرم" عن قرب هكذا منذ أن نشب بينهما العداء. لقد تغير الرجل كثيرًا. وأصبح سمينًا بعض الشيء، وامتد قليلا شاربه الكثيف. وابيضت جبهته بعض الشيء. وظهرت بعض التجاعيد حول عينيه. رأى "كرم" أن "شيخ البلد تفتلي" ينزف دمًا. فأسرع، ومد عينه وفتح له أزرة القميص، ولم يعرف كيف

يساعد الرجل. وكأن "تفتلي" شعر بهذا فتحرك قليلاً، فُتحت عيناه بعــض الــشيء. نظر إلى وجه "كرم" بدقة. هدأت -كماء راكد-حدقة عينه التــي أصــبحت مثــل الشبكة، وفجأة اتسعت. شعر "كرم" أن بدن "تفتلي" انتفض، كأن الرجل أصابته لفحة برد. فانتفض جسده هو الآخر، وأصابه الضيق:

-ماذا أفعل لك الآن يا "تفتلي"، لا أستطيع الذهاب إلى مدينة "غنجة" أو حتى إلى "تفليس" وماذا أفعل لما أصابك؟

سمع "تفتلي" الصوت، فأصابته الدهشة في البداية، ثم أفاق، ورفــع رأســه قليلاً، وركز عينيه المغرورقتين في وجه الشخص الواقف أمامه. ربما أدرك فــوق ركبة من تستند رأسه. في البداية انفعل. فشعر "كرم" بخروج شرر من عينيه. وهدأ فجأة بمجرد أن تلاشى هذا الوميض الذي خفت كمصباح يوشك علــى الانطفــاء. حرك شفتيه:

-كرم؟

-توقعك في محله، أنا كرم.

-حسناً، وجودك أمر جيد.

هز هذا الكلام "كرم"، وكأن الذي يحتضر على قدميه ليس عدوه اللدود، بــل صديقه الحميم. وكأن هذا الشخص ليس هو الشخص الذي كان يتعقبه دومًــا فــي الجبال والوديان ويتحين الفرص ليقضي عليه. قبل هذا العداء بفترة طويلــة، كــان الاثنان رفيقي طفولة وكاتمي أسرار بعضهما البعض، حيــث كانــا يلعبــان معًــا ويسبحان في نهر "كور" ويعبران إلــى غابــة "قارايــازي" ويرقــصان بــالخيول ويتسابقان وسط القرية، ويذهبان معًا للقاء الفتيات اللائي ينظرن لهما خلسة. وأمــا الآن يتحسر الاثنان على بعضهما البعض.

كان الإنسان قديمًا شديد التسلح. كان لا يستطيع أن يقترب من "كرم"، وكذلك "كرم" لا يستطيع الاقتراب منه. أخذ كرم بندقيته، وهام على وجهه في الجبال، وكان يقضي حياته على ظهر الحصان. كان يتنقل مع العصابة التي معه من "تفليس" إلى "غنجة"، ويُقيم ميزان العدل في وادي "وليحانه"، ويتخطى الجبال ويعبر نهر "آراز"، وكان صيته يذيع أحيانًا في "إيروان" (عاصمة أرمينيا حاليا) وأحيانًا أخرى في "إيران". أما شيخ البلد "نفتلي"، فكان يعيش في منزله وسط أقاربه في نعيم. تغير تمامًا بعد أن أصبح "شيخ بلد"، أرسل له "كرم" رسائل عدة مرات، لكي لا يضايق الناس أو يؤذيهم، ولكن لا فائدة. كان "كرم" يبحث عنه، كان يبحث عنه منذ فترة طويلة حتى يحذره.

-هل في عصابتك أحد جديد؟

تأخر "كرم" في الرد على هذا السؤال الذي سمعه بصعوبة:

-نعم

-من؟

-مرشد.

-ذلك الوغد؟

انطلقت هذه الكلمة كرصاصة أصابت قلبه، وكأن عينيه غلفهما السواد. جُرح جرحًا عميقًا.

-لجأ إلي، ماذا أفعل؟

-لجأ إلينا نحن أيضًا، والنتيجة كما رأيت.

تأوه الرجل. واعتقد "كرم" أن السبب في تأوهه ليس الوجع من الجرح، بل الوجع من ضياع فضله وخيبة ظنه.

عمّ وجه "شيخ البلد نفتلي" عرق بارد، وتجعد وجهه، ثم بعد ذلك علا وجهه ما يشبه الابتسامة بدلاً من الوجع والمعاناة.

- الآن أستطيع أن أموت مستريحًا.... الحمد لله، خاب ظني... وإلا كنت سأرحل عن هذه الدنيا حزينًا. الشكر لله يا كرم، إنك لم تسقط من نظري... أرفع رأسي لأعلى قليلاً.

أمسك "كرم" به من تحت إبطيه وأسنده على فخذيه. تمالك "نفتلي" وجعه وهدأ. وتسربت من وجهه ومضة حياة خفيفة تشبه أنفاس الطيور. نظر إلى الآفاق. شعر "كرم" بأن عينيه التي تشبه الشبكة تنظران إلى الضفة الأخرى من نهر "كور"؛ نحو غابة "قارايازي" الممتدة بطول ساحل النهر بداية من سهل "جبران جول"، ونحو منازل القرية الموجودة على مسافة بعيدة، وكذلك نحو المزارع، والمراعي، وإلى أكوام أعواد القمح المجمعة، وإلى الأطفال الذين يرعون الماشية. جفت المزارع في أماكنها. هبت رياح خفيفة مرة أخرى، فأصدرت أعواد القمح خشخشة ثانية، وسمع خرير الماء الجاري بمجرى الماء، وكانت اليعاسب هي الأخرى تصدر صريرًا من جديد. مر من أمام عيني "شيخ البلد نفتلي" سراب متموج يشبه الحرارة الصادرة من الموقد. ولكنه لم يكن يستطيع أن يميز هل عيناه متشابكتان، أو هذا سراب؟

انتفض فجأة وحول وجهه صوب الفرسان من حوله. تفقد بنظراته رفاق "كرم" واحدًا واحدًا. وما إن وقعت عيناه على "مرشد"، اقشعر بدنه، وازداد ضيقه. رأى "كرم" أن حال الرجل تغير فجأة، وكأن حمرة حلت بخديه. كانت هذه الحمرة هي حمرة آخر قطرات دم ضخها القلب الذي يدق آخر ضرباته إلى عروقه. ركز "نفتلي" عينيه التي تنطفئ إلى وجه "كرم".

-كرم، لدى طلب أخير منك ...

-قل، لأرى ماذا تريد...

-أخرج مسدسك، واضربني في جبيني.

-ماذا تقول؟

-فليقل الناس، إن الشاطر "كرم" قتل "تفتلي"...

الرجل يقتل رجلاً يا أخي، وليس الوغد.

-يدي لا تطاوعني.

-إن لم تفعل ما أطلبه منك، تكن ابن حرام.

علا صدر "تفتلي"، وهبط رويدًا رويدًا.

تكدر "كرم". وبلع بصعوبة ريقه الذي تجمع في حلقه. بحث بعينيه على "مرشد"، فوجده. هز يده، وأراد أن يصوب البندقية في المكان نفسه، وأن يلطخ دم "تفتلي" بدم هذا الخائن القابع مثل الثعلب. ولكنه غير تفكيره قائلاً في نفسه "على أية حال لن يتركه أقارب "تفتلي" حيا وكذلك لم يرد أن يلطخ يده بالدماء.

-خذوا بندقيته وحصانه، ودعوه، فليذهب إلى الجحيم! انزل من على الحصان، وعلق بندقيتك في السرج. لو أمطرونا بالرصاص، لا دخل لك بنا، لا تحرك ساكنًا. سوف نذهب إلى القرية.

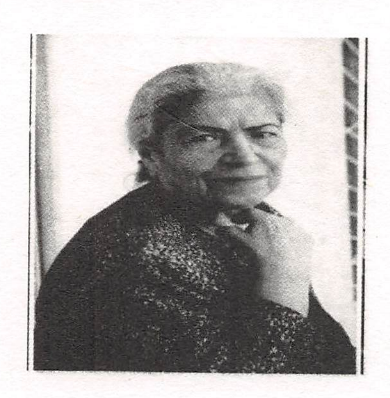
قرر "كرم" أن يذهب بنفسه ويسلم جثة "تفتلي" إلى القرية سيحمله بين يديه، وسوف يأتي حصان "تفتلي" خلفه، وسيضع رفاقه ألجمة الخيول على رقابها وسيسيرون خلف الجنازة في صمت. كان يعلم أن هذا أمر صعب. سوف يعترضهم أهل القرية، وستعلو صرخات النساء والأطفال، ولطماتهم، وسوف يشددن شعرهن، ويولولن، بل ربما أيضًا يطلقون عليهم الرصاص. وسوف يوجد

من بينهم من يتكلم كلامًا فارغًا، وكذلك من سيبلغ الشرطة. ولكن كان لا يـصدق هذا، لا يصدق أنه يوجد في القرية خائنون بهذا الشكل. هو كان على ثقة من أنهـم سوف يحملون الجثة بهدوء وسط القرية حتى منزل "تفتلي". وأنهم سوف يستقبلونهم طبقًا لعادات القرية، حتى ولو كانوا في ذهول واندهاش. وسوف يـشارك "كـرم" وعصابته في مراسم الدفن. وبعد مرور اليوم الثالث على وفـاة "تفتلـي"، سـوف يقدمون واجب العزاء إلى أقاربه، وينصرفون ويتوجهون نحو الجبال.

شعر "كرم" ببرودة فوق ذراعيه وفخذيه، فهم أن بدن "تفتلي" يبـرد. ولكنـه ينتظر شيئًا ما في أعماق عينيه الشاحبتين المسلطتين نحو وجهه.... وضـع يـده بهدوء على جراب المسدس. وفتح الزر وأصابعه تهتز ...

(٢)

قصة "الغلام الحجري"



الكاتبة/ عزيزة جعفر زاده

(١٩٢١ - ٢٠٠٣م)

كاتبة ومتخصصة في الدراسات الأدبية، وأستاذة جامعية، حصلت على لقب "خادم اجتماعي". عضو باتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام (١٩٤٦م). لها عشرات من الكتب والقصص الطويلة والروايات التاريخية مثل "قصص حول ناتافان" (١٩٦٣م)، و"لدى صوت في العالم" (١٩٧٣ - ١٩٧٨م)، "عُد للوطن" (١٩٧٧م)، و"تذكرتي" (١٩٨٠م)، و"باكو - ١٥٠١" (١٩٨١م)، و"الجلالية" (١٩٨٣م)، و"الشاعر صابر" (١٩٨٩م)، و"من بلد لأخرى" (١٩٩٢م)، و"كارثة صوت" (١٩٩٥م)، و"قبل اتفاقية جولستان" (١٩٩٦م)، و"الشاعرة زرّنتاج طاهرة" (١٩٩٦م)، و"نحو الضوء" (١٩٩٨م)، و"البلاء" (٢٠٠١م)، و"دموع عين بحر الخزر" (٢٠٠٣م)، و"سلطان العشق".

حصلت على الشهادة الفخرية من اللجنة العليا بالاتحاد السوفيتي السابق. كما حصلت على وسام "صداقة الشعوب"، وكذلك وسام "الشهرة" عقب استقلال أذربيجان. حصلت على المنحة الخاصة للرئيس الأذربيجاني. وحصلت عام ٢٠٠١م على ألقاب رفيعة "الأم الأذربيجانية"، و"كاتبة الشعب".

قصة "الغلام الحجري"

للكاتبة / عزيزة جعفر زاده

يا بني .. أنجبت الدنيا أبطالاً وشجعانًا، ومع ذلك هناك فتى عـــاش ورحـــل عن هذه الدنيا الفانية ولم يذون اسمه في أي كتاب، أصبحت بطولاتـــه وشـــجاعته أسطورة تروى على كل لسان، فتخلب الأفئدة، لم ينسه أحد سمع عنه، وكذلك لـــن أنساه مطلقًا. كلما سمعت عنه تجف دموع عيني، لأنه لا يُبكى على الأبطال، بـــل ينحنى لبطولاتهم.

يُقال: إن هذه الحكاية التي أرويها وقعت أحداثها أيام تيمور لنك أثناء هجومه على بعض أراضي شيروان (*). وكان في زمان الشيروانشاهيين حاكم عادل يحكم البلاد. واستطاع تيمور لنك السيطرة على مقدرات البلاد ويستولي على ممتلكاتهـــا، ومع ذلك ظل السكان ماكثين بها دون أن يتركوها. وقدم الشيوخ والعقلاء والنـــساء الحصيفات للحاكم "شيروان شاه" النصائح الصائبة آنذاك.

استمع، في تلك السنوات كان هناك راعٍ صغير يرعى الأغنام فـــي ســـهل "كودرو". سمع الراعي نبأ هجوم تيمور لنك على هذه الأراضي من ركبان القوافل العابرة، ووصل إليه أيضًا من صغار التجار، المهم، فإنه وإن لم ير تيمـــور لنـــك، فإنه سمع عنه.

(*) شيروان: إحدى أراضي أذربيجان التاريخية، كانت تدار من قبل حكام الشيروانشاهيين لمـــدة ثمانية قرون. وكانت عاصمة دولة الشيروانشاهين هي مدينة شمامخي الأذربيجانية. (المترجم)

كان الوقت ربيعًا في سهل "كودرو" ونمت الأعشاب حتى تراها تصل إلى ركبة المار خلالها، كان الراعي فتى في ريعان الشباب، مات والده وهو صبي، فامتهن مهنة الرعي مكانه، وخرج ليرعى الأغنام، وتعهد أمه وأخته.

عمن أخبركم، عن تيمور لنك. أُذيع أن جيوش تيمور لنك قدمت إلى سهل "كودرو". لا أعرف هل هذا صحيح أم كذب؟ ولكن يقال: إن مجموعة من الجيش ضلوا طريقهم في صحراء مترامية الأطراف، وكان من بينهم تيمور لنك. كانوا يريدون الالتقاء ببقية الجيش الذي يعسكر للراحة في مكان ما. أنهكهم الظمأ، وأصابتهم ضربة شمس، وامتدت ألسنة الخيول شبرًا للأمام من الظمأ. وكانت الحيوانات تلهث، والناس غارقة في عرقها لدرجة أن غطت ملابسهم الأملاح، كان يُخيل لهم كل ساعة أن أمام أعينهم نهرًا يسمعون منه خرير الماء، ونبع ماء يتقاطر ماؤه، وبحيرة تتلاطم أمواجها. كان كل هذا مجرد سراب. لم يكن بسهل "كودرو" نهر يجري أو عين ماء تنبع، أو هناك أية بحيرة، كانت عين ماء "كودرو" عبارة عن برك مياه راكدة نهرها وبحيرتها هذه البرك. كانت الأمطار والثلوج التي يخلفها الشتاء تملأ هذه البِرك. كان الناس يشربون منها، والأغنام أيضًا ترد هذه البرك للشرب كلما ذهبت للمرعى.

المهم، لم يصادف جيش تيمور لنك حتى البِرك، كانت البِرك شديدة الجفاف. وفجأة وهو في حالة من اليأس الشديد صادف الجيش الراعي الصغير. ورأوا أمامه قطيعًا من الأغنام يرعاه.

قال تيمور لنك لرجاله:

-مستحيل ألا يعرف هذا الراعي مكان الماء. من أين يسقي الأغنام؟ اذهبوا واسألوه.

ذهبت مجموعة من الفرسان إلى الفتى وسألوه:

-يا غلام، أين الماء الموجود بالمنطقة، لنسقى الخيول؟

رفع الغلام رأسه ونظر إلى الفارس، وقال وهو يلعب بعصاه في الأرض:

-أين سيكون الماء في هذه المناطق؟! لا يوجد نهر، ولا نبع ماء.

وفي تلك اللحظة وصل تيمور لنك مع مجموعة من رجاله عند الفتي. وعندما سمع كلام الغلام قال:

-من أين تسقي أغنامك إذًا؟

لم يرد الغلام. سأله تيمور لنك ثانية:

-ألا تسمع ماذا أقول لك؟ أين تسقي أغنامك إذًا؟

أشار الغلام بطرف عصاه إلى إحدى البِرَك الجافة:

-من تلك البرَك ...

-لا تكذب، أيها الراعي، لا يوجد ماء في البرك. جفت منذ زمن.

فكر الغلام في خاطره "كل شيء سوف يجف عندما يراكم". ثم قال يائسًا:

-عين الماء التي أسقي منها أغنامي صغيرة، لا تكفي جيشكم.

غضب القائد غضبًا شديدًا:

-لا دخلَ لك، أيها الراعي، قل على مكان الماء! سوف أعطيك عطية. ولو أردت مالاً، سأعطيك مالاً، ولو أردت جاهًا، سأعطيك جاهًا ...

قال الغلام وهو يلعب بعصاه في الأرض ثانية:

-لا حاجة لي بمالٍ أو جاه. ولن أقول عن مكان عين الماء. سوف تنضب منكم.

-هل تعرفني؟

-بالطبع أعرفك.

-من أنا؟

-تيمور ....

-أتعلم أنني أستطيع أن آمر بشنقك، أو ألقيك حيًا إلى الكلاب؟

قال الغلام وهو يحدق بعين تيمور بنظرة حادة:

-أعرف.

تعجب قادة جيش تيمور، ورجاله الملتفون حول الغلام من جرأة هذا الراعي الصغير. أي قلب يحمله هذا الطفل؟

-قل على مكان نبع الماء. أيها الغلام، لا تُثر غضبي!

-الماء مقدس مثل الأرض أيها القائد، لا يقال على مكانها للغرباء. وأنا لن أخون أبدًا.

-سوف تدفع ثمن هذا باهظًا، أيها الراعي، وآسفاه على شبابك.

-لا تتأسف بدلاً مني. دعني فلا أخاف أن يذهب ثمن دمي سدى ...

-اقطعوا لسان هذا ... لا، لا تقطعوا لسانه، لن يستطيع أن يقول على مكان الماء. اضربوه! اضربوه بالسوط حتى يدل على مكان الماء.

تقدم رجلان من رجال مجموعة تيمور لنك للأمام، وبدآ في ضرب الغلام بالسياط. كلما نزل السوط الذي يتلوى مثل الثعبان على رأس الغلام أو عينه أو كتفيه، تسمع صوتًا كأنه يصدر من حجر، وليس من الغلام. كان الراعي الصغير لا يصدر أي صوت مطلقًا. فأمر خدامه ليضربوه بشدة أكثر. وفي النهاية غرق الغلام في دمه دون أن تتحرك شفاه بكلمة.

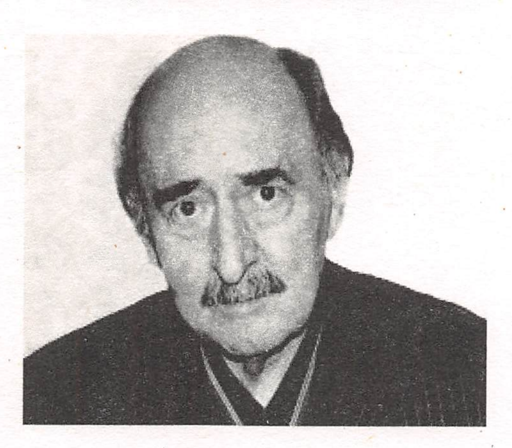
-كأن الراعي ابن الظالم حجر وليس إنسانًا.

فجأة وقعت عينا تيمور لنك على عيني الراعي الصغير، فظل فمه مفتوحًا من الدهشة. رفع بطرف السوط ملابس الغلام التي تمزقت إربًا إربًا. صاح رجال تيمور لنك من شدة الدهشة: تحول الراعي الصغير إلى حجر. التفوا من حوله، فرأوا أن أغنام الراعي الصغير تحولت هي الأخرى إلى حجارة.

تملك الخوف من رجال تيمور لنك، وأطلقوا العنان لخيولهم كأنهم رأوا شياطين، ورحلوا عن هذه الديار الغريبة التي يلفها السحر، ومنذ ذلك الوقت، كلما ذهبت إلى أي مكان ترى الأغنام الحجرية، وترى تمثال الراعي الحجري. يقال: إن غيرة ونخوة الراعي الصغير توزعت على جميع الأنحاء، انتشرت في جميع قرانا وبلادنا وحتى مقابرنا. انتشرت حتى يرى ويعلم الجميع أن هذه الأرض كم أنجبت من رجال. فلا ينقطع نسل الأبطال من تلك الديار.

(٣)

قصة "المعطف السميك"



الكاتب/ عيسى مغّانا

(١٩٢٨م - ٢٠١٤م)

مؤلف وسيناريست وكاتب سينمائي أذربيجاني. حصل على لقب "كاتب الشعب الأذربيجاني"، ولقب "خادم الفن القدير الأذربيجاني"، أول من حصل على جائزة "نسيمي".

له عشرات الروايات والقصص الطويلة والكتب مثل "القلب المحترق"، و"الناس القريبة والغريبة"، و"التلجرام"، و"صوت البندقية"، و"آثار في عمري"، و"المحش"، و"المثالية"، و"المثابر"، و"جهنم".

ترجمت أعماله إلى اللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والعربية والفارسية والتركية وجميع لغات شعوب الاتحاد السوفيتي السابق.

قصة "المعطف السميك"

للكاتب / عيسى مغانا

فداك نفسي، فداك روحي، أقبل قدميك، يا أستاذ عيسى!

أتوسل إليك بتذلل، احتفظتُ بذلك الحادث في قلبي حتى بلغتُ هـذا العمـر الكبير، ولم أثق في أحد غيرك، ولم أحدث أحدًا به سواك، اكتـب تلـك الحـادث! داخلي يحترق، وقلبي ينفجر، أثناء شرحي الدرس دون أن أنـسى أدق التفاصـيل، ودون عجلة وفي هدوء كامل، فجأة تغير حالي، ولا أستطيع أن أتـنفس. انطلـق التلاميذ من مقاعدهم وتجمعوا عند رأسي، أحدهم يعطيني الماء، والآخـر يقـيس النبض، والثالث يُدلك يدي وقدمي، يتوسلون لي باكين. العبارات دونتها مما قـالوا: "فداك نفسي، أيتها المُعلمة!"، "فداك روحي يا مُعلمة "، "أقبل قدميك، يا مُعلمة...".

استدعوا الطبيب للكشف عليّ، هز طبيبنا كتفيه: " مُعلمتكم صـحيحة البـدن تمامًا أيها الأولاد. لا تخافوا، يطرأ على الإنسان مثل هذه الأمور. سوف تمـضي إلى حال سبيلها". "لا أمضي يا عزيزي! لا أمضي! بل بـالعكس... أذهـب إلـى المنزل وحيدة! تتحول الجدران إلى مكبس، لتضغط عليّ. ماذا علي أن أمثل؟ أفتح التلفاز: قناة، اثنان، ثلاث قنوات، أربع قنوات، خمس قنوات، عشر قنوات! جميعها مملوءة بالعري! عُري فظيع، عُري مقزز! إلى أين تذهب هذه الأمة، يا عزيـزي! أعتقد أنه لا يوجد شيء صار مقدسًا بعد! لا تعترض، لا يوجد بالفعـل!... أغلـق التلفاز، أشعر بطنين في أذني. أقرأ كتب تولستوي، " دوستوفيسكي"، و"بالزاك". كم يمكن القراءة؟! يتعقبني ثانية الحادث الذي حدثتك عنه. آه! اختفت تمامًا مدرسـتك

ذات الشعر الأبيض هذه، وتحولت، وأصبحت الفتاة التعيسة ذات الاثنين والعشرين عامًا عام ١٩٤٢م! انظر كم مر على هذا الوقت: أكثر من نصف قـرن! ثمانيـة وخمسون عامًا بالتمام! ولكن لا أستطيع أن أنسى تلك الليلة، وذلك الرجـل! كـان من؟ من أين؟ ماذا كان اسمه؟ كيف كانت هيئته؟ هل تتذكر ما قلته لك؟ أعتقد أنـك نسيتَ. ثمانية وخمسون عامًا! أنت الآن لست تلميذي القديم، من بقي مـن رفاقـك الآن؟ لا أحد! أنا وحدي التي أعرف ذلك الحادث، وأنت أيضًا، إن لم تكن قد نسيت بعد. اكتب! اكتب! كان هناك شيء يسمى الكهرباء، أو الإضاءة، كان يوجد فقـط أضواء خافتة أحيانًا تكون حمراء، وأحيانًا صفراء، وأحيانًا أخرى خـضراء علـى امتداد خط السكة الحديد باكو – تفليس. أما الدنيا فكانت مغمورة في الظلام. اكتـب أنه كانت لا تشعل لمبات الكيروسين العادية في المنزل بعد غروب الشمس في تلك الدنيا المظلمة. وكان لا يسمح أيضًا بإشعال موقد في فناء المنزل. لأن الطـائرات المملوءة بالقنابل كانت تحلق في السماء الحالكة المدلهمة، وبين كل هـذا، كانـت توجد معلمة تسمى "عزيزة" يطلق عليها الجميع "جميلـة الـدنيا" أثنـاء الـساعات المشرقة في النهار. كما في الأساطير تمامًا، كانت تقول للشمس لا تشرقين، سوف أشرق أنا، وتقول للقمر لا تظهر، سوف أظهر أنا، فنور وجهي يكفي لضياء الدنيا. كان لا يوجد أحد بين الأساتذة يناديني "عزيزه" في الأماكن التي أذهـب إليهـا أو أتردد إليها، – في المدرسة أو في البلدة – كان الجميع ينـاديني "جميلـة الـدنيا"، صدِّق، صدق أنه كان لا يوجد أحد من "الفتيان" ينظر إلي بسوء، كانوا يحترمونني احترامًا شديدا. يا "أستاذ عيسى"! وكنتُ أفخر بالفتيان الذين يحترمـون الجمـال. وكنت أفخر بأمتي! ولكن كان يوجد في قلبي قلق يشبه الخوف والرعب. لأنه كمـا تعلم، لم أصادف عبد الله يرتاح إليه قلبي حتى الآن. أقراني – الشباب، والرجـال حتى سن الخمسين – جميعهم على خط الجبهة! لم يبق سوى الأطفـال، وبعـض الشيوخ. عندما كنت أختلي وحدي بين الجدران، كنتُ أتوسل إلى الله: "يا إلهي، يـا

من قبضتَ روح أمي الجميلة، وأبي الجميل! أريد أن أحب وأُحب وأن أطرح عن كاهلي الوحدة! سخر لي إنسانا يرتاح له قلبي يا الله!".

ذات يوم تملكني اليأس، لم يكن هناك أحد ليتسلم رواتب المعلمين من الإدارة التعليمية، لماذا، لا أعرف. كل واحد ذهب إلى حال سبيله. وكان مديرنا – هل تتذكر – رجلاً مسنًا، علاوة على أنه كان مصابًا بالملاريا وقال لي: "لو سمحت اذهبي أنت هذه المرة، يا جميلة الدنيا، سوف يسلمونك الرواتب دون الانتظار في الدور، وستجدين وسيلة نقل، وتأتيني بسرعة". ليت لساني قد انقطع عندما قلتُ له "على العين والرأس". يا ليت قدمي قد كسرت عندما ذهبتُ إلى المحطة... أغلقت جيدًا ياقة سترتي المطرزة الرقيقة في برد. الشتاء القارس، وربطتُ أطراف شالي على رقبتي بقوة، وكما يقال، دعوتُ الله أن ألحق بقطار "تفليس – باكو" الذي يمر في الساعة السابعة صباحًا، وأصل حوالي الساعة الثانية عشرة، وأتسلم النقود، وأملأ بها حقيبتي، وأعود قبل غروب الشمس. وهنا بدأت التعاسة، فقد وصل قطار المستشفى المملوء بالجنود الجرحى بدلاً من قطار "تفليس – باكو"، وتوقف في محطتنا. وبعد ذلك جاء قطار "خانة" وتوقف، ولكن كان هو الآخر مملوءا بالجرحى. وفي النهاية، بعد منتصف النهار، أعطيتُ نقودًا لسائق وذهبتُ بمقطورة، واستلمتُ النقود والخزينة على وشك الإغلاق، وبمساعدة الصرّاف ربطنا النقود في بطانة سترتي وبلوزتي، حتى لا ينتبه الناظرون إلى "جميلة الدنيا"، ولا قدر الله يطمع الطامعون.

كنتُ فرحة عندما وصلت إلى محطة قطارات المحافظة؛ أولاً لأن "رُزم النقود فئة المائة الضخمة" جعلتني أشعر بالدفء ولا أشعر بلسعة البرد. والأمر الثاني، هو أن قطار "باكو – تفليس" جاء وتوقف في المحطة. ولكن مجرد أن وصلتُ إلى محطتنا، ساءت حالتي فجأة، كان الوقت في نهاية شهر فبراير، كان

الثلج وكذلك الرياح تضرب في نافذة عربة القطار، وكما يقال، أصبحتُ فــي قمــة الانتباه. فحظ اليتيم أسود، فمن يقع في ورطة ماذا يعمل سوى التوســل إلــى الله؟ "إلهي، سخر لي أحدًا من البلدة" ماذا سيفعل الإنسان هنا؟ كان يوجد مقعدان خاليان فقط في حجرة الانتظار الصغيرة بمحطة القطارات. رأيتُ علــى أحــد المقعــدين جنديًّا وجهه ملطخًا بالنفط الأسود، عليه غطاء رأس مملــوء بالأتربــة، ويرتــدي معطفًا طويلاً سميكًا خاصا بالجنود، كان صدره، وظهره، وعنقه داخل شاش قطني ملفوف سميك، ويبدو منه فقط أنفه "الفطساء"، وشاربه الأصــفر، وعينــاه شــديدة الزرقة أيضًا. ظننتُ ربما يكون من منطقتنا، لأسأله، حتى أعرف مــن هــو. لــم يصدر صوتا المسكين. ربما كان فكه مصابًا بشدة، فقال هامسًا:

-لم أر في حياتي جميلة مثلك! أنت ملاك، من أنت أيتها الفتاة!

أقل عليه "المسكين"، أي مسكين؟! كانت عيناه محدقة من الدهــشة وتلمــع. بشكل تلقائي التفت، ونظرتُ للخلف. لم يكن هناك أحد سوى ذلك الشخص المغطى بالنفط الأسود. ضربت الرياح الباب فانفتح للداخل ثم للخارج مرة ثانيــة. مــضى القطار. لم يظهر من المحطة سوى إشارة المرور الحمراء. أرخى الظلام ســدوله على نفسي: "لقد ضعنا، يا "عزيزة"! نصيبك إلى هذا الحد".

انتابتني قشعريرة، وقلتُ له مداهنة:

-يا لها من إصابة شديدة يا ابن الوطن! من أين أنت؟ ولماذا أنت هنا؟

قال:

-حُمِّل ألف جريح إضافي في قطار المستشفى في تفليس. وزعوا نقودًا على الذين يستطيعون السير أمثالي، وقالوا، اذهبوا أنــتم بأنفــسكم إلــى بــاكو، إلــى المستشفى. ركبتُ قطار "تفليس – باكو"، ولم أجد مكانًا للنوم. منذ أسبوع وأنــا لــم

أذق طعم النوم، كدت أموت. نزلتُ في هذه المحطة حتى أنام. والآن أنتظر لأعرف بأي وسيلة سأذهب...

نظر إليّ وأمعن النظر قائلاً:

-لا تخافي مني. ولا تقولين إنكِ جئت صدفة، ما الصدفة؟ امرأة جميلة بهذا الشكل في مثل هذا المكان المهجور بماذا تعملين وحدك في هذه الساعة من الليل في هذه الخرابة؟!

توكلتُ على الله، وحكيتُ له ماذا حدث لي. وقلتُ:

-معي نقود رواتب المدرسين. لا أعرف ماذا أفعل؟

سوف أذهب بشكل أو بآخر بمحاذاة خط السكة الحديد. ولكن أخشى أن تبتل النقود، ولا تعد صالحة، وسوف تجوع أسر المدرسين في ظل هذه المأساة! لا أستطيع الانتظار حتى الصباح. المنطقة مملوءة باللصوص وقُطاع الطرق! مجاعة...

لا أستطيع أن أنظر إلى عينه. لأن عينيه أصبحت تلمع أكثر بشكل واضح. بدأ في إخراج إحدى ذراعيه من المعطف السميك الطويل، وفتح حزامه.

خرجت روحي من مكانها، ماذا أفعل؟ أين أهرب؟! كنتُ أترنح وأرتعد، واسودت الدنيا أمام عيني. ولم أفق إلا في اللحظة التي ألبسني فيها معطفه الطويل، وربط حزامه أيضًا على خصري!...

قال:

-هذا المعطف الطويل سميك، لا يتسرب الماء إلى داخله، سوف تصلين بالنقود جافة تمامًا. ولكن ... تقولين إن هذه المنطقة مملوءة باللصوص وقُطاع الطرق، مجاعة... وأنتِ ملاك... ألا تخافين أن تسيري وحدك في هذا الوقت من الليل؟!

الأمر الغريب أنني لم أخف شيئًا مطلقًا عن الرجل الغريب ثانية.

فقلتُ:

-الخوف، ما الخوف، إنني أرتعد.

تردد بعض الشيء، ونظر إلى صدره، ونظر إلى ذراعه، ومرر يده الوحيدة ببطء فوق فكه:

-جسدي مملوء بالشظايا. لقبل أربعة أيام انفجرت بجواري عبوة ناسفة. لقد جفت الضمادة الملفوفة على والتصقت بي. لولا هذا المطر والثلج الملعون، كنتُ أوصلتك حتى باب منزلك.

قلتُ:

-لا، لا، ماذا تقول؟! هل يمكن الخروج بهذا الجُرح الشديد تحت المطر؟!

نَظرت إلى جسدي، وقلتُ:

-وكذلك كان يجب ألا تُلبسني المعطف. سوف تُصاب جروحك بالبرد، وتتورم لا قدر الله!

فتحتُ الحزام، وخلعتُ المعطف، ووضعته على كتفه.

قلتُ:

-اجلس. الوقوف ممنوع لك تمامًا، اجلس!

غشى تلك العينين اللامعتين حزن شديد، يا أستاذ عيسى! حزن لدرجة أن قلبي تمزق. لم أر في حياتي نظرة شوق وحب كهذه.

قال:

-أتوسل إليك، لو تريد، فلأخر تحت قدميك أُقبلها، أيتها الملاك! خذي المعطف، والبسيه... البسيه بنفسك ... زاد وجعي. لا أستطيع أن أتحرك.

لم ألبسه. أمسكني من معصمي، وألبسني المعطف بصعوبة وهو يتأوه من الوجع. وربط الحزام بصعوبة أيضًا.

قال:

-اذهبي، اذهبي وسوف أوصلك لمسافة قصيرة.

"ماذا علي أن أفعل؟ كنتُ أبكي: "يا إلهي، ماذا هذا الإنسان!"

قلتُ:

-لا تخرج، سوف تُبل الضمادة الملفوفة على الجروح!

لم أفلح في منعه من الخروج. خرجنا. وكان الأمر معاكسًا، حيث كانت الرياح عاتية، وتهب وكذلك يرطمنا المطر والثلوج والبرد الشديد لدرجة أنني كنتُ لا أستطيع فتح عيني. وكان الظلام حالكًا لدرجة أنني كنتُ لا أرى أمامي خطوتين. خطوتُ خمس أو ست خطوات بمحاذاة السكة الحديد حتى تعلق كعب حذائي بقضيب السكة الحديد، فوقعتُ على الأرض.

كم تأوه المسكين! وكم تأوه عندما أمسكني من ذراعي ورفعني. فقلتُ:

-لا أرى! لا أرى شيئًا! لا أستطيع الذهاب!

كانت يده ممسكة معصمي.

قال:

-تعالي، أنا أرى. سوف أصحبك.

سخنت يده معصمي، شعرتُ بهذا أيضًا سحب يده بسرعة، وقال:

-أمسكي طرف قميصي، أمسكيه جيدًا، وسيرى خلفي، لأبين لك الطريق ... تعالي!

سرت خلفه، كما قال لي، كنت أتشبث بالطرف الخلفي لقميصه، وذهبتُ ببطء. ثم... حدث أمر مدهش يا عزيزي. فجأة شعرتُ أن يدي تسخن، وشعرتُ أيضًا بالدم الذي يسيل من بين أصابعي مثل الماء المغلي.

-كفى! لا تذهب! الدم يسيل من جُرحك! كفى! ..

هل زاد ألمه، ماذا حدث، لا أعرف، التفت إليّ منحنيًا وقال:

-حسنًا... اذهبي بنفسك، لو تستطيعين الذهاب، وعندما يطلع النهار تحضرين المعطف، أو من الأفضل ترسليه مع شخص ما.

بعد أن تركتُ طريق السكة الحديد، كيف وجدتُ طريق بلدتنا، وكم سقطتُ على الأرض، وكيف ذهبتُ، كل هذا لا يهم. ما أن وصلتُ إلى المنزل وفتحتُ الباب أمسكتُ بالمصباح الموجود أمام النافذة. وملأتُ المدفأة بالحطب، وسكبتُ نصف نفط المصباح فوق الحطب وأشعلته. وسحبتُ الكرسي بجوار المدفأة، وخلعتُ المعطف، ونشرتُه على مسند الكرسي، كان قد جف في الصباح، فوضعتُه تحت إبطي وخرجت من المنزل.

لم يتوقف الثلج والمطر. تجمدت الأرض، وغطى الثلج البرك. كنتُ أسرع دون أن أغوص في الوحل والطين، عندما وصلتُ وجدتُ في صالة الانتظار خمس أو ست أشخاص واقفين دون حراك في هدوء تام، كانوا ينظرون إلى تارة، وتارة أخرى إلى المقعد. ممدد على ظهره على المقعد. لقد تجمد الدم الأسود بدلاً من الشاش الأبيض على صدره وذراعه وفكه.

سقط المعطف من تحت إبطي. وانعقدت ركبتي. تمالكتُ نفسي ولم أدع عيني تزرف الدموع، رأيتُ شريطًا من الشاش معقودًا فوق رأسه: فتحتُ العقدة، وكشفتُ عن وجهه منتزعة الشاش من الجروح الجافة. وبإصرار رفعت جفون

عينيه فغمرني إحساس غامض، وفتحتُ عينيه. وكنتُ أقول: "يا إلهي، يا إلهي، لم منحتني ما كنتُ أنتظره منذ سنوات طوال، ولم حرمتني منه، يا إلهي!".

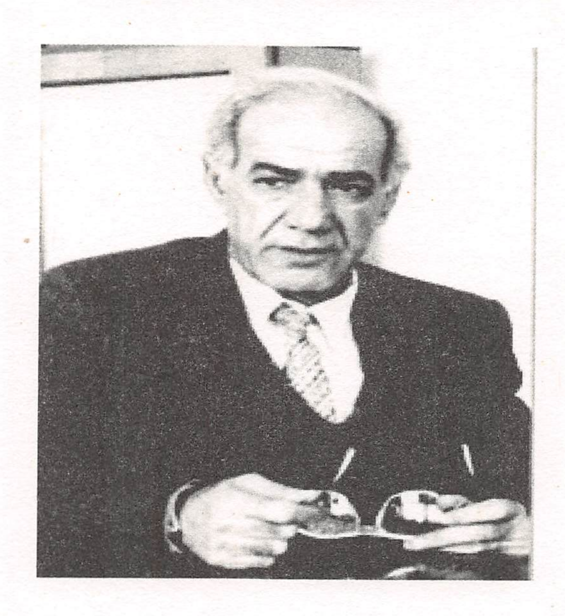
"نزل ثلاثة أو أربعة أشخاص من قطار المستشفى، وقدموا، وضعوه على نقالة، ووضعوا معطفه على وجهه، وحملوه بعيدًا...

"على الأقل، كنت قد أخبرتني عن اسمك، يا ابن الوطن. فليظل اسمك "ابن الوطن"، أيها الطاهر النقي!..."

اكتب هكذا يا تلميذ "عزيزة" العزيز. ألبس دنيانا العارية معطفًا طويلاً.

(٤)

قصة "صوت قادم من البحر"



الكاتب/ صابر أحمدلي

(١٩٣٠ - ٢٠٠٩م)

حاصل على لقب كاتب "الشعب الأذربيجاني"، ولقب "خادم الفن القدير الأذربيجاني". عضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام (١٩٥٥م). له عشرات الروايات والقصص القصيرة والكتب مثل "آران"، و"السلالم"، و"الموجة الخفية"، و"الكتلة"، و"حب الآخرة" (٢٠٠٣م)، "علامة على سطح الجبل"، و"شبر في الدنيا"، و"القوارب تسبح في بحيرة ياسامال"، و"محطة نقل الدم"، و"قصص يناير"، و"روح الشهير". ترجمت أعماله إلى اللغات الروسية والإنجليزية والألمانية والفرنسية، وكذلك إلى جميع لغات شعوب الاتحاد السوفيتي السابق. فاز بميدالية "شهرة العمل" عام (١٩٧٥م) كما حصل على الجائزة الأدبية "السنبل الذهبي".

قصة "صوت قادم من البحر"

للكاتب / صابر أحمدلي

"أمي الحبيبة!

أولاً، السلام عليكم، ثانيًا، لو تريدين أن تعرفي أحوالي ...

أنا الآن بالقرب من "دربند"[1]. الجو ملبد بالغيوم. لا تقلقي، لم أصب بالبرد مطلقًا.

الثلج يتساقط على ماء البحر، ولكن لا يهمني هذا. أنا لستُ وحدي يا أمي الحبيبة.

الأفضل أن أصرح لك بكل شيء كما هو. أعرف أنك لا تذوقين طعم النوم.

أعرف أنك كنت تبحثين عني في جميع مستشفيات ومشارح المدينة. عندما كنت أتأخر ساعة واحدة، وعندما أعود أراك متدلية من الشرفة كطائر معلق من قدميه...

لا يوجد ابن يحكي لأمه المغامرة التي سوف أحكيها لك.

ولكن لن أدعك تنتظرين، يجب أن تعرفي كل شيء...

دقيقة... آه، آه!

في ليلة العشرين من يناير، لم ترغبي آنذاك أن أخرج من المنزل. في تلك الليلة المشؤومة. هدأتك وأقنعتك ألا تخافي من أي شيء. أصدقائي هناك، ولو لم أذهب، سوف يغضبون مني.

---

(١) مدينة "دربند: هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفيدرالي الروسي داغستان، وتقع مدينة "دربند" على الساحل الغربي لبحر قزوين، وكانت تاريخيا ضمن جمهورية أذربيجان. (المترجم).

كنا نقف في شارع "تفليس" في الطريق القادم من منطقة "بيلجاري" نحو المدينة[1]. عندما دخلت قوات الجيش إلى المدينة قابلتنا أولاً.

سارت الدبابات نحونا. لم يصدق أحدٌ منا هذا، قلنا هم يُخيفوننا، وسوف تتوقف عندما تصل أمامنا.

ظننا أن الرصاص الذي يُطلقه الجنود القادمون خلف الدبابات من الرشاشات رصاص غير حقيقي...

دقيقة آه ه ه!

كان يوجد على شاطئ البحر الكثير من كلاب البحر، أمي... ... لقد مضت واتجهت إلى مكان آخر.

نعم، أمي الحبيبة! لقد سقط العديد من الفتيان من حولي. ولكن لم أصدق ذلك.

صدقت عندما أصابني الرصاص في صدري ... مرت الدبابات وأصدرت الرشاشات أصواتًا مرعبة في أرجاء الشارع. قتلوا الكثير من الناس، ثم تدفقت مجموعات وسيارات أخرى.

انطفأت مصابيح الشوارع. حاولت النهوض وتفحص ما يدور حولي لأعرف ماذا حدث، وماذا جرى لرفاقي.

توقفت عدة سيارات إسعاف عسكرية. نزل منها الجنود. وبدأوا في جمع الجثث. وكان من بينهم شباب ملتحون سود الوجوه[2]. كانوا في منتهى القسوة.

كانوا يبحثون بين الأشجار، ويقتربون من الشهداء المتناثرة جثثهم في الشارع، ويطلقون النار من المسدسات والرشاشات، كانوا يطلقون الرصاص على

---

(١) يقصد بها العاصمة الأذربيجانية مدينة باكو. (المترجم)

(٢) يقصد بهم الأرمن. (المترجم)

من يحتضر، ويضربون من مات منهم مرة أخرى. كنتُ أسمع أصواتهم يتحـــدثون باللغة الروسية: "اجمعوهم في الحال"، لا تبقوا جثـــة حتـــى الـــصباح ... ولـــيكن نظيفًا تمامًا".

حملوهم بالمجرفة، وجمعوهم، وأشعلوا فيهم النار... أركبونا فـــي شـــاحنات مغطاة، وفروا بنا من هناك.

لم أكن على دراية جيدة بهذه الأماكن من المدينة، ولكن فطنتُ أن السيارات تتجه نحو الجسور الموجودة في البحر. انحرفوا إلى الطريق الترابي وساروا فـــوق طريق مغطى بالخشب.

كان هناك عدة قوارب عسكرية تحوم بالقرب منا. وهناك رُبطـــت ســـفينتان استكشافيتان بالجسر. وكان يسير خلفنا شاحنات "أورال" وسيارات إسعاف "مدرعة" فرغوا الحمولة في السفن بسرعة، كان يجب إفساح الطريق لمن يأتون بعدنا.

دقيقة.... كان يوجد في هذا البحر العديد من كلاب البحر. ذات مرة عضوا طفلاً في منطقة "بيرشاغي". كانوا كلاب بحـــر مـــسعورة. لقـــد أصـــيب الطفـــل بالجنون...

ذهبوا بنا على متن "سفينة الاستكشاف" كانوا يتحركون بشكل منتظم، وكانت هناك نقالات. وعندما يُنزلون أحدًا، يفتشونه مرارًا وتكرارًا. سلطوا الكشافات على وجوهنا، وركزوها على أعيننا. انحنوا، وتفقدوا أنفاسنا.

أطلقت بعض الرصاصات وبدأوا في استخدام الفؤوس والمطارق في قطـــع وتمزيق الجثث؛ حتى أنهم استخدموا السكاكين والسواطير الكبيرة مـــن المطـــبخ. كانوا يوفرون في الرصاص. وحتى يعم الهدوء التام، يقتلون في الحال من يُحـــرك يده أو قدمه.

غطونا بغطاء على سطح السفينة. وربطوا معظم الجثث بالحبال وأنزلوهم في مخازن السفينة.

تحركت السفينة، وابتعدت عن الجسر، وانفلق الصبح.

كنا ندرك أننا مسافرون ولكن إلى أي مكان لا نعرف!! عمت حالة من الاضطراب على متن السفينة. فلم تسمح إدارة "بحر قزوين" الملاحية بخروج السفن الحربية من الخليج. وأغلقت سفننا الكبرى التي تحمل البترول والبضائع مخارج ومداخل الميناء.

تم محاصرة الخليج وبدأوا الحديث عن طريق أجهزة اللاسلكي.

كنا نسمع ما يُقال من وراء جدران المخازن الحديدية شديدة البرودة.

كان الأسطول الحربي يطلب من إدارة "بحر قزوين" الملاحية أن تفتح لهم الطريق. لكن الأذربيجانيون اعترضوا وقالوا لهم: "يجب أن نفتش سفنكم. ماذا تحملون؟"، فردوا عليهم "نحن ننقل أسر المحاربين".

أخبرهم مسئولو إدارة "بحر قزوين" الملاحية أنه يجب أن يفتش رجالنا سفنكم، وإلا لن تتمكن سفينة حربية واحدة من الخروج من الميناء.

استمر الجدال بينهم لثلاثة أيام. ذهب مسئولو الإدارة الملاحية إلى رصيف "ثابت أورو جوف" الذي كانت تستقر عنده السفن الحربية. كانت قيادة السفن الحربية هناك. بالرغم من كل مساعي لجنة التفتيش المكونة من أعضاء البرلمان، فلم يسمحوا لهم بدخول السفن الحربية.

اقتربت سفن الأسطول. هددتهم سفننا: "لو لم تفسحوا لنا الطريق، سوف نطلق النار". صمم مسئولو الإدارة الملاحية على رأيهم، وأخبروا القيادة العسكرية: "لقد حُمّلت سفنكم بالجثث. عندما هجمت القوات العسكرية على المدينة ليلاً، وتم نقل القتلى إلى منطقة الجسور. أنتم تريدون إخفاء آثار الجريمة التي قمتم بها".

أطلق النار على مسئولي الإدارة الملاحية من قبل زوارق الحراسة...

في يوم الثاني والعشرين من يناير، في الساعة العاشرة صباحًا، بدأ مسئولو الإدارة الملاحية الذين استولوا على الخليج، في إطلاق النفير.

انتشرت في جميع أرجاء "باكو" أصوات أكثر من خمسين سفينة...

كانوا يدفنون الشهداء، يا أماه! وكانوا يقرأون سورة "يــس" بــالميكروفون، وتعالت آنّات السفن، حتى وصلت صيحاتها إلى مخازن السفن التي بها الجثث.

لقد سمعنا أنهم سوف يدفنون الشهداء في الساحة الموجودة أعلى الجبل تكلم واحد منا قائلاً: "لو كان لنا نصيب أن ندفن هناك مثلهم، أعتقد أنه كان لن يــصيبنا شيء مما يحدث لنا هنا".

أطلق الأسطول الحربي النار على سفن بحر قــزوين يــوم الخمــيس. ورد عليهم الأذربيجانيون وحدثت معركة. لم يكن لسفننا العادية قــدرة للــصمود أمــام نيران مدافع الأسطول الحربي. لقد خُرقت العديد من حاويات البتــرول، وحــدث حَريق، اخترقوا الحصار!!

أتت للأسطول المساعدات من البر. وطاف جنود القوات الخاصــة ســفننا. ركب جزء من مسئولي إدارة "بحر قزوين" الملاحية الزوارق، واتجهوا نحو منطقة "ذيغ برنو" و"أحمد لي" بباكو...

أبحرت سفينة "الاستكشاف" إلى البحر المفتوح... دقيقة يا أمي، لا تقلقينــي. ما أكثر كلاب البحر التي كانت موجودة في هذا البحر. كانت كلاب بحر بيــضاء، تغوص وتطفو وتظهر...

لم يبق على طلوع النهار سوى القليل أبحرنا طيلة الليل.

لو كان الأذربيجانيون قد استطاعوا الاقتراب من ميناء باكو، كــانوا ســوف يرون حال من نُقلوا بمخازن السفينة.

اشتغلت الرافعات الموجودة بسطح السفينة وقت الغروب كـانوا مـشغولين بإخراج الحقائب الموجودة بمخزن السفينة. ربما سوف تشعل بها النار. لا، كانـت نيتهم شيئًا آخر. سحبوا الحقائب المعلقة نحو أحد أركان سطح السفينة.

"واحد، اثنان، ثلاثة"، ثم ألقوا اللفائف الموجود بها الجثث في البحر.

ثم ألقوا الأذرع والأقدام والرؤوس التي انفصلت عن أصحابها.

كانت هذه معاناة. ما كان يؤلمنا حقًا أن كل ما حل بنا لم يكن كافيًا بالنـسبة لهم، كانوا يسبوننا بسيل من الشتائم، ويصرخون فينا ويركلوننا بأقدامهم: "هذه هـي مقابر الشهداء الخاصة بكم".

كما رأينا يا أماه أيضًا أن هناك مروحيات تحوم فوقنا.

هل جاءوا للمساعدة؟ نزلت المروحيات بالقرب من سطح البحـر واقتربـت حتى كادت أن ترتطم بالأمواج، فُتح باب المروحية، وبدأوا في القفز من المروحية في البحر.

لم تكن لديهم مظلات هبوط، كان من يقفز يسقط وسط الأمواج ويغـرق ... كان لا يظهر مرة أخرى. نعم، لم تكن هذه المروحيات للقوات الخاصـة، هـؤلاء مثلنا. لكن أحضروهم عن طريق المروحية.

هكذا أصبح قبرنا يا أمي الحبيبة هو البحـر، الـرأس ناحيـة "اسـترخان" بـ(روسيا)، والقدم ناحية مدينة "لانكران" بـ(أذربيجان).

أمي الحبيبة! يا نور عيني يا أماه! هـل تتـذكريني، ذات مـساء، جلـست وأخواتي وأنت جارتنا عندنا.

كان الوقت ربيعًا، وبدأت امتحاناتنا. وأفصحت لك عن رغبتي في الـذهاب إلى "أوديسا" والالتحاق بالمدرسة البحرية العليا.

رفضت وقلتِ: "كن أمام عيني، يا ابني الحبيب. أنت أخ وحيد لخمس أخوات، أنت رجل بيتنا".

انظري إلى النصيب، يا أماه. أول مرة في حياتي أخالف رغبتك. أصبحتُ بحارًا يا أماه... أسبح...

طفنا خمسة أيام كاملة في الطرق العميقة الخفية التي تسلكها الزوارق وبعد ذلك اتجه كل منا في جهة. ظهر أحدنا طافيًا على سطح الماء في ناحية "شاه"، وآخر في منطقة "تركان". فالبحر لا يحتفظ بالجثث؛ كانوا يمزقون الجثث، ويلقون الرأس في ناحية والجسم في ناحية أخرى، حتى تغرق. ولو ظهر أحد، يمطرونه بوابل من الرصاص من المروحيات ويمزقونه.

رأى صيادو منطقة "تركان" الأمر وسمعت القرية بما يحدث، فركب الصيادون القارب وقدموا. كانت سفن خفر السواحل الخاصة ببحر قزوين موجودة في نقطة المراقبة. فاختفى الصيادون عندما رأوا هذا ...

دقيقة واحدة يا أمي، دقيقة واحدة. كان في هذا البحر كلاب بحر كثيرة جدًا... انظري ابنك البحار كيف يسبح بذراع واحدة وفخذ واحد!

كان الثلج يتساقط على البحر. والجو شديد البرودة.

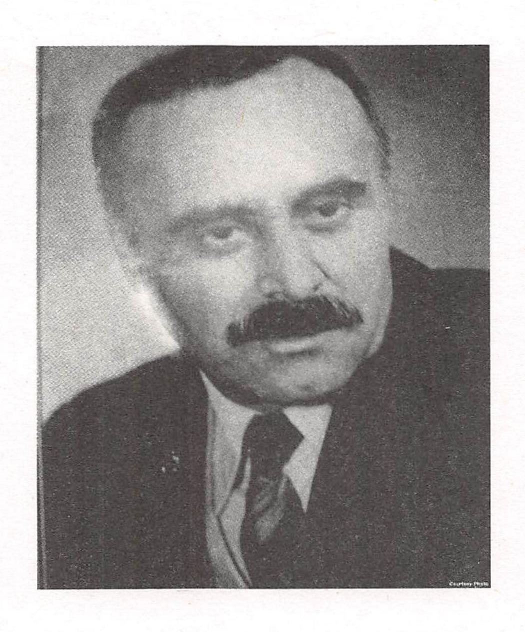
يأتي الربيع بعد ذلك.

الثلج يتساقط على البحر. يتساقط الثلج على رأسي. كم كان بحر قزوين شديد الهياج عند منطقة "دربند". أصبح لا يؤثر فينا الثلج ولا الرياح، ولا تُغرقنا الأمواج، ولا تُسكتنا العواصف. كانت منارة "دربند" تومض على سطح الجبل. أسبح نحو الشاطئ وسط الأمواج. الله يلطف بي ويراني أهالي المدينة الأذربيجانية القديمة "دربند". لو رأوني، سوف ينقذوني.

قبلي لي أخواتي، ولا تنتظريني. ابنك البحار.

(٥)

قصة "التعويذة"



الكاتب/ "ايسي مليكزاده"

(١٩٣٤ - ١٩٩٥م)

كاتب وسيناريست أذربيجاني شهير. عضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ ١٩٦٨م. [له عشرات الروايات والقصص الطويلة والكتب مثل "نهاية الشوق"، و"زوجة الأب"، و"الأجنحة الهشة"، و"رشة المياه في الشوارع"، و"الليلة الخضراء"، و"الخريف المشمس"، و"البئر"، و"أسطورة جوموش جول"، و"المطر الأحمر"، وغيرها.] ترجمت أعماله للعديد من اللغات. وقد صورت أكثر من عشرة أفلام إبداعية ووثائقية قام بتأليف سيناريوهاتها.

قصة "التعويذة"

للكاتب / "ايسي مليكزاده"

مكث "آغارحيم" يومًا واحدًا فقط في "بورتشالي"[1]. إنه عبء كبير، يا إلهي، يأتي بالأمس ويذهب اليوم.

كان يجب أن يتجول ثلاثة أو أربعة أيام هنا على الأقل، ويبتعد عن زحام "باكو" وضجيجها خلال هذه الأيام. ويستفيد من جو "بورتشالي" "النقي"، ومائها "العذب".

عندما ركب "آغارحيم" مكرهًا السيارة "الجيجولي"[2]، توسلت له حماته "امكث" لا تذهب. ردت زوجة "آغارحيم" بدلاً منه قائلة:

- يجب أن يكون في العمل يوم الاثنين.

قال "آغارحيم" محدثًا نفسه "أكره يوم الاثنين"، ثم تحرك بالسيارة. ولكن فطن أنه لا يمكن البصق على "يوم الاثنين"، لأنه يجب أن يكون في المعهد "يوم الاثنين"، ويجب أن يمتحن طلاب قسمه في المساء...

عندما رأى "آغارحيم" التلال المستوية الرمادية من حوله، أدرك أن السير وحيدًا بالسيارة في طريق طويلة بمثابة كارثة. كان عندما يأتي عادة يكون بصحبة

---

(١) مدينة تقع حاليًا في جورجيا، وهي منطقة تجمع الأذربيجانيين. (المترجم)

(٢) السيارة "الجيجولي" هي السيارة ماركة "لادا" الروسية وكانت منتشرة في أذربيجان أيام الاحتلال الروسي. (المترجم)

زوجته وأولاده، ولم تكن التلال آنذاك لونها رماديًا أو غريبة بهذا الشكل، ولم يكن الطريق متعرجًا وملتفًا هكذا. كان الطريق يدفع المرء إلى النعاس. ولم يكن يسمع صوت الإطارات آنذاك. أما الآن، فهو ينصت إلى صوت الضجيج، كأنه هدير شلال، يعزف أغنية، تجعل النعاس يغلب على الإنسان.

كان "آغارحيم" يعرف أن أمامه طريق طويلة تزيد على أربعمائة كيلومترًا، لذلك بدأ في القلق والضجر، وفطن آنذاك أنه من المستحيل السير في طريق طويلة هكذا وهو قلق ويكاد قلبه ينفجر. كان يصبّر نفسه، ويجتهد في تهدئتها. الجحيم لهذا الطريق الطويل الصعب. لم تكن المسافة هذه بالنسبة لسيارة "جيجولي" جديدة مشكلة، أما مشكلته الحقيقية فهي الوحدة في الطريق. افتح المذياع، لأسمع أي صوت، أو افتح المسجل، واستمع كما تشاء إليه فلماذا اشتريت "المسجل" إذًا بالله عليك: لماذا دفعت ألف منات[1] لشراء "مسجل" ياباني الصنع؟

ضغط "آغارحيم" بإصبعه على "الشريط" الموجود في "المسجل" امتلأ صالون السيارة بصوت مغنية تركية متعب خانق يشبه صوت رجل ثمل، غطى هذا الصوت على هدير الشلال المنبعث من صوت العجلات.

قلبي ثمل

تحت النجوم

ما أجمل الحب

تحت النجوم

لا يشتعل قلبي حتى ولو احترق

حتى لو جاء أجلي

---

(١) عملة جمهورية أذربيجان. (المترجم)

وأُغمضت عيني

تحت النجوم

تشتت فكر "آغارحيم" وهو يستمع للأغنية. نعم... سوف يعيش وحيدًا لمدة شهر كامل في منزله ذي الثلاث حجرات الموجود في باكو. لن يرى وجه زوجته أو ابنته لمدة شهر. سوف يخدم نفسه بنفسه: سوف يجهز الشاي، ويطبخ الطعام، سوف يرتب المنزل. نعم، وسوف يزور أخاه الأكبر من حين لآخر، ولكن هذا لن يخلصه من عذاب الوحدة.

منذ أن تزوج "آغارحيم" وهذا الأمر يحدث له كل شهر. كانت "برفانه" تعمل مدرسة في مدرسة ثانوية. بمجرد أن ينتهي اليوم الدراسي، تأخذ طفلتها وتذهب بها إلى عائلة والدها. وكان "آغارحيم" ينتظر "يوم التخرج" في باكو، لم تضطر أسرة "آغارحيم" أن تركب القطار هذه المرة، لأن "آغارحيم" أخذهم في السيارة "الجيجولي" التي اشتراها حديثًا. السيارة شيء جميل والله؟ تتوقف حيثما تريد، وتسترح. اركب السيارة في أي وقت تريد من اليوم، قُد السيارة إلى أي مكان تريده، في الجليد أو الغابة أو الحديقة... ولكن كان لـ "برفانه" طابع غريب: إنها لا تميل إلى الذهاب إلى المنتجعات مع أنها شابة! كان "آغارحيم" يذهب بها إلى المكان الذي تفضله، حتى ولو للخارج... ما أسهل أن يوفر أخو آغارحيم "أدام الله عمره" تذاكر سفر لهم. يكفي فقط اتصال هاتفي منه، وتفتح كل الأبواب المغلقة على مصراعيها. ومع ذلك لا يعجب "برفانه" مكان سوى "بورتشالي". كانت تقول: "أهلي ينتظرونني، المكوث بجوارهم شهرين كل عام مكسب كبير، هل هناك مثلهم بالنسبة لنا؟".

كان "آغارحيم" يقتنع بكلام "برفانه". حقًا، تطييب خاطر الوالدين في "بورتشالي" شهرين في العام شيء يُرضي الرب والعبد. ولكن "آغارحيم" قرر فجأة أن مجرد الاهتمام يكفي! لن يرضى بقيود زوجته مرة أخرى. قبل ذلك لم تكن

لديهم سيارة – كان مكبل اليدين – والآن الشكر لله، عنده سيارة، ومال أيضًا. يمكث في "بورتشالي" أسبوعًا أو اثنين فقط، وبعد ذلك يصطحب زوجته وابنته بالسيارة ويذهب بهما إلى الأماكن التي تستحق الزيارة. "لماذا اشتريت السيارة إذًا، بالله عليك، لماذا دفعت في السيارة كل هذا الكم من النقود؟ فليسامحني والدا "برفانه"، أنا أيضًا أريد أن أعيش كما أشاء".

أخذ "آغارحيم" نفسًا عميقًا مستريحًا كمن حل مشكلة كبيرة لصالحه، عندما عاد "آغارحيم" لوعيه وانتبه للطريق، وجد نفسه على مشارف محافظة "قازاخ"(١). كان هناك نصب تذكاري لطائرة فوق منصة، تلمع وتبرق تحت أشعة الشمس، لدرجة أنك تظن أنها ليست طائرة، بل إنها شمس بجناحين أشرقت في هذا المكان. كان "آغارحيم" يعرف أن هذا النصب موضوع هنا تخليدًا لذكرى أول طيار أذربيجاني. "تحية لأهل "قازاخ"، رغم كل مشاغلهم، لا ينسون أبطالهم الذين رحلوا عنهم".

كان الطريق يتفرع عند هذا النصب التذكاري. كان الطريق المتجه إلى اليسار واسعًا وممهدًا، ويتجه نحو داخل محافظة "قازاخ" مباشرة، وكان هذا الطريق هو طريق "آغارحيم" إلى باكو. أما الطريق المتجه نحو اليمين فكان طريقًا يؤدي إلى قرية، يلوح فيه من بعيد كومة صفراء تشبه كومة القش. ولكن عند الاقتراب منها اتضح أن الكومة ما هي إلا شاحنة محملة بالقش الذي يغطي كمرة القيادة.

عندما وصل "آغارحيم" إلى مفترق الطريق، أغلق "المسجل"، وقلل سرعة السيارة، وأثناء مروره بجانب السيارة الواقفة عند بداية مفترق الطريق، سمع صوت ارتطام مفاجئ فاهتزت السيارة "الجيجولي"، تصدع زجاج الباب الأمامي

(١) محافظة أذربيجان تقع شمال غرب أذربيجان على الحدود بين أذربيجان وجورجيا. (المترجم)

ناحية اليمين، وسقط على المقعد. في البداية لم يفهم "آغارحيم" شيئًا من صوت الارتطام هذا، ومن هذه الهزة، وعندما أدرك ما حدث، انتابه ألم شديد بخصره، وكأنه طعن بسكين في كليته. ارتعدت يداه وقدماه. ضغط على فرامل السيارة بقوة، وخرج من السيارة بصعوبة.

لقد اصطدم الجانب الأمامي الأيمن من السيارة، وانبعج الباب الأمامي نحو داخل السيارة، وانكسر المصباح الأيمن الأمامي. ارتعد "آغارحيم" من الخوف ونظر نحو الشاحنة. تسمر فتى شاب نحيف بجوارها. كان نحيفًا لدرجة أن خديه يكادان يلتصقان. لو لم يكن لديه شارب رفيع أسود، لظنه طفلاً.

لا يزال الألم في خصر "آغارحيم" موجودًا، ويرتعد ذراعاه وقدماه كالمصاب بالبرد: قال وهو يحاول أن يهدئ من روعه:

- ماذا فعلت يا هذا؟

كان يُخيل إليه أن صوته لم يغادر حنجرته، وأن الصوت لا يزال بداخله.

ولكن الفتى سمع سؤاله، وقال وهو يرتعد أيضًا:

- لا أعلم أيها الخال، والله لم أرك.

جحظت عينا الفتى لا أدري لماذا؟ من الموقف أم أنه ولد بهما هكذا. ظن "آغارحيم" أن عينيه هو أيضًا تضخمتا. وقعت الأوهام التي كانت تؤرقه. وقعت بالفعل الأوهام التي كان يخشاها، ولكن لم يحل بخصره مثل هذا الألم مطلقًا. أول مرة يشعر بمثل هذا الألم في جنبه، أول مرة يشتد عليه الألم بهذه الطريقة.

كان "آغارحيم" يريد أن يتمدد على الطريق المغبر بجوار السيارة "الجيجولي"، يرغب في أن يلقي بجسده في أي مكان ليستريح، ولكن كان لا يستطيع أن يفعل ذلك بجوار هذا الفتى النحيف الذي يشبه الطفل. كان لا يتحمل هذا بسبب مظهره. كان لا يعرف ماذا يفعل؟ ماذا يقول؟ ربما يسب هذا الفتى بأبشع

الألفاظ، أو يضربه، ما هذا؟ ما هذا الحادث يا إلهي؟ من أين ظهرت هذه السيارة؟ من أين ظهر هذا الوغد الذي يشبه الشيطان؟

وفي هذا الوقت العصيب حدثت له رجفة وتذكر كلمات "برفانه" فقد قالت له مرارًا وتكرارًا:

"ضع "تعويذة" في السيارة حتى لا تصيبك العين، فتنجو من البلايا والآلام".

كان "آغارحيم" لا يؤمن بالتعويذة، أو "العين" أو "السحر"، ولكن أصابه الندم الآن بسبب أنه لم يستمع لكلام "برفانه".

تمالك "آغارحيم" نفسه بأعجوبة حتى لا يظهر الرعشة التي بداخله.

قال:

- هل أنت أعمى؟ ألا ترى أنني كنت آتي من الخلف؟

قال الفتى وهو "يبلع ريقه":

- لم أرك والله. فجأة اختفت المرآة الخلفية من السيارة. وأعاقني العشب عن الرؤية عندما أردت الاستدارة بالسيارة.

تشجع الفتى بعض الشيء وقال مقتربًا لـ "آغارحيم":

- الحمد لله، أنك بخير.

نظر إلى جانب السيارة المحطم وإلى الباب المتعرج للداخل قائلاً:

- يمكن إصلاح هذه الأشياء. المهم أنه لم تحدث وفيات أو إصابات.

تلفت "آغارحيم" حوله. فلم يجد في هذا الطريق إنسا ولا جانا، حتى يكون شاهدًا مع "آغارحيم"، ويقوى موقفه، ويقول إنه ليس لديه ولو مثقال ذرة من ذنب في هذا الحادث.

دار الفتى هو الآخر حوله كما فعل "آغارحيم"، ثم حدق بعينيـه فـي وجـه "آغارحيم" وقال:

- أيها الخال، هيا ننهي هذا الأمر قبل أن يتجمع الناس حولنا.

هز "آغارحيم" رأسه:

- انتظر حتى تأتي شرطة المرور.

بدأ الفتى في الكلام:

- والله، سوف أقوم بإصلاح السيارة. ولن يظهر أنهـا اصـطدمت بـشيء. وسوف أقوم بدفع جميع النفقات.

كان "آغارحيم" يفكر في أن هذه السيارة "الجيجولي" لن تصبح كسابق عهدها مرة أخرى، فزاد غضبه وغلت الدماء في عروقه وأراد "آغارحيم" أن ينزل علـى رأس هذا الفتى جاحظ العينين غضبه الذي يتفاقم بداخله ويتحين الفرصة للانفجار. أراد أن يصرخ في وجهه، ولكن لا يعرف لماذا صدر صوته بشكل هادئ! لقد بدا "آغارحيم" كرجل عاجز سائم من كل شيء حوله.

وقال:

- ماذا سوف تصلح؟ لقد دمرت السيارة. كان يجب علّي أن أكون في بـاكو غدًا. ماذا أفعل الآن؟

بدأت على وجه الفتى النحيف علامات الحزن والأسى؛ واتضح في عينيـه الجاحظتين علامات الانكسار. وكأنهما تقولان:

"اضربني، سبني، اقتلني، أنت على حق".

قال الفتى على استحياء:

- فلنذهب. وسوف أصلحها اليوم. وسوف أوصلك بنفسي هذه الليلة إلى باكو.

شجع صمت "آغارحيم" الفتى على الاستمرار في الكلام:

- فداك نفسي، أيها الخال، لقد أخطأت، وسوف أتحمل نتيجة خطـأي، فمـا فائدة أن يُصيبني الأذى مرة أخرى؟ لماذا تريـد أن تقطـع رزقـي؟ حفظـك الله، لنذهب؟ قبل أن يتجمع الناس حولنا...

صعد الفتى إلى الشاحنة وقال:

- اتبعني؛ لا تقلق، والله سوف يتم إصلاحها.

كان "آغارحيم" كرجل ما لبث أن استيقظ من النوم ولا يدرك أيـن هـو، لا يعرف، هل يذهب خلف سيارة العشب أم ينتظر؟ من ينتظر، وماذا سينتظر؟ ربمـا لن تصل شرطة المرور حتى المساء، ربما هذا الفتى الذي يشبه الـشيطان سـوف يصلح السيارة "الجيجولي" حقًا؛ ويكون انتظار الشرطة أمـرًا عبثيًـا. إذا جـاءت الشرطة ماذا ستفعل؟

هل سوف تعطي "آغارحيم" سيارة جديدة؟!

جلس "آغارحيم" في السيارة. لماذا جلس؟ هو نفسه لا يعرف. كان لا يريـد أن يذهب خلف الفتى جاحظ العينين. وكان لا يريد أيضًا أن يظل في وسط الطريق بالسيارة المحطمة. كان "آغارحيم" بين نارين، ولكن كان لا يعرف ما الصواب؟!

كانت سيارة العشب تبتعد شيئًا فشيئًا. نظر "آغارحيم" على مؤخرة الـسيارة وأمعن النظر، فانتابه خوف أسوأ من ذي قبل: "ربما يختفي هذا الوغد" ولكن سيارة العشب توقفت وأخرج الفتى رأسه من النافذة، وأشار بيده لـ "آغـارحيم"، فـأدار "آغارحيم" السيارة نحو طريق القرية....

مرا وسط قريتين أو ثلاثة قرى على مقربة من بعضهما البعض. ثم تركـا الطريق الرئيس، وسارا في طريق ترابي ضيق. وعند انحناءة الطريق هناك لوحة معدنية مربوطة بسارية عليها اسم القرية. نظر "آغارحيم" بطـرف عينـه، وقـرأ

المكتوب على اللوحة المعدنية: "آلبود". أخذ نفسًا عميقًا، وهز رأسه. "أتوجد قرية اسمها "آلبود"، كيف سيكون أهلها؟ ما معنى "آلبود" يا إلهي؟"

دخلا فناءً بابه واسع وسوره من الأشجار والنباتات. بمجرد أن نزل الفتى من السيارة، اقترب من "آغارحيم" الذي كان لا يزال خلف عجلة القيادة يتلفت حوله.

قال:

- مرحبًا بك، أيها الأخ.

بعد ذلك اتجه نحو المنزل ونادى:

- أمي، عندنا ضيف!

نزلت أمه من فوق السرير بصعوبة وقالت:

- أنا فداءٌ لأقدام الضيف (١).

كانت المرأة تجرجر قدميها، كانت لا تقوى على السير ببدنها الثقيل. كانت ملابسها الفضفاضة والطويلة تظهرها أكثر بدانة. وصلت وسلمت على "آغارحيم"، قالت وأنفاسها ترتفع وتنخفض:

- مرحبًا بك، قدومك خير، وعزيز علينا.

هز "آغارحيم" رأسه. ليس واجبًا عليه أن يتحدث مع أناس لا يعرفهم. لولا هذا الحادث، لما عرف أن هناك على وجه الأرض قرية تسمى "آلبود"، أو ربما لن يسمع عنها طيلة حياته، وكان لن يتقابل مع هذا الفتى الشقي، ولا رأى مطلقًا هذه المرأة التي تظهر تجاعيد بطنها من تحت سترتها البيضاء، وربما عاش في راحة

---

(١) يستخدم الشعب الأذربيجاني مثل هذه العبارات للاحتفاء بالضيف وتعبيرا عن كرم الضيافة وحسن الاستقبال. (المترجم)

دون كل هذا. هل عاش هؤلاء الناس معه قبل ذلك في أرضٍ أو بلد ما، أو في قارة بعيدة – مثلاً قارة أفريقيا – حتى يكون لديهم هذه الحميمية؟

كان وجه المرأة مستديرًا يميل إلى السمار، يشبه وجه الرجال، وكانت إحدى عينيها مغطاة بما يشبه الستار الأبيض. رأت أن "آغارحيم" يقف قلقًا، فقالت بصوت أكثر ترحابًا:

- تفضل، فداك نفسي.

غمغم "آغارحيم" بشفتيه. استدارت المرأة ونادت وهي تسير نحو المنزل:

- أيتها العروس [1]، أحضري كرسيًا للضيف!

خرجت "الكنّة" وفي يدها كرسي، وكأنها كانت تمسك بالكرسي وواقفة بالداخل مستعدة لإحضاره. أحضرت الكرسي بسرعة، ووضعته تحت ظل شجرة الكمثرى، وعادت مسرعة إلى المنزل.

لم يعجب "آغارحيم" مثل هذا الاستقبال من أناس لا يعرفهم. بحث "آغارحيم" بنظره على الفتى الذي يشبه الشيطان. كان يقف الفتى بجوار سيارة العشب يشرب سيجارة بشراهة، وكانت تقف بجواره ابنته البالغة من العمر ثلاث أو أربع سنوات. كانت الفتاة تحتضن دمية مصنوعة من الخوص وهي تنظر إلى الفتى خلسة، ولكن ربما الفتى كان لا يراها. لم ير "آغارحيم" هو الآخر من أين خرجت الفتاة ومن أين جاءت، ولكن لا مجال الآن في التفكير في الفتاة، يجب الإسراع الآن، يجب تصليح السيارة.

ألقى الفتى السيجارة وسحقها بطرف قدمه. وهجم على الدجاجات التي كانت تأكل بالقرب منه. تطايرت الدجاجات وأخذت في الصياح، وهربت خلف الحظيرة، وهرول الفتى خلفها... بعد قليل خرج من الحظيرة وفي كل يد من يديه دجاجة.

---

(١) يطلق في أذربيجان على زوجة الابن "عروس"، ويُنادى عليها هكذا "عروس"، والمقصود بها "المرأة أو الفتاة". (المترجم)

جف ريق "آغارحيم"، وكأن موقدًا يشتعل بداخله، وهذا الموقد اشتعل منذ فترة كبيرة منذ أن اصطدمت السيارتان، كان "آغارحيم" يفرك أسفل صدره.

بعد أن فرغ الفتى من ذبح الدجاجتين، قال "آغارحيم":

- ألا توجد مياه للشرب...

أضاءت عينا الفتى الجاحظتان:

- يوجد مياه للشرب وللاستحمام أيضًا.

أسرع وأحضر كوبًا من المياه من الإناء الموجود بالمنزل. أدار "آغارحيم" وجهه جانبًا وأخذ يرتشف الماء.

مضى الماء وكأنه يطفئ الجمرة التي بداخله... كان يستطيع أن يشرب مرة ثانية، ولكنه لم يطلب؛ وعندما كان يُعيد الكوب للفتى، دار بخاطره أن يشكره، ولكنه لم يفعل.

سأله الفتى على استحياء:

- ما اسمك أيها الخال؟

كان "آغارحيم" لا يعجبه أن يناديه الفتى بـ "أيها الخال". فقال له اسمه مرغمًا. ابتسم الفتى وكأنه سعيد بهذا التعارف وقال:

- وأنا اسمي "بننت". استرح هنا. وأنا سأذهب للسمكري... إن شاء الله أجده في القرية. إنه مطلوب في كل مكان. هو ملاذ أمين للسيارات المصطدمة. سيقوم بإصلاحها، ودهانها بنفسه. هو أسطى ماهر جدًا. لم يصدقه "آغارحيم"، لم يصدق أن قرية تسمى "آلبود" يمكن أن يكون بها "أسطى ماهر".

صعد الفتى للشرفة. وقال شيئًا ما للمرأة التي يغلبها النعاس فوق السرير الخشبي. ضربت المرأة يدها على ركبتها بأسف. نزل الفتى من المنزل وقال منزعجًا:

- لا تقولي مثل هذا الكلام السيئ من فمك يا أماه! لم أصدمه عمدًا.

بعد أن خرج "بننت" من باب الفناء، جلس "آغارحيم" على الكرسي الموجود تحت ظل شجرة الكمثرى. الآن فقط ألقى نظرة على فناء المنزل، ورأى أن الفناء كبير للغاية. لا توجد أي بنايات في الناحية المفتوحة من الفناء بسبب وجود المنزل وحظيرة الدواجن. كانت توجد حديقة كبيرة لا يُرى أولها من آخرها بجانب المنزل. وبالحديقة أنواع مختلفة من الأشجار، وكأنها حديقة "جابي الضرائب". "ربما يملك صاحب حديقة كهذه كثيرا من المال. انظر إلى الدجاج والكتاكيت، لا حصر لها. توجد حظيرة، أي هناك أيضا أبقار وجواميس، وأغنام وماعز. ويُقال عنهم إنهم فقراء".

وضعت "العروس" أمام "آغارحيم" منضدة صغيرة عليها غطاء صغير ونظيف. وأحضرت الشاي في كوب كمثري الشكل. لم ترفع رأسها مطلقًا، ولم تنظر إلى وجه "آغارحيم"، حتى ولو بطرف عينيها. ولكن نظر إليها "آغارحيم" خلسة، ولم يصدق أنه يمكن أن توجد فتاة أنيقة هكذا في قرية تسمى "آلبود". كانت فتاة غاية في الجمال. كان لون شفتيها يشبه لون زهرة الرمان الناضجة. ولديها عينان مضيئتان ومستديرتان. كانت سريعة الحركة.

كانت "العروس" تجثو على ركبتيها أمام المنزل وتنظف للدجاج. تنهد "آغارحيم" ناظرًا خلسة لها. "أهذه العروس الجميلة زوجة "بننت"، واحسرتاه عليها، واسفاه عليه. على أي شيء تعلقت بهذا الفتى الشقي وأحبته؟" تذكر "آغارحيم" زوجته. وازداد همًّا على همه. "ليتني سمعتُ كلامها، ليتني وضعت تعويذة في السيارة. حتى ولو تعويذة من شوك".

كانت البنت الصغيرة تقف بجوار السيارة "الجيجولي" تبكي، وتضم الدمية إلى صدرها بيدها. تركت "العروس" ما تفعله، وذهبت بجوار البنت. فتحت باب

السيارة "الجيجولي" بهدوء. فصعدت البنت على الفور إلى السيارة، وجلست خلف عجلة القيادة. استشاط "آغارحيم" غضبًا. "كأنه مال أبيهم...!!".

لم تمس يد "آغارحيم" الشاي. شعر بالقلق. نهض واقترب من السيارة "الجيجولي". انتابه الضيق من منظر السيارة لدرجة أنه كان لا يرغب في النظر إليها. نظر إلى الطفلة التي وضعت الدمية فوق حجرها. ورغم أن السيارة من الداخل كانت ساخنة إلا أنها كانت تجلس في صمت وتحمل. كانت البنت تشبه "بننت" إلى حد ما. كانت عيناها جاحظتين أيضًا في حجم "الكريز" المهجن "الضخم"، وكان شعرها القصير ملفوفًا مثل صوف الخروف الصغير. كانت الدمية الموجودة على حجرها دمية غريبة. لم ير "آغارحيم" في حياته دمية كهذه. كانت رأسها مصنوعة من عشب أبيض، مربوطة في طرف عصاه، ومرسوم بقلم الفحم الأسود في وسط هذه الرأس المستديرة التي تشبه الزر الكبير الفم والأنف والعين والحواجب. لم يكن للدمية أكتاف، بل نزل من مكان الأكتاف ذراعان، وألبسوها جيبة قصيرة مزركشة من عند الخصر. لسبب ما، كان "آغارحيم" يعتقد أن تلك العروس الجميلة التي لون شفتيها يشبه لون زهرة الرمان الناضجة هي التي صنعت هذه الدمية المضحكة.

- من أين أنت، يا أيها العزيز الغالي؟

فزع "آغارحيم" من هذا الصوت المفاجئ. ورجع بظهره إلى الخلف على المقعد. وقفت المرأة السمينة خلفه تنهج: فقال "آغارحيم":

- من باكو.

- هل تعمل في الحكومة؟

- أنا مدرس في معهد الإنشاءات... مدرس فيزياء...

قالت المرأة:

- يحفظك الله، ربما كنتَ تجد صعوبة في أن تقف على قدميك.

جلست على أريكة ويديها على الأرض وقالت:

- هل لديك أقارب؟

- لدي أخ أكبر.

- هل هو أيضًا يعمل بالحكومة؟

قال "آغارحيم":

- نعم.

شعر بأن هذا تقليل يجعل المرأة تظن أن أخا "آغارحيم" يعمل في وظيفة صغيرة فقال:

- يعمل في وظيفة كبيرة.

- فليرفع الله درجته أكثر وأكثر!

كان "آغارحيم" يدرك أن المرأة تريد أن تقول له شيئًا ما، لديها نية ما هذه المرأة، ولم جاءت هذه المرأة السمينة تجرجر قدميها، متحملة جسدها الثقيل من الناحية البعيدة من الحديقة إلى هذه الناحية.

- هل أنت متزوج، أيها العزيز الغالي؟

- نعم ... ولدي طفل أيضًا... لديه خمس سنوات...

ألقت المرأة نظرة على السيارة "الجيجولي"، وتنهدت وقالت:

- فلينكسر ظهر عدو "بننت". هذا الفتى سيئ الحظ. منذ ولادته والمصائب تنزل على رأسه تترى. حتى سن العاشرة والمرض لم يغادره. كنا نقول إنه لن يظل على قيد الحياة، ولكن لم يمت. ولكنه أيضًا لم ينمو نموًا طبيعيًا. تأثرت

وقالت: فداك نفسي يا الله، هو الذي يعرف الصالح... أولاد الناس يتعلمون ولهم من يهتم بهم. لم يفلح في التعليم، ليت كان له أبًا يرعاه ويضربه على رأسه حتى يذاكر؟ رحل والده عن الدنيا وهو فى الخامسة من عمره. ولم أكن أيضًا ملك نفسي. كنت أعمل في المراعي من الفجر حتى المساء.

سأل "آغارحيم" عن سن "بننت" – من أين عنّ عليه هذا السؤال. تلفتت المرأة وكأنها تحسب شيئًا ما في نفسها وقالت:

- إن ابني الأكبر "أفندي" لديه أربعون عامًا. وتوجد ابنة أصغر منه. هي متزوجة الآن في القرية، وأم لأربعة أبناء. البنت أصغر من "أفندي" بثلاث سنوات. وهي تكبر "بننت" بعامين.

طبقًا لحساب "آغارحيم"، فإن "بننت" يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا. "الوغد أكبر مني، ومع ذلك يقول لي يا "خال"، إنه نحيف، لذلك يبدو شابًا".

توجهت المرأة بوجهها نحو السماء وتأوهت. خُيل لـ "آغارحيم" أن إحدى عيني المرأة لا ترى، وكأن عينها الأخرى سوف تُعمى هي الأخرى.

- لقد ربيتُه على هذه الحال، فداك نفسي. الآن أنا أحلتُ إلى التقاعد. وأحصل من الحكومة على معاش شهري ثلاثة وعشرين منات. حتى ولو لم يمنحوني شيئًا، سوف أعيش. ليس لدي أي مصروفات! يعمل "أفندي" سائقًا "لجرار" في المراعي. علاوة على ذلك فإن له بيتًا وأسرة. ولا ينساني. فليأخذ الله من عمري ويُضيفه إلى عمره. وأنا راضية أيضًا عن ابنتي. فقط هذا الفتى...

مسحت المرأة دموع عينيها بطرف غطاء الرأس الذي ترتديه. وقالت:

- لقد حلت على رأسي المصائب. هذا الفتى سيئ الحظ. وكثيرًا ما يؤلمني.

لم يكن لـ "آغارحيم" رغبة في الاستماع إلى شكوى المرأة. كان يخشى أن يرق قلبه فجأة، ويشفق على "بننت". نظر إلى ساعته بقلق. أراد أن يبتعد عن المرأة.

وكأن المرأة شعرت برغبته، فبدأت في الحديث:

- لا يستطيع الفتى أن يظل في عمل واحد. أحيانًا يعمل في المراعي كعامل، وأحيانًا أخرى يشتغل في السكة الحديد، وبعد ذلك أمسك به "أفندي" وعلّمه قيادة الجرار. وهرب من هذا العمل أيضًا. أخذ يتجول هنا وهناك دون عمل. وذهب إلى الخدمة العسكرية، وتعلم هناك قيادة السيارة... وعندما عاد، أعطوه سيارة قديمة في المراعي. تعقّل، وكان يعمل في انكسار. قلنا، أصبح رجلاً، فزوّجناه. أشارت المرأة برأسها إلى زوجة الابن الموجودة في الشرفة وقالت، أخذنا بنت الحلال هذه. ورزقنا بطفلة. ها هي هناك تجلس في سيارتك. وعندما حملت الفتاة في الطفل الثاني، نزل البلاء على رأس "بننت": حمّل السيارة، فاجتمع عليه التجار، وسلبوا عقله، وهو أيضًا لازال شابًا، طمع في المال، فملأ السيارة بالكرنب ليلاً واتجه نحو أرمينيا. فداك نفسي يا الله: ها هي السيارة، انزلقت في الوادي. فانكسر ذراع أحد التجار، وأصيب الآخر بشكل ما، أما هو فلم يصب بأي أذى. فأمسكوا بـ "بننت"، وحبسوه، وحكموا عليه بالسجن لمدة عام. ومنذ اليوم الذي دخل فيه إلى السجن، وتلك الفتاة لم تجف دموعها. تذرف دموعها ليل نهار، مهما حاولت لا تكف عن البكاء. لقد عانت كثيرًا، وفي النهاية سقط الجنين، وُلد ميتًا قبل موعده... كان الجنين ولدًا...

نظر "آغارحيم" إلى العروس التي كانت مشغولة بشيء ما في الشرفة. كان على ثقة من أنها تبغضه، وإلا لقالت له "مرحبًا بك"، أو على الأقل كانت تعتني به ولو لمرة. ربما هي تبغض هذه المرأة السيئة أيضًا، وتعتبرها بلاء أرسله الله لها. عاد "آغارحيم" يتوجه إلى المرأة ويقول لها: "أيها الأم، أيها الخالة. ليس لدي ذنب، أنا لست رجلاً سيئًا. لو كنتُ رجل سوء، لكنتُ سلمتُ ابنك إلى الشرطة، وكانوا لن يتركوه حتى يسلخوا جلده".

- ما إن خرج من السجن هذا المسكين، وبعد توسلات، أعطاه المسئول عن المراعي سيارة من أيام سيدنا نوح. لم يبق بها آثار سيارة. مخلخلة بالكامل. إذا اشتغلت يومًا، تظل خمسة أيام معطلة...

قال لي "بننت" في الصباح الباكر: اليوم يوجد سوق يا أماه، فلأذهب، ولأحضر علفًا للحيوانات. قلت له، لا تذهب يا بني. أشعر بشيء ما في صدري، رأيتُ البارحة حلمًا سيئًا. كما أنني أعلم أن المصائب تحوم من حوله... ذهب... وفي النهاية حدث ما حدث... ماذا سيفعل الآن؟ ما العمل؟ من أين يأتي بالنقود؟

نفد صبر "آغارحيم" تمامًا. كان الوقت يمر، ابتعدت الشمس عن الفناء والمنزل وصعدت إلى أعلى قمة الجبل الموجود ناحية الغرب من هناك. وسوف تختفي الشمس بعد قليل خلف الجبل، ويحل المساء.

كانت المرأة تسحب قدميها وتتجه نحو المنزل. ربما أخرجت كل ما بداخلها، وقالت للضيف ما كان ينبغي أن تقوله. فليفعل الضيف الآن ما يشاء.

دخلت سيارة إلى فناء المنزل مخلفة وراءها عادمًا أسود، توقفت بجوار "آغارحيم" تمامًا. نزل منها "بننت" قائلاً:

- الشكر لله، استطعتُ أن أعثر على "أجدر". فتح "أجدر" باب السيارة، ودلّ قدميه. ونظر إلى "آغارحيم" من المكان الذي يجلس فيه، وابتسم كأنه يعرفه منذ مائة عام، رأى "آغارحيم" أن لدى "أجدل" ثلاث أسنان فقط في الجزء الأمامي من فمه، اثنان أسفل الفم، وواحدة في الفك العلوي. كانت جبهته متجعدة. وكان يعلو عينيه التي تميل إلى الزرقة ابتسامة جافة. كان نحيفًا مثل "بننت" تمامًا، وكان هو الآخر لا يمكن أن تخمن سنة بشكل دقيق.

استعجلت "بننت":

- آه، انزل.... أيها الوغد!

أمسك "أجدر" بالباب، ونهض. حرك لسانه بقوة مثل رجل وضع ثلجًا في فمه.

تقدم للأمام وسلم على "آغارحيم" قائلاً:

- مرحبًا بك، أيها الضيف... لا تقلق يا ابن الأخت... أنا... على الفور...

ما أن شم "آغارحيم" رائحة خمر، فطن لماذا "أجدر" يتلعثم في الكلام.

قال "أجدر" وهو يتجه نحو السيارة مترنحًا:

- أهذه هي السيارة؟

أنزل "بننت" الطفلة من السيارة، ونظف بقايا الزجاج الذي تساقط على المقعد.

وضع "أجدر" يده في خصره، ونظر إلى السيارة باشمئزاز كما نظر "آغارحيم" هو الآخر إلى سيارة "أجدر". كانت سيارة متهالكة. ربما وزن الصدأ الموجود عليها أكبر من وزن السيارة ذاتها. فلا يوجد بها مقاعد خلفية، ولا يوجد زجاج للأبواب، وكلما تسير السيارة ربما" تتراقص بداخلها الرياح". لم يقتنع "آغارحيم" بـ "أجدر"، ولم يصدق أنه "أسطى" ماهر. لم يقتنع أنه من الممكن أن يكون في قرية تسمى "آلبود" أسطى ماهر.

بعد أن تفقد "أجدر" بدقة مكان الاصطدام في السيارة، توجه نحو "بننت" قائلاً:

- آه، شيء بسيط... والله... سوف أقوم باللازم على أفضل ما يرام.

جلس على العشب الأخضر ومد قدميه وقال:

- انتظر حتى أدخن هذه السيجارة....

أدار "آغارحيم" ظهره نحو "أجدر"، وهمس لـ "بننت":

- يبدو أنه صاحب مزاج.

- هل تظن أن هذا الوغد يفيق من السكر؟! إنه يعمل عاملاً في مصنع خمور، لو لم يشرب على مدار اليوم، يموت. ولكن مهما شرب، لا يفقد الوعي. إنه شخص قوي. يقوم بعمل خمسة من الأشخاص وحده، لا يقول "تعبتُ" مطلقًا. يده مثل الذهب "تُلف في حرير". لا تقلق. سوف يقوم بإصلاح السيارة في غضون ساعة واحدة.

أخذ "أجدر" نفسًا عميقًا من السيجارة واستند على ذراعيه فوق العشب الأخضر.

- آه.... "بننت"، أيتحدث الضيف عني؟ ربما يظن أنني صاحب مزاج أليس صحيحا؟ .... آه أنا "أجدر"... أشرب دلوًا من الخمر... ولكن... أمرر الرصاصة من ثقب الإبرة. قل للضيف – ضرب قبضة يده على صدره – "أنا أجدر".

ابتسم "بننت":

- قلت له.

- اذهب، واحضر لي كوبًا من الماء، كبدي يحترق.

ذهب "بننت" لإحضار الماء: بلل "أجدر" إصبعه بلسانه، وأطفأ السيجارة. وألقى بها للوراء من فوق كتفه، ونهض من على الأرض.

قال:

- يا ابن الأخت... لا تقلق ولا تحزن... أي حزن في المكان الموجود به "أجدر"؟ ... سوف أجدد السيارة تمامًا كأنها صنعت من جديد.... "بننت" قريبي، أتعرف هذا؟ سوف أقوم بكل شيء، ولن أتقاضى مليمًا.... القريب لا يأخذ من قريبه شيئًا.... النقود لا قيمة لها، أليس كذلك؟

نظر إلى السيارة "الجيجولي" مشيرًا إليها بذقنه الذي به بعض الشعر، ثم أدار رأسه نحو الجبل الموجود في نهاية القرية وقال:

- آه، أترى ذلك الجبل؟ اسمه "جويزان" هل سمعت عنه؟ أترى كم هو ضخم ومرتفع؟ مثل الرمح... أقول لك... أريد تسلقه... ولكن لا أجد وقتًا لذلك الآن...

أسند "أجدر" إناء الماء الذي أحضره "بننت" على ذقنه وصدره وشرب منه كثيرًا. لعق "آغارحيم" شفتيه، ولكنه خجل أن يطلب الماء.

نهض "أجدر" وهو يقول:

- يا الله!

أخرج من سيارته آلة حديدية صدئة كأنها لم تُمس منذ سنوات، وكأنها موضوعة تحت المطر ووسط الطين منذ سنوات. أخرج مطرقة خشبية. وجثا على ركبتيه في الأرض، وأدخل الآلة الحديدية تحت الجزء المصطدم من السيارة، وشده، مرة، ومرتين، وطرق عليه من الخارج بالمطرقة الخشبية، مرة ومرتين، فانشق الجزء المصطدم من السيارة، وتمزق من المنتصف بطول شبر. توقف "أجدر" عن العمل، وقال:

- آه، ماذا حدث؟ في لحظة أصبح مثل الورق .... ليس لي دخل ... لماذا تمزق هذا الحديد؟

نظر "آغارحيم" بغضب إلى "بننت". ولم يصب بالحزن والغم بهذا الشكل، ولم ييأس بهذا القدر عندما اصطدمت السيارة. كاد أن يمسك بـ "أجدر" من ذراعه ويطرحه جانبًا.

تنحى "أجدر" جانبًا، وألقى الآلة الحديدية، والمطرقة. وقال:

- لماذا اهتزت يدي! يا "بننت" أحضر قليلاً من هذا "السم".

أسرع "بننت" ثانية إلى المنزل، وجلس "أجدر" مرة أخرى على "الخضرة".

وقال:

- سوف يتم إصلاحها، اصبر قليلاً... لا تقلق من هذا الشق. سوف أقوم بلحامه، سوف يصبح مثل الجديد. الحق أنني دائمًا أقوم بتصليح السيارات الضخمة... حتى السيارات النقل الكبيرة.... أول مرة أتعامل مع سيارة "جيجولي" صغيرة... لا تحزن.... لا يوجد حزن في المكان الذي به "أجدر".

لكن كان يبدو أنه يُصبّر نفسه، أكثر من أن يُصبر "آغارحيم".

أحضر "بننت" في إحدى يديه كوبًا مملوءًا تمامًا بالخمر، وفي اليد الأخرى طماطم، وأعطاهما لـ "أجدر". أخذ "أجدر" الكوب بيد، وبالأخرى الطماطم. ونظر إلى الكوب وهو يلعق شفته.

قال:

- عندي اثنان وخمسون عامًا. ومنذ اثنين وثلاثين عامًا وأنا صديق لهذه "الخمر". آه، ألن أستطيع أن أتسلق جبل "جويزان"؟ ألن تتركني هذه الخمر أتسلق هذا الجبل؟

لقد أقسمتُ أن أشرب الخمر هناك. بعد ذلك توجه إلى السماء قائلاً:

- إلهي، فداك أبي وأمي، اغفر ذنوب "أجدر"، في الأصل ليس لـ "أجدر" ذنوب، أنت تعلم، حتى ولو هناك ذنوب فهي صغائر، ...

شرب "أجدر" كوب الخمر حتى منتصفه، وأخذ قطعة من الطماطم، ولكن ربما بلعها دون أن يمضغها.

كان "بننت" لا يستطيع أن ينظر إلى وجه "آغارحيم" من الخجل. فقد مدح "أجدر"، واعتمد عليه، وقال، لا يوجد شيء يعجز عن فعله "أجدر". كان "بننت" يتوسل إلى الله بداخله أن يمنح "أجدر" كرامة، ويمنحه الحنكة كي ينجز هذا الأمر.

لم يكن لـ "آغارحيم" شأن مع "أجدر"، كان "آغارحيم" ينظر إلى "بننت" بغضب شديد. "ماذا يمكن أن تنتظر من شخص في هذا الحجم يضع قبعة على رأسه في هذا الحر؟ من أين جاء هذا الرجل؟ انظر كيف جعلني الله أحتاج لمن؟!".

فتح "أجدر" سترته، وحك صدره، لم يكن يرتدي الظالم "فانلة". وكانت ضلوعه ظاهرة، وكادت بطنه تلتصق بخصره.

نهض "أجدر" على قدميه وهو يقول:

- يا الله!

رأى "آغارحيم" أن "أجدر" لا يجرؤ على الاقتراب من السيارة "الجيجولي"، أصبح في وضع محرج لا مخرج منه.

أخذ "أجدر" الآلة الحديدية والمطرقة قائلاً:

- بدأنا.

ولكن كان يبدو عليه أنه لا يود البدء. خلصه "آغارحيم" من هذا قائلاً:

- لا حاجة لذلك.

كأنه تم إزالة حمل من فوق كتف "أجدر" في ثقل جبل "جويزان" الذي يرغب في تسلقه منذ عدة سنوات. ولكن لم يُظهر هذا، وأظهر كأنه متعجب من قوله!

- لماذا يا ابن الأخت؟ دعني أصلحها.

لم يستطع "آغارحيم" أن يكتم غيظه، فقال:

- لماذا تتدخل في عمل لا تقدر عليه، لقد خربت السيارة.

أدار وجهه نحو "بننت":

- أيها الفتى، يجب أن تكون لديك بصيرة، لقد ضيعت وقتي وحالي هنا! لــو شئتُ لآذيتك، لدي القدرة على هذا

أصبح "بننت" في وضع شديد الأسى لا يحسد عليه.

- فداك نفسي، لماذا الأذى؟ حدث خطأ، أرسلتُ رسالة لأخي، ليأت، وسوف ترى، ماذا سنفعل؟

- يجب أن أكون في باكو صباحًا، هل تفهمني؟!

- الآن، أنت لا تقتنع بأسطى القرية، أقول لك، ربما ننقل السيارة، ونصلحها في باكو. والمصروفات سوف أدبرها من هنا وهناك، وأدفعها لك.

كان "آغارحيم" يعرف كم سيتكلف إصلاح السيارة. كان يخــاف أن يحــدد مبلغًا، يخاف أن يتسرع ويقول مبلغًا صغيرًا. ولكن قال:

- ألف منات!

لم ينظر "آغارحيم" إلى وجه "بننت"، وكان لا يعرف كيف أصبح وجهه مــن شدة الحزن.

ألقى "أجدر" الآلة الحديدية والمطرقة وقال:

- اعدل، أيها الرجل، أي ألف منات؟!

- إذن، ما علمك بهذا؟ سيارة جديدة تمامًا، لم تمر أربعة أشهر على شرائها.

حرك "أجدر" رأسه معترضًا:

- فليكن عندك عدل، أيها الشخص، هل يجد الإنســان الألــف منــات فــي الشارع؟!.

خرجت الكلمة من فم "آغارحيم" وقضي الأمر. لــن يقــوم بالمــساومة أو الفصال هنا؟ فقال بحزم:

- ألف منات!

أغلق "أجدر" أزرة سترته، وصعد إلى الشرفة. جلس بجوار المرأة الـــسمينة على السرير، وبدأ الكلام بغضب:

نكس "بننت" رأسه ووقف أمام "آغارحيم" مثل الدجاجة التي أصـــابها البـــرد الشديد، وكان يشرب سيجارة. فجأة رفع رأسه، وسأله على استحياء:

- ربما نتراضى، أيها الخال؟

رفع "آغارحيم" صوته من أجل أن يضع حدًّا للمساومة:

- الكلمة تقال مرة واحدة.

دخل فناء المنزل رجل قصير القامة، سليم البنية أحمر الخدود. حليق الشعر تمامًا. كان يسير باتزان؛ وذراعاه متدليان. بالرغم من أنه لم يكن يشبه "بننت" ولو لذرة، وقع في قلب "آغارحيم" أنه أخو "بننت"، هذا هو الشخص المدعو "أفندي".

قال الرجل:

- فداك نفسي.

وربت على يد "آغارحيم" الناعمة بيده الغليظة الصلدة مثل الحجر وقال:

- لماذا يقف هنا؟

ونظر نحو الشرفة:

- يا أماه، هل يعامل الضيف هكذا، أين مائدتك، أين طعامك وشرابك؟

ترك الرجل يد "آغارحيم"، واتجه نحو الشرفة. حرك "أجدر" رأسه معترضًا وقال شيئًا ما لـــ "أفندي" عندما ضربت المرأة يدها على ركبتها، كأن الغضب تملك من "أفندي".

قال:

- بالله عليك، لا تعترضي، لم يمت عزيز لدينا!

- رفع المنضدة المستديرة الموجودة في الشرفة نحو صدره، وأنزلها إلى أسفل.

- أسرعوا، نموت من الجوع! ... آه، أين اختفت هذه العروس؟!

خرجت العروس من الداخل بسرعة. ضرب "أفندي" وسط المنضدة بقبضة يده ناظرًا إليها، ومع أن العروس خرجت من الحجرة بسرعة، إلا أنها عادت ودخلت إليها مرة ثانية. ففطن "آغارحيم" أن احترام "أفندي" في هذا المنزل هو احترام حقيقي، لا أجد من لديه الجرأة على أن يعترض على كلمة لـ "أفندي".

أحضرت الفتاة "غطاء سفرة ناصع البياض وفرشته فوق المنضدة.

نادى "أفندي" "آغارحيم":

- تعال فداك نفسي، أرى أنهم أتعبوك اليوم كثيرًا.

قال لـ "بننت" الذي كان واقفًا في صمت منذ قليل:

- اذهب، وأحضر ربابة "أجدار"، ليعزف لنا قليلاً...

كان الجو معتدلاً أمام الشرفة. مالت الشمس، وخفت حرارتها...

كان "آغارحيم" يشرب الشاي وهو يفكر ما أحسن أن ظهر "أفندي". فقد ذهب قلقه وعدم ارتياحه بمجرد مجيء "أفندي"، وتولد بداخله أمل وهدوء لا يعرف هو نفسه سببهما. كان من حين لآخر يرمق بعينه خدود "أفندي" التي تعلوها الحمرة، وحواجبه الحادة الغليظة، وأصابعه الخشنة، وكان على قناعة تامة بأن مثل هذا الشخص يستطيع أن يحمل الجبل، وأنه محترم، وعادل، لا يأكل حق الآخرين، ولا يتخلى عن الحق. كان هناك نور يشع من عينَي "أفندي"، وربما كان الذي يملأ قلب

"آغارحيم" بالطمأنينة والأمل هو: " أنه يعمل سائق جرار في المراعي منذ عدة سنوات، ألا يكون في منزله ألف منات؟"

أحضر "بننت" الربابة، واستند على ركن المنضدة، لم يفتح فمه منذ فترة. كان الذي يتحدث هو "أجدر" و"أفندي"، تحدثا عن كل شيء – عن القريب والبعيد، عن الحي والميت، ولم يتحدثا عن موضوع اصطدام السيارة "الجيجولي". لم يستطيعا الحديث عن موضوع "الألف منات".

وضعت العروس طعامًا عبارة عن دجاج موضوع وسط البيض والطماطم، ووضعت أيضًا شرابًا أحمر، وزجاجة نبيذ. نظمت السفرة، واختفت مثل الظل.

بدأ "أفندي" في صب الشراب في الأكواب.

قال:

- أيها القريب، هل استفتحتَ اليوم؟

جز "أجدر" على أسنانه، فبدت الثلاث أسنان وقال:

- ما هذا؟ لو لم أستفتح، لكنتُ ذهبتُ وصعدت إلى تل "جويزان".

- سوف تقضي عليك الخمر. لن تفارق الشراب، وسوف تموت، ولن يتحقق أملك. سوف نتحمل نحن التعب الذي سوف تخلفه لنا؛ سوف نحمل جثتك إلى أعلى جبل "جويزان"، وندفنك هناك، ونضع على قبرك دلوًا من الخمر.

فرك "أجدر" يديه

- فداك نفسي يا "أفندي". لو مُت قبلك، تفعل ما قلت عليه.

رفع "أفندي" كوبه.

- في شرف الأخ الضيف! فليأت نوره وليحل علينا ضيفًا دائمًا.

ارتشف الخمر الموجود في الكوب على ثلاث أو أربع جرعات.

تناول "بننت" الكوب بعد أن أعطاه "أفندي" الموافقة بهز رأسه. شرب، ولكنه لم يأكل شيئًا.

كان "آغارحيم" جائعًا، وكأن حلقه قد أنسد، كان يبلع الطعام بصعوبة. كان ينتظر أن يتحدث "أفندي"، وأن يقول له "كل طعامك براحتك، ولا تقلق على النقود، ها هي الألف منات في جيبي". ولكن الشخص الذي يدعى "أفندي" كان لا يسأله: "من أنت أيها الأخ الضعيف، ماذا تعمل، من أين تأتي وإلى أين تذهب؟".

حل الليل، لم يكن هناك حاجة إلى المصباح الكهربائي المضاء في الشرفة؛ كان كل شيء يبدو واضحًا تمامًا تحت ضوء القمر.

نهض "بننت" سريعًا، ودخل المنزل. في البداية كان يظن "آغارحيم" أن "بننت" ذهب إلى المرحاض، ولكن رأى أن الأمر ليس كذلك. رأى دخانًا كثيفًا ينبعث من جانب المنزل، ففطن إلى أن "بننت" لا يجرؤ على التدخين في حضور أخيه، فذهب ليدخن السيجارة خلسة.

أخرج "أجدر" الربابة من جرابها ووضعها على صدره. وضع رأسه على الجانب الأيمن من الربابة، وأغمض عينيه...

كان "آغارحيم" غير معجب بصوت الربابة لدرجة أنه لم يتذكر صوتها إلا بعد أن سمعها. ولكن طريقة عزف "أجدر" المدهشة كانت تجذبه. كان لا يستطيع أن يصدق أن الربابة من الممكن أن تعبر بهذه الطريقة، وتتكلم بهذا الشكل. كان لا يستطيع أن يصدق أن الأصابع الغليظة لـ "أجدر" الذي أصبح جلدًا على عظم من كثرة شرب الخمر يمكن أن تصدر هذا الصوت المدهش من خلال العزف على الربابة. لسبب ما تذكر "آغارحيم" ابنته، وتذكر "برفانه"، فتأثر كثيرًا.

كانت عينا "آغارحيم" مسلطة على أصابع "أجدر"، وكانت عينا "بننت" مسلطة على وجه "آغارحيم". حتى الآن لم ينظر إلى "آغارحيم" جيدًا، والآن أصبح ينظر إليه، ويمعن النظر، ويرى أن جلد وجه "آغارحيم" المحلوق تمامًا شفاف جدًا، شفاف كأنه لم يتعرض إلى الشمس في حياته مطلقًا. كان يرى أن شعر "آغارحيم" أسود داكن، كثيف، مموج. عيناه تميل للخضرة، جذابة مثل عين فتاة شابة. كان يرى أن "آغارحيم" عريض المنكبين، طويل القامة؛ لو قسموه، سيستخرجون منه ثلاثة رجال مثل "بننت". كان يرى أن قميص "آغارحيم" ذا الأكمام القصيرة متناسق وأن ياقته معتدلة لدرجة أنه كان يفكر في نفسه قائلاً: "لم أرتد في حياتي قميصًا بهذا البياض وهذا التناسق". كان يرى أن "آغارحيم" جميل، أنيق. وجّه "بننت" وجهه إلى الله وسأل في قلبه: "يا الله! يا تُرى، كيف قلب هذا الفتى الجميل؟

هل قلبه جميل أيضًا؟ يا ترى هل هو في حاجة إلى مالي؟ هل تعطل في طريقه من أجلي؟ يا رب، لو أعطيتني عُشر أناقة وجمال هذا، ولو كان لدي مائة سيارة وصدموها ودمروها جميعًا، ما قلت حتى كلمة "أف". هل يوجد في قلب هذا الفتى المدني شيء يسمى "العدل"؟ أنا لم أصبه بضرر يوازي ألف منات، فلماذا يُصر على "ألف منات".

رفع "أجدر" رأسه، ولكنه لم يفتح عينيه. وقال:

-فداك نفسي، يا "أفندي". اسمع هذه المقطوعة اسمها " جويزان"، أنا ألفتها بنفسي.

ثم بدأ عزف مقطوعة جديدة. عزف عدة بنود منها، وتوقف. قال وهو يضبط الربابة:

-إلهي، متى سأتسلق قمة "جويزان"؟!

لم يتكلم أحد. كان الجميع يشعر بأن الحديث غير ملائم خلف المائدة، وكأن الكلمات قد تجمدت.

ارتشف "أجدر" في جرعة واحدة بقايا الخمر الموجودة في قاع الكوب، وتجشأ قائلاً:

-آه، يا "أفندي"، من أين ستحضر "الألف منات"؟

صاح فيه "أفندي":

-آه، أيها الوغد، البلد لم تُخرب! الشيء الوحيد الذي ليس له حل في الدنيا هو الموت. المهم الصحة، وبعد ذلك كل شيء يمكن إصلاحه.

وضع يده على رأسه المحلوقة تمامًا مبتسمًا:

-آه، يا "أجدر"، بكم تبيع سيارتك؟

هز "أجدر" كتفيه.

-أتجرؤ على أن تسمى هذه سيارة؟ لو ربط الكلب بها، لن يجلس فيها، ولكن أنا أجلس بها.

ركز عينيه على وجه "أفندي" المائل للحمرة بعض الشيء.

-قل لي، من أين تأتي بألف منات؟

شعر "آغارحيم" ببرودة في بدنه، وكأنهم جردوه من ملابسه فأصبح عاريًا، وينظرون إلى جسمه. ليتهم صمتوا، ولم يناقشوا هذه الأمر في حضوره. ألا يوجد مجال آخر للحديث؟

انفعل "أجدر":

-آه، لو عرضنا بيت "بننت" للبيع، لن يساوي ألف منات على الإطلاق. هل ألف منات مبلغ قليل، أيها الظالم؟

غضب "أفندي" أيضًا:

-لا مجال للتوسل! يوجد لدى "بننت" بقرة، وخرفان! ولدي في منزلي بعض الأثاث! وتوجد أخت لـــ "بننت" مثل الرجل، ربما يكون عندها بعض المـــدخرات. نعرض كل هذا في السوق للبيع، خلاصة الأمر، يجـــب علـــى الأخ اللطيـــف أن ينتظر قليلاً.

قال "آغارحيم" في نفسه "سأنتظر حتى الصباح الباكر ثم أرسل برقيـــة إلـــى المعهد، أخبرهم بأنني سوف أتأخر".

هز "أجدر" "بننت" بمرفقه:

-إذن، قل لأمك، تعد لنا طعام "الفطير"، لننهض في الصباح الباكر ونأكله.

ركز نظراته بقوة في وجه "آغارحيم" سائلاً إياه:

-هل أكلت "الفطير"، فداك نفسي؟

قال "آغارحيم" بهدوء:

-أكلته في "بورتشالي".

هز "أجدر" رأسه معترضًا:

-على وجه الأرض.... لا يوجد "فطير" مثل فطير منطقة "قـــازاخ" ولكـــن بشرط... يكون معه نبيذ "الزغال". سأنصرف الآن، حتى يعرف الأبناء أن لهم أبًا، وأن أباهم لم يمت بعد...

ضرب بقبضة يده على صدره وواصل حديثه:

-أنا "أجدر"، يسمونني "أجدر"! وإن لم أتسلق قمة "جويزان".... يا "أفنـــدي"! أقسم بقبر أبي سوف أتسلقه حتى ولو زحفًا!

بعد أن خرج "أجدر" من فناء المنزل سمع صوته قائلاً:

-أنا "أجدر" ها! أنا "أجدر"! ... "أجدر"!

أمسك "أفندي" "آغارحيم" من ذراعه وسحبه جانبًا.

-تمدد أيها الأخ ونم، وسوف يتم تنفيذ ما قلت عليه.

قال "آغارحيم" بإصرار:

-لا تغضبوا مني... أنتم تعرفون... سيارة جديدة... لا تغضبوا مني...

-لماذا نغضب، رحمك الله وحفظك؟ أنت لا تغضب منا، لأنه بسببنا... اطمئن... سوف نعد لك فطيرًا أيضًا، سوف ندبر لك نقودك ونعطيها لك... في أمان الله، فداك نفسي، تصبح على خير، سأنصرف الآن.

طلب "آغارحيم" أن ينام في فناء المنزل. أخرجوا له من الحجرة سريرًا وفراشًا، ووضعوه تحت شجرة الكمثرى، فعلت العروس كل ما بوسعها بشهامة من أجل خدمة "آغارحيم"، وفرشت له السرير وانصرفت. تمدد "آغارحيم" بملابسه، حتى إنه لم يخلع حذاءه. شعر الآن فقط بأنه منهك ومتعب وأن جميع بدنه يتألم. وعقله أيضًا كان متعبًا، ولكن النوم لا يأتي. لو كانت الظروف غير ذلك، لربما كان "آغارحيم" يستمتع بالنوم في الهواء الطلق تحت الشجرة، كانت عيناه مسلطتين على النجوم التي تختبئ وتنطفئ في السماء وكان يسمع صفيرًا في أذنيه.

كان لا يُسمع أي صوت في هذه القرية الكبيرة، كأن القرية سقطت في أعماق بئر عميقة. لو لم تضرب الحيوانات التي كانت تصدر أصواتًا أمام الحظيرة ظهرها بذيلها من حين لآخر لأعتقد "آغارحيم" أنه لا يوجد حوله إنس ولا جان، وأنه ليس في قرية، بل في وادٍ خالٍ من الناس، وأن الصباح لن يعود إلى هذا الوادي، وأن الشمس لن تشرق من جديد، وأن "آغارحيم" سوف يظل هكذا ممددا، ولن يستطيع أن يخرج من تحت هذه النجوم التي تلمع مثل النقود الذهبية. تنهد "آغارحيم" وتقلب على جنبيه.

هَدهَد هُدهُد في الحديقة، فرد عليه آخر من بعيد. جلس "آغارحيم" في مكانه وأنصت إلى تبادل تغريد الهداهد. رجع إلى الخلف ونظر نحو الشرفة. كانت المرأة السمينة هناك نائمة على السرير الخشبي، ربما سحبت الغطاء على رأسها في هـذا الجو... الخانق... سمع "آغارحيم" صوتًا يشبه الأنين في هدوء الليل الرهيب. لـم يكن هذا صوت طائر. كان لا يأتي من الحديقة، بل من الشرفة. أنصت "آغارحيم" للصوت لدرجة أنه كان يستطيع سماع حتى السكوت. كان أحد مـا يبكـي، كـان صوته مخنوقًا ويبكي، يبكي من أعماقه ويكتم حشرجته. كانت المرأة لا تتحـرك، ظلت في سريرها كالحجر. ولكن "آغارحيم" كان على يقين من أنها تبكي. يا تـرى لماذا تبكي؟ ...

غدًا سوف يبيع "بننت" بقرته وأغنامه، ويبيع "أفندي" شيئًا أو شيئين من بيته. هل تبكي المرأة السمينة لهذا السبب؟ ربما لا تبكي مطلقًا، ربما يُخيل "آغـارحيم"؟ لا، تبكي، والله تبكي... ها هي تحركت... قطعت بكاءها... أدارت جنبهـا نحـو الحائط... وبدأت ثانية في البكاء من أعماقها...

فكر "آغارحيم" في أنه لم ينم أحد في المنزل سـوى الفتـاة الـصغيرة ذات الشعر المجعد. انظر، يستلقي "بننت" وزوجته الجميلة على ظهريهمـا فـي تلـك الحجرة الموصدة، ينظران إلى السقف المظلم. ينظران ويصمتان. يـشعل "بننـت" سيجارة من أخرى. ربما تبكي زوجته الجميلة. تبكي وهي تعض شفتيها الـضاربة إلى الحمرة كالورد الناضج، تدعو على "آغارحيم" وتنزل به اللعنات: "أرى زوجتك تلد لك طفلاً ميتا".

خاف "آغارحيم" خوفًا شديدًا. كأن النجوم التي في السماء تحولت إلى حجارة متقدة تتساقط على رأسه

شعر "آغارحيم" في داخله بوجع لا يُحتمل. أول مرة في حياته يقـدم علـى عمل دون أن يستشير أخاه.

نزل "آغارحيم" من السرير منصتًا إلى صوت دقات قلبـــه، وتوجـــه نحـــو السيارة "الجيجولي"...

عندما مرت السيارة "الجيجولي" من أمام المنزل، نهضت المـــرأة بـــسرعة وجلست على السرير. مع أن "آغارحيم" لم ير عينيها جيدًا، إلا أنه كان على يقـــين أن عينيها تحرقت من الدهشة...

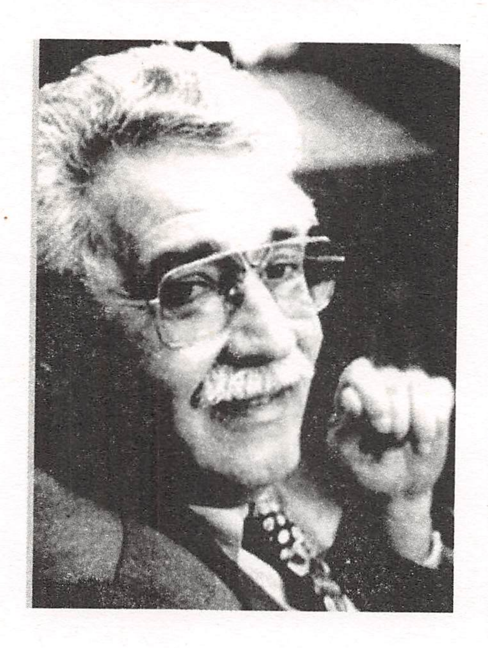
كان الطريق يبدو واضحًا تحت ضوء القمر الأبيض. كان الشفق المائل للون الأبيض يظهر رويدًا رويدًا في كبد السماء، وكان الوقت وقت السحر. كان زجـــاج السيارة يعلوه الندى في ذلك الوقت من السحر. كانت الرياح تصدر صوتًا وتمـــلأ السيارة من النافذة المكسورة وتهب على وجه وعين "آغـــارحيم"، وتـــشعره ببـــرد منعش في جسده.

عندما وصل "آغارحيم" إلى النصب الموضوع فيه طائرة فضية تـــشبه مـــن بعيد قمرًا بجناحين – وهو مكان الحادث، نظر إلى ساعته: الرابعة تمامًا. بعد ذلك لاحظ شيئًا على المقعد. أخذه ونظر إليه، إنه دميـــة الفتـــاة ذات الـــشعر المجعـــد الضاحكة. ابتسم "آغارحيم": وقال: "هذه تعويذتي"؛ وشعر بأنـــه لا أثـــر للأوجـــاع والآلام التي كانت به.

ضغط "آغارحيم" على الشريط الموجود بالكاسيت بإصبعه....

(٦)

قصة "العتبة"



الكاتب/ يوسف صمد أوغلو

"١٩٣٥ - ١٩٩٨"

حصل على لقب "كاتب الشعب الأذربيجاني"، ولقب "خادم الفن القدير الأذربيجاني". أصبح عضوًا في اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام ١٩٥٨م. قام بتأليف روايته الشهيرة "يوم القتل"، وله العديد من القصص القصيرة المميزة مثل "الحجر البارد"، و"المهد"، و"ألعاب العام ٤٦"، و"صور خيالية"، و"العتبة"، و"البياتي شيراز"، و"وقت الربيع في وادي اينجه". ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات. قام بكتابة سيناريوهات أفلام "يوم القتل"، و"أريد سبعة أولاد".

حصل على جائزة "كومسومولو" الأذربيجانية وحصل على وسام "الشهرة" بأذربيجان بعد الاستقلال.

قصة "العتبة"

للكاتب / يوسف صمد أوغلو

"هناك موت مجرد موت، وهناك موت كله عذاب"

(مثل شعبي)

ربما بداية من هذه اللحظة، لن يُدهشه أي شيء بعد ذلك. قبل ساعة فقط، كانت الشمس في كبد السماء تحرق الدنيا بلهيبها... ساعة؟ ساعتان؟ ... ربما قبل عشر ساعات، أمس في الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، وبعد أن نزل من التاكسي في الطريق المؤدي إلى جنوب أذربيجان، والممتد كالحزام الفضي تحت ضوء القمر وبعيدًا عن المكان الذي يقف فيه الآن، ضم حقيبة اليد الصغيرة لصدره لسبب ما، وهو ينظر إلى الإضاءة الخلفية للسيارة التي تنطلق في الاتجاه المعاكس على نفس الطريق الذي جاء منه، أخذ يفكر في أنه من المستحيل أن يندهش بشيء في هذه الدنيا بعد ذلك، حتى ولو تجمع عليه ألف سحر وسحر، وأنه لن يستطيع الشعور بأي شيء بعد سوى بالجو الخانق لهذه الليلة. كانت الإضاءة الخلفية للسيارة – مصباحان أحمران – تبتعد، وبدت داخل الظلام الحالك لليل كنقطتين مضيئتين، واختفت فجأة كبصيص الأمل الأخير لمريض يشكو من مرض عضال، شعر كيف أن عينيه تلمعان في الظلام... عندما استيقظ صباحًا – نام فوق حجر أصم في مكان تلتصق فيه صخرتان – نظر إلى امتداد ضوء الشمس المنعكس على عينيه مباشرة، كانت الشمس تطلع من أعماق البحر، وكانت مستديرة شديدة الحمرة، كانت تشبه ثقبًا ضخمًا مفتوحًا نحو مكان ما في كبد السماء الملبدة بالغيوم،

وكان هناك طريق أحمر يسير فوق المياه نحو هذا الثقب، توقفت سيارة الأجرة الذي جاء بها ليلاً إلى هنا في هذا الطريق الأحمر، وأضاء مصابيحه الأمامية... أغمض عينيه، مد يده اليمنى جانبًا ووضعها فوق الحقيبة، تعجب من انفعاله! من كان يمكن أن يحمل الحقيبة هنا؟ ... لسبب ما لم يجرؤ أن يفتح عينيه ثانية لمدة طويلة، لقد فهم أن الظلام في وضعه الحالي أفضل من الضوء، أنت في الظلام لا ترى الدنيا، وفي الوقت الراهن، لو لم ير الدنيا، لكان أفضل له. لأن الخطوط الغليظة الموجودة بالصخور المتجمعة حوله، والحجارة الصماء، وسطح البحر المستوى والموجود على مسافة بعيدة للغاية لن يستطيع كل هذا أن يعيده بعد إلى العالم الواقعي، لقد فصله إلى الأبد الاتصال الهاتفي المفاجئ في تلك الليلة عن العالم الواقعي الذي قضى فيه ثلاثة وأربعين عامًا... بعد أن استدار التاكسي ومضى ليلاً، صعد إلى أكوام الصخر من الطريق الرئيس، وكم سمع رنات هذا الاتصال التليفوني، الله أعلم. انقطع هذه المرة صوت اليعاسيب، خافت أيضًا الحشرات والدود من هذا الاتصال الهاتفي الذي شرده عن منزله وأسرته... بعد أن استدار التاكسي ومضى ليلاً، مر من العديد من البوابات التي لم يرها وسط الظلام، وصعد إلى أعلى لاهثًا مستمعًا لأحاديث الحراس الهادئة الذين لم يرهم، في النهاية، أغلقت البوابة الأخيرة، وغاص في الظلام. بعد أن استدار التاكسي ومضى ليلاً، أنصت إلى خفقان قلبه ناظرًا إلى الضوء المنعكس من لمعان عينيه تحت قدميه، سعى أن يفهم سر ضيق قلبه. لم يكن الظلام مجرد ظلام، بل كان ظلامًا يغص بالهموم، يتحين الفرصة لينقض على من يعبر فيه. ولا يمكن مقاومة عدم النوم في ظل هذا الجو! ... بعد أن استدار التاكسي ومضى ليلاً، فتح الحقيبة، وأدخل يده بداخلها، كان بها شطيرتان أو ثلاثة، وترمس مياه عادية من الصنبور، وكذلك مسدس من نوع "تي تي"، وثماني رصاصات أيضًا. "آه، قالوا لن تستطيع أن تأخذ المسدس معك!" نحن أيها الأخ لا نأكل بآذاننا، بل بأفواهنا، لسنا حمقى ...

توغلت الحرارة. كانت الشمس متوهجة مثلما تكون في الصباح، في الفراغ المستدير بين الصخرتين المتلاصقتين. لم تكن الحرارة الحالية هي حرارة الشمس، بل كانت الحرارة المتصاعدة من الأرض، والحجارة التي امتصت بداخلها حر جهنم طيلة اليوم، كان يشعر بكل جسده أن هذه الحرارة تتصاعد ملتفة نحو الشمس كدخان خفي يخرج من تحت أقدامه. كان هذا التدفق الحارق الذي يشاهده لا يولد لديه أي نوع من الدهشة، وكأنه منظر عادي رآه مائة مليون مرة. كانت الشمس تسترد حرارتها. كما أن الله يسترد الروح التي وهبها. كان يصدر عن الأحجار أصوات غريبة، كأنها تريد أن تقول شيئًا، وتنادي على أحد ما. ولا توجد كلمة يمكن أن تعبر بها عن هذا بلغة الإنسان. كأم تُرضع صغيرها في مكان ما، ويُخرج اللبن من فم الصغير... كان يشعر بالصداع الشديد. وكان الألم في أعماق رأسه، ولم يكن هناك سوى الذكريات المنسية منذ زمن، فلا يوجد أمل أو حسرة أو أمنية أو أي شيء. فقط الألم والذكريات التي نسيها. يا تُرى ماذا كان يؤلمه يا إلهي... أيوجد ألم بهذا الشكل؟... فتح الحقيبة للمرة الألف، أو للمرة الثانية – لا يعرف. وضع هذه المرة يده أيضًا فوق مقبض المسدس البارد كالثلج، ولم يستغرق هذا طويلاً. انفتحت شفتاه المشققتان، ولكن سمع صوته من الداخل، "آه، قالوا لن تستطيع أن تأخذ المسدس معك!" ثم أخرج الترمس، وفتح غطاءه وشرب شربة ماء بارد! كان يوجد في طعم الماء رائحة واضحة غريبة، رائحة المطبخ ذي العشرة أمتار، رائحة زوجته، رائحة ابنه ذي الثماني سنوات. تذكر استناد زوجته على الحائط وهي ترجع للخلف مترنحة من الخوف عندما كان يأخذ حقيبة اليد الصغيرة هذه ليلاً. كان لديها غضب كلب مسعور من الخوف الذي يبدو بأعماق عينيها المنتفختين من الدهشة والتي كادتا تخرجان من حدقتيهما. بعد هذا الاتصال الهاتفي، كأن الهواء اختنق فجأة في جميع حجرات المنزل الثلاثة. حتى بعدما توقف التاكسي في الطريق الذي يشبه الحزام الفضي، وأنزله، لم يستطع تخليص رئتيه بشكل كامل من هذا الهواء الخانق بطعم غاز الأمونيا... أعاد الترمس إلى الحقيبة

من جديد، وأغلقها، وغير مكانه حتى يتخلص بشكل ما من الألم الموجود بالعقل، سار نحو الظل الموجود بالناحية اليمنى للصخرتين المتلاصقتين وجلس وأسند ظهره إلى الصخرة، ووضع الحقيبة تحت قدميه ولكن لم يخف الوجع. لو كان هذا وجعًا بالرأس، لكان من الممكن التغلب عليه؛ إما من خلال أن يخلع سترته ويعصب بها رأسه، أو يُدلك صدغيه، وبذلك من الممكن أن يُقلل الألم بطريقة ما. كان هذا الوجع وجعًا من نوع آخر، ربما مثل هذه الأوجاع أو أنين العقل الذي يسبب عذابًا لا يُحتمل يحدث في عمر الإنسان مرة واحدة أو مرتين على الأكثر؛ إحداهما في بطن الأم، والأخرى عند الاحتضار ... وفطن الآن فقط إلى أنه لن يعود لمنزله مرة أخرى، ولن يدخل المصعد ويصعد للطابق الخامس مرة أخرى، أيموت اليوم، أم غدًا أم بعد عشرة أيام!! لا يعرف أين، ربما في هذا المكان، أو بين هذه الصخور، أو تحت ظلال طيور الحدأة السوداء التي تطير أسرابًا فوق رأسه. لن يعود مرة أخرى إلى بيته. أخرجوه من المنزل كما يخرجون الجثمان، لقد حمل جنازته بنفسه على كتفه، ونزل من السيارة ليلاً في الطريق الذي يشبه الحزام الفضي، ودخل هنا وسط الصخور. الفاتحة! اللهم ارحم أهل القبور! من قال هذا يا ترى؟ ... من يبقى وحيدًا، ربما يشعر أنه وحيد بالفعل. ولكن لا يبقى أي شخص مطلقًا وحيدًا. لقد اختفى الوجع فجأة وكأنه كان مرتبطًا بهذا الفكر الذي خطر بباله، وشعر ببرودة تسري في وجهه، وشعر بخفة غريبة غير معروف سببها؛ كأنه كان جوادًا وثب من فوق حاجز عالٍ وصعب، والآن سوف يذهبون به للاسطبل للراحة...

تذكر الوجه المجعد لأمه التي كانت تُحدث نفسها بصوت خافت، والتي كانت عندما يكون المصعد معطلًا، تصعد إلى منزله على السلالم ناهجة، وتقف في الرواق الموجود بكل طابق لتلتقط أنفاسها، وتمسح بظهر كف يدها حبيبات العرق الصغيرة من جبينها المتجعد، وتضع تحت قدميه بيدها الأخرى إناءً من محشي ورق العنب، يتردد في أذنيه صوت الخشخشة الصادرة من صدر أمه التي اتخذت

على نفسها عهدًا منذ سنوات أن تحضر لابنها وحفيدها نصيبًا مما تطهي من طعام في حجرتها الصغيرة مرة أو اثنتين في الأسبوع، كان صوت هذه الخشخشة يشبه وطأ الأقدام لأخر أوراق الخريف. وبعد ذلك يصدر صوت خافت ومستاء مثل هذه الخشخشة تمامًا – غير معروف ماذا كانت تقول. ولكن كانت مثل أم تُرضع صغيرها في مكان ما، واللبن يخرج من فم الصغير. عاد الوجع من جديد في المكان نفسه من العقل والرأس باهتزازة تشبه اهتزازة وتر مشدود انقطع فجأة. ظلت أمه في الرواق الموجود بين الطابقين الرابع والخامس. أطفأوا المصابيح.

كانت الليلة ليلة مأساوية. كان يأتي صوت البحر القلق من بعيد جدًا، لم يكن هذا صوت الجبال، كان صوت هياج المياه المجمعة منذ ملايين السنين في أحد المستنقعات الضخمة والعميقة بالكرة الأرضية. كان البرد المتصاعد من داخله يُقطعه إربًا إربًا ويجعله أحيانًا يصل لدرجة أن يحتمي بالصخرة ويسند خده بها، لأن الصخرة كانت حارة إلى حد ما، وربما... تتأسف عليه الحجارة. أما الخوف من تلك الليلة المأساوية، فقد بدأ من شيء آخر – رأى صورة عجيبة في إحدى الصخور في دائرة الضوء المنعكسة أمامه من شعاع عينيه؛ وقف شخص ما في يده حربة أمام حيوان ضخم، أين هذا المكان يا إلهي؟ ... إنه ذلك المكان نفسه، المكان الذي جئتَ منه، والمكان الذي تبحث فيه عن ملجأ، المكان الذي يتمناه المسدس الذي سأم من انتظار دوره في حقيبة اليد – الدنيا المظلمة البعيدة عن الأنظار. وكانت أيضًا حربة طويلة تنتظر دورها في هذه الدنيا. فلنر لمن سيمنحها الله! ... عندما استدار التاكسي ومضى، وبعد أن تخطى العديد من البوابات وصعد إلى هناك، سمع لأول وآخر مرة في حياته نفسًا ثقيلاً لمياه البحر البعيدة المتجمعة في المستنقع. سخنوا في المطبخ حلة محشي ورق العنب التي أحضرته أمه، ووضعوها أمامه. كان مذاق المحشي لا مثيل له مثل اقتراب آخر امرأة من آخر رجل وحيد في العالم.

"أيها الفتى، نهاية المال الحرام وخيمة، راجع نفسك"

استطاع بعد ذلك الاتصال الهاتفي أن يقول لزوجته هذا فقط، لو تستطيعين اعملي مراسم أربعين لأمي...

تمدد فوق الحجر الأصم على جانبه، ولوّى ركبتيه، وغاص في نومٍ قلق وإحدى يديه على الحقيبة. لأنه لو لم يقض هذه الليلة نائمًا والتي كان قد حدثته فيها نفسه عن المسدس والحربة، كان من الممكن أن يصاب بالجنون! أغمض عينيه بإحكام مستمعًا لصوت الحشرات وسط الصخور الممتدة للسماء مثل الخيام السوداء الضخمة في كبد السماء ذات النجوم، وكانت حرارة النهار تملأ جسده من خلال الفتحات الصغيرة بالحجر الأصم، وكانت هذه الحرارة تُلين عضلاته التي جفت تمامًا من القلق خلال هذه الساعات، وكانت عضلاته تستعد إلى النوم القلق والمتوتر الآتي .... يا ترى هل هذا المكان مكان مقابر؟ ليته دفن أمه في هذا المكان. رحمك الله يا أمي!

بالطبع، بداية من هذه اللحظة، لن يُدهشه أي شيء على الإطلاق بعد ذلك. لقد ظل هناك... في الدنيا المضيئة – كل شيء يجعل الإنسان في هذه الحياة إنسان بمعنى الكلمة مثل – الدهشة، الحيرة، الغضب، الاضطراب.

ترك هناك كل شيء ومضى؟ ترك حياة أمه وموتها، ومحاولة زوجته أن تكتم شفتيها للمرة الأخيرة وأن تكتم الحشرجة المتصاعدة إلى حلقها، وكذلك لا مبالاة الأطفال الذين لا علم لهم عن شيء والتي كانت لازمة لابنه، ورُزم النقود ذات فئة الخمسة والعشرين والخمسين الموجودة في الحقيبة الأخرى التي في حجم حقيبة اليد هذه والتي تركها في المنزل، والحقيبة الثالثة التي ذهبوا بها إلى أحد أقارب زوجته المعتبرين في القرية قبل شهرين أي قبل ستين يومًا كاملاً من هذا الاتصال الهاتفي، وكذلك وعاء مملوء بالمجوهرات. ترك كل شيء ومضى. إلى الأبد، حتى نفخ سيدنا إسرافيل في الصور... ما جاء معه هنا فقط قلق مجنون.

وكان يوجد أيضًا قلق في الصخور وفي الحجارة، وفي الأرض، المتصدعة تحت قدميه، وفي صوت الطيور والذئاب ليل نهار، وفي صوت هياج البحر البعيد. كان كل ما هو موجود في هذا المكان ينتظر معه، ينتظر معه صوت النفخة للمثوى الأخير. ولكن كانت تُشع أمام عينيه من حين لآخر شرارة حجمها كسن الإبرة تمنحه أملًا في النجاة. مثل إشارة الدوران بالتاكسي الذي أنزله في هذا الطريق الذي يشبه الحزام الفضي. ربما تحدث معجزة، أو على الأقل، يأتي إلى هنا أخوه الأصغر الذي يعرف مكانه، ربما يقول له خبرًا سعيدًا، تحدثُ، لا تخف، ارجع. ثلاث كلمات فقط. المعجزة الإلهية تكمن في ثلاث كلمات.

نظر إلى حذائه. لأنه كان لا يستطيع أن يظل كثيرًا في انتظار الثلاث كلمات التي يتمناها – فالقلب ليس من الحجارة، حتى ولو قلبه مخلوق من الحجارة، فلو لم ينظر إلى أسفل ويشتت تفكيره، فمن الممكن أن ينفجر ويتشقق ذلك القلب مثل هذه الصخور. علا حذاءه الغبار، كانت أصابع قدميه تؤلمه بسبب ارتدائه الحذاء ليلة أمس، ولم يخلعه حتى الآن. أما عضلات فخذه، فقد تورمت مثل عقد حبل غليظ في عدة أماكن. انحنى لأسفل بعض الشيء، وفك رباط الحذاء، وخلعه من قدميه، وخلع جوربه أيضًا. وغرس كعبيه بالتناوب في التراب، شعر بطراوة في قدميه بسبب التراب الفاتر. وبعد ذلك، أخذ الترمس من الحقيبة ربما للمرة الثالثة، وارتشف من الماء الذي يحتفظ ببرودته حتى الآن رشفة ملء الحلق، وبعد أن لمست شفتاه غطاء الترمس، شعر أن شفتيه جفتا وتورمتا. ولكن هذا الشعور أذهب عنه بقايا خوف ليلة أمس التي لا يزال يشعر بها في روحه، وأخذ نفسًا عميقًا ملأ رئتيه لأول مرة منذ اللحظة التي جاء فيها إلى هنا وحتى الآن. كم هو جيد أنه أقلع عن التدخين. كان من المستحيل البقاء هنا من دون تدخين.

تذكر ذهابه لزيارة ابن عمه قبل عدة سنوات. اللعنة على الشيطان! كأنه كُتب على عائلته كلها أن يموتوا جميعًا في السجن... كيف التقيا؟ وعن أي شيء

تحدثا سويًا من خلال الهاتف خلف زجاج سميك – لم يستطع أن يتذكر هذا بالتحديد. كان ابن عمه يرتدي ملابس سوداء، كُتب اسمه على قماشة مربعة بيضاء موضوعة على صدره، واسم العائلة وكذلك بعض الأرقام. اشتعل شعره الأسود شيبًا. وكأن بياض شعره انتقل إلى وجهه، ومنه اتجه لأسفل وتوقف عند أطراف أصابعه... توسل إلى الجندي الذي كان يراقب حديثهما، وطلب منه أن يعطي ابن عمه علبة سجائر فاخرة. لم يأخذها ابن عمه، "لقد أقلعتُ عن التدخين، شيء أحمق، أنصحك أيضًا ألا تُدخن". بعد أن خرج من هناك، من البوابة الحديدية، شعر بخوف مفاجئ وقع في قلبه، فاتخذ قرارًا أنه يجب أن يُقلع عن التدخين. لا يمكن معرفة أحوال هذه الدنيا... عاد من السجن إلى الفندق سيرًا على الأقدام، بالرغم من أنه رفع رقبة معطفه السميك، وأنزل على أذنيه القبعة ذات الدلاليتين لحماية الأذن، فقد أخذ ينظر باهتمام ما إلى وجوه الناس التي كانت تقابله في هذا الجو شديد البرودة مرتعشًا من البرد، ومندهشًا من بقاء هؤلاء الناس أحياء ولم يموتوا في مثل هذا الجو، وكذلك بدأ يفكر في حياته المستقبلية بإحساس مضطرب عميق لا يعرف سببه. وكانت الأفكار التي تدور بعلقه باردة وجديدة مثل الثلج المسحوق تحت قدميه.

"أيها الفتى، نهاية المال الحرام وخيمة، راجع نفسك"

تسمرت الشمس الحمراء في مكانها السابق بين الصخرتين الملتصقتين، كانت تشبه وعاءً ذهبيًا مملوءا بالدم.

تذكر كيف أنه بعد ذلك الاتصال الهاتفي في تلك الليلة نزل واتجه سيرًا على الأقدام من البلدة التي كانوا يعيشون فيها إلى مركز المدينة إلى بيت أخيه الصغير، وأيقظه من النوم، وفي لحظة واحدة ملأ المنزل ذي الغرفة الواحدة الذي كان يعمه الهدوء بالخبر السيئ الذي جلبه معه كحمل ثقيل. كأن أخاه كان لا يستطيع أن يفتح عينيه الناعستين، ويترنح في الرواق الضيق كالثمل مرتديًا الفانلة والسروال حافي

القدمين. وكانت زوجة أخيه قد التحفت بمنامة مزخرفة بالورود، وتنظر إليه من خلف زوجها وهي تعبث بزر المنامة بإحدى يديها، وتبكي صامتة، تمالك هو نفسه بصعوبة أمام الإشفاق والاستسلام الموجودين بعينيها الجاحظتين المملوءتين بالدموع، وكتم رغبته في النحيب والبكاء. وذابت هذه الرغبة وسارت نحو قلبه رويدًا رويدًا. قال بسرعة لأخيه شيئًا ما، وأفهمه شيئًا ما، ثم دون أن يودعه أو يصافحه أو يقبله، خرج من الرواق. وأغلق الباب خلفه ببطء. لأول مرة شعر برائحة الأمونيا في أنفه وهو هناك في الرواق شبه المظلم خارج المنزل، ولأول مرة قال هذه الكلمات هناك، "آه، قالوا لن تستطيع أن تأخذ المسدس معك!". عندما كان يضع المسدس في الحقيبة وهو في المنزل، لم يستطع مثل زوجته تحمل هدوء الساعتين الأخيرتين، انتُزع أنين من صوت المرأة. لأول وهلة، لم يفهم هو حتى أن هذا الصوت أنينٌ، ظن أن أحدَ الأجْزاءِ المتكاثرةِ في الأيام الأخيرة من الربيع قد عوى في مكان ما بفناء المنزل. ثم بعد أن أغلق الحقيبة، واستقام ظهره، رمق زوجته، ففطن أن زوجته موافقة على قراره، وأنها لا ترى مثله مخرجًا آخر...

يختفي الوخز الذي بقدميه، وبهدوء، أغلق غطاء الترمس، ووضعه في الحقيبة، وأغلق الحقيبة. لو جاء أخوه غدًا صباحًا إلى هنا ولم يجده، إذًا وقع ما قاله جارنا الأستاذ "مُقبل" من كلام وجيه وهو "يجب أن يتم الحدث وينتهي"... لقد حدثت أحداث في هذه الدنيا لأشخاص كثيرين جدًّا، وانتهت – حدثت عاجلاً أو آجلاً، ولكنها انتهت. لم يكن ذلك الاتصال الهاتفي مجرد أمرٍ عادي. كانت كلمة "قبضوا على كريموف" في الأصل سر حديث الأستاذ "مُقبل"، وكان يوجد ما يشبه النية الشؤم أكثر من كونه خبرًا عاديًّا في الصوت الذي كان ينبض في سماعة الهاتف مثل طائر حبيس القفص. اعتاد الرد فقط مساءً على الاتصالات الهاتفية خلال الشهرين الأخيرين، كانوا يتصلون بهذا المنزل مساءً فقط في الآونة الأخيرة، وكانوا يتكلمون همسًا فقط. في الأصل لم يكن هناك أي شيء غريب بالنسبة له في الأخبار التي تُقال له همسًا. كان الغرض من جميع هذه المكالمات واحدًا، استعد

أيها الأخ، مجرى الأحداث يدل على أن الوضع ليس على ما يرام، وأن الأشخاص الذين أعطى لهم هو و"كريموف" رشاوي حتى الآن رفضوا تقاضي رشاوي بعد ذلك، اتفقوا وأجمعوا على ذلك قائلين، "اذهبوا وابحثوا لأنفسكم عن حلٍّ، فالوضع أصبح غير ذي قبل". ما إن سمع هذا الخبر لأول مرة حتى اشتاط غضبًا بجوار زوجته، وضرب كفًّا على كف وتحدث بجراءة عن أن هؤلاء الأشخاص الذين لا يرغبون في تقاضي الرشوة جبناء وخونة، كما تأثرت زوجته وانفعلت بكلامه، وأشعلت زوجها أكثر.

استمر هذا الحديث بين الزوجين حتى مطلع الفجر، عندما بدأ زجاج النوافذ التي اختلطت بظلام الليل في الميل إلى اللون الرمادي، وسُمع صوت صياح الديكة من شرفة أو حديقة أحد ما في الضاحية التي تقع في هذا المكان في المدينة، شربا رشفة أو اثنتين من الشاي الذي برد وكان موضوعًا فوق المنضدة، وذهبا للنوم. نامت زوجته في الحال. أما هو فلم يستطع النوم وحاول لمدة طويلة أن يُهدأ من أعصابه التي أثيرت من ذلك الحديث، فتمدد مكانه دون غطاء، ودون أن يفكر في شيء محدد، انصاع لتدفق الأحاسيس والمشاعر غير المفهومة ناظرًا لضوء الشمس اللامع في زجاج النافذة المتسخ الموجودة أمامه. لقد تشنج، وسط تدفق هذه الأحداث، جسده بالكامل من أطراف أصابعه إلى أقل خلية في عقله. فقط عندما بزغ الصباح، اختفى اللون الرمادي المختلط بلون الحائط الذي أمامه، وعندما حلت محله الورود الصفراء، غاص في تفكير غريب في وضع ما بين النائم واليقظان، لو حدث شيء – لا قدر الله، ولو ورطوه كالآخرين – لا قدر الله، حينئذ أيها الأخ، لن يستطيع أي شخص أن يُنقذني حيًّا. ليس لدي رغبة أو ميل في هذه السن أن أتعذب في السجن. أي سجن، آه؟ ... بعد أن غاص في التفكير على هذا النحو تلك الليلة، استدار على جنبه، ونام مستريحًا دون أي أحلام حتى الصباح أو بمعنى أصح حتى وقت الظهيرة .... مستريحًا، نعم، ولكن من دون أي أحلام، فلو سأله أي أحد حتى هذه اللحظة عن النوم في تلك الليلة، ربما يقول إنه نام مستريحًا دون

أي أحلام. ولكن حتى هذه اللحظة فقط. ولكن يستند الآن على الصخرة، وتذكر أنه رأى حلمًا غريبًا بمجرد أن نام في تلك الليلة أو بمعنى أصح في صباح تلك الليلة بعد أن دخل النور إلى الحجرة، كأن ضوء أضاء في أعماق بئر الحلم القلق والثقيل، ويمكن القول إنه اختلافًا عن سائر الأحلام البلهاء التي كان يراها كل ليلة طيلة عمره البالغ ثلاثة وأربعين عامًا، رأى في تلك الليلة خاله الأستاذ مصطفى الذي لم يتذكره ولو مرة واحدة في آخر خمس عشرة عامًا، وحتى نسي متى مات. وسمع صدى قريبًا لصوت عزيز، خلافًا للأصوات المتداخلة التي كان يسمعها في نومه دائمًا، وشم رائحة مثل رائحة نعناع الربيع. ورأى أيضًا بقايا الطعام الموجودة على لحية خاله الكثة وهي تتناثر على صدره. وضع الأستاذ مصطفى الخُرج المهدب الأطراف في رواق ضيق لأحد منازل باكو ذي الطابق الواحد ومسطحة السقف، ويوزع الخبز والحلوى والقصص التي أحضرها ملء الخُرج على الأطفال الصغار الذين يلتفون حول قدميه والذين تبدو في وجوههم النحيفة وأعينهم الجاحظة آثار ومأساة الحرب. بعد أن تذكر هذه الرؤيا، فهم الآن أن السبب في استيقاظه من النوم ظهرًا وعدم قدرته على تذكر أي شيء كان هو طعام الفطور العادي الخاص به اللذيذ جدًا والذي يمكن أن يساوي ربما طعام أسبوع في الماضي. كانت البطن الجائعة وإفرازات المعدة التي تشبه النبيذ الحديث في الليل قد أغلقت للأبد باب الذكريات الأخيرة في العقل.

لو كانت تلك الأوقات موجودة حاليًا – لا يمكن استرجاع الأيام الخوالي – التي كان ينزل فيها الأستاذ مصطفى في الشهر مرة أو اثنتين من على ظهره الخُرج، ويحك لحيته السوداء ويوزع الهدايا عليهم قائلاً، "أنا قادم من الجبال، أيها الأولاد"، في تلك الأيام كان هناك أخت وأخان يلتحفون ببعضهم البعض وفوق مرتبة ولحاف موضوعين على الأرض في حجرة صغيرة في المساء، ولا يزال طعم الحلوى عالقًا بشفاههم، يستمعون لجميع القصص المخيفة في الدنيا كأنهم

يشربون أحلى شراب. لو كانت تلك الأوقات موجودة حاليًا، كان يتوسل مع أمه إلى الله والرسول أن يُقف الزمن، وأن يُطيل سعادة يومين فقط لعمر إنسان. ليته ما كبر مطلقًا. ليته لم يخرج سالمًا من تلك الأيام. ليته ذهب مع خاله إلى الجبال، وهلك في الثلج أو الصقيع. ليت سنوات اليتم تلك لم تنته، وليتها امتدت واستمرت حتى تلك الأيام. ولكن ماذا أنت فاعل. كما يقال، أنت تريد والله يفعل ما يريد. كانت أمه تقول هذا أيضًا، وخاله أيضًا عندما جاء خبر موت والده على الجبهة، خرت أمه على الكرسي، ودون أن تزرف عيناها دمعة واحدة، قالت هذه الكلمات لأول مرة. بعد ذلك اتصلوا هاتفيًا واستدعوا خالهم الأستاذ مصطفى الوحيد الذي بقي سالمًا من الأقارب. جلس هو الآخر فوق الكرسي في الرواق، ودعك يديه فوق ركبتيه كما فعلت أمه بالضبط، وقال هذه الكلمات، أنت تريد، والله يفعل ما يريد. بعد ذلك قدم الجيران واحدًا تلو الآخر، وقالوا أيضًا شيئًا يشبه ذلك في الرواق. يوم أسود قدم بهذه الكلمات إلى إحدى بيوت باكو ذي الطابق الواحد، والسقف المسطح – ليس بالبكاء والعويل، بل بالنغمة التي يعزفها الحظ. رأى في تلك الليلة شيئًا يشبه الضوء في النافذة المظلمة، كان الحظ يلتحف باللون الأبيض، ويضم الربابة إلى صدره، ويعزف نغمة محزنة... تذكر هذا أيضًا. ولكنه نسي أشياء أخرى. يا إلهي، أهناك ظلم كهذا؟! ربما من كثرة هذا الظلم، كانت الشمس تحترق الآن آسفة، كان للأيام الخوالي ما يشبه السترة في ضوئها الأحمر. كان يبدو الضوء الأحمر أيضًا في شقوق الصخور والحجارة الصلدة، وكان الجو شديد الحرارة. حتى أنه اعتقد فجأة أنه سوف يفور بركان الآن في المكان الذي جلس فيه مستندًا إلى الصخرة، بجميع الذكريات المنسية الموجودة تحت الأرض، ويجب أن تطفو فوق سطح الأرض مع فوران البركان. لأن الشمس لم تحترق مطلقًا احتراقًا شديدًا هكذا من دون سبب، لكل شخص يوجد شمس خاصة به، ويل من ذلك اليوم الذي اشتعل فيه العالم هكذا واحترق،

ويل من ذلك اليوم

"أنت تريد والله يفعل ما يريد"

"أيها الفتى، نهاية المال الحرام وخيمة، راجع نفسك"

"أنا قادم من الجبال، أيها الأولاد"

"قبضوا على "كريموف"

كانت الصخور تحترق. كان يسند ظهره في مكان التقاء الصخرتين، ويضع يده فوق الحقيبة، ربما كان داخله يحترق وهو ينظر إلى هذا المشهد الذي يراه للمرة الأخيرة. اللعنة، على صخور قوبستان[1] البيضاء، اللعنة!...

متى كانت المرة الأخيرة التي زار فيها هذا المكان... تتذكر هذا أيضًا - انفلقت أمام عينيه من المنتصف بالضبط قطعة حجرية ...

جاء ضيفهما من مكان ما - ضيفه وضيف "كريموف"، كان هذا واحدًا ممن يتقاضى الرشوة منهما. يأتي مرة أو مرتين في العام إلى باكو، وكان يجلس خمسة عشرة أو عشرين يومًا في الحجرة المحجوزة له مسبقًا في أحد الفنادق الجميلة. جاء معه إلى هنا المرة الأخيرة. عقب حفل صاخب مملوء بمختلف أنواع الشراب والطعام عُقد ليلاً وليس نهارًا في فندق "انتورست" خرجوا من الفندق وركبوا السيارات، وقادوها مباشرة نحو هذا المكان - كانت ليلة مثل ليلة أمس بالضبط، وكان في هذه الليلة أيضًا يوجد طريق يشبه ذلك الحزام الفضي، وكذلك النجوم المنثورة في السماء كأنها مجموعة ... شربوا كثيرًا، وأكلوا كثيرًا، وركبوا السيارات المزينة ذات الكاسيت بغرض أن يستنشقوا هواءً نظيفًا نتيجة لشعورهم

---

(١) قوبستان: منطقة أثرية بأذربيجان بها صخور عليها رسومات للإنسان البدائي، وكذلك كهوف على جدرانها بعض الأشكال التي تجسد حياة الإنسان البدائي واستخدامه للرماح وكذلك صور بعض الحيوانات. وقد استفاد الكاتب من الصور في بعض مشاهد هذه القصة. (المترجم).

بثقل في رؤوسهم بسبب شرب الخمر، أم بغرض أن تطول الليلة،، وأخـــذوا فـــي المزاح وقطعوا طريقًا استغرق نصف الساعة. أرادوا أن يظهروا للضيف "صخور قوبستان". وأخذوا فتاتين أيضًا وخصصوا للضيف بشكل خـــاص "مـــارجو" التـــي تغوي الرجال من أول نظرة من خلال قامتها الممشوقة وشفتيها السميكة والمرهفة دفعوا لها الأجر مسبقًا. كانت "مارجو" تابعة لـــ "كريموف". وعندما نقول "تابعـــة" يعني أن الأشياء التي يمكن أن تحدث بين الرجل والمرأة مرحلة ســـابقة بالنـــسبة لهما، والآن "مارجو" شيء مثل ما يشبه الإكرامية من أجل الضيوف المميـــزين أو من أجل الشخصيات المهمة، والفتاة الأخرى كانت قد انضمت لهم حـــديثًا، ربمـــا كانت إحدى معارف عازف عود شهير أحضر عوده وقدم إلى هذا الحفـــل، كانـــت هذه الفتاة تبلغ من العمر حوالي سبعة عشر أو ثمانية عشرة عامًا، كانـــت جميلـــة وعيناها سوداوين، وتعلو وجنتيها الحمرة عندما تتحدث، ولا تتحمل المزاح الثقيل، فتدلي رأسها لأسفل من حين لآخر. يا ترى سوف تكون من نصيب مـــن! ولكـــن كانوا لا يعرفون هذا. في الحقيقة، لم يكن لهذا في تلك الليلة أية أهمية. تلك الليلـــة كانت فقط ليلة الضيف. كل ما هو موجود، كان يجب أن يكون من نصيب الضيف – تقارع الكؤوس وما يقال آنذاك، وقطع الكباب، والكونياك الفرنسي، والأطعمـــة التي أحضرها أحدهم من منزله، والأغاني التي تُعزف وســـط إلقـــاء النقـــود فئـــة العشرات والخمسة وعشرين، (كان أصل الضيف من "أوديسا")، وكذلك في نهايـــة الأمر الساعة السويسرية الغالية ذات الإطار الذهبي خلعها "كريمـــوف" مـــن يـــده وألبسها للضيف، وكذلك علبة السجائر الأمريكية، وغير ذلك – كل هذا كـــان مـــن أجل الضيف، كله هذا من أجل إرضاء الضيف. وعلاوة على ذلك، وفـــي نهايـــة المطاف، "مارجو" التي اغتسلت وتنظفت في المنزل وتزينت، لو كان ممكن، لكانوا وضعوها هي الأخرى في طبق ووضعوها فوق المائدة – ليت الـــضيف يرضـــى. أوقفوا السيارات في الطريق الذي يشبه الحزام الفضي، وتدافعوا في ظلام الليـــل – هل كانوا خمسة عشر شخصًا أو عشرين شخصًا، كان لا يتذكر بالضبط – صعدوا

بصعوبة لأعلى محدثين صخب وجلبة، وقفها كل اثنين أو كل ثلاثة وسط الصخور السوداء الضخمة، وقالوا لعازف العود الذي أحضر عوده هو الآخر معه، فليعزف. كان صوت العود مسموعًا في تلك الليلة المملوءة بالنجوم، في ذلك المكان البعيد جدًّا عن المدينة، والمرتفع جدًّا عن مستوى سطح البحر، كان صوت العود يشدو في الآفاق ويجلب الشعور بالسعادة والنشوة... غاص في التفكير وهو يستمع إلى ذلك العود في تلك الليلة، يا تُرى هل يعيش في هذه الكهوف الآن مخلوق أم لا؟ أخذ مصباح الإضاءة اليدوي من أحدهم، وأضاء تحت قدميه، وابتعد عن الناس كثيرًا، ورأى آنذاك لأول مرة صورة إنسان غريب واقفًا أمام حيوان ضخم في يده حربة!! آه، لعنة الله عليك أيها الرجل، هذا يشبه "سامسونوف". ولكن لسبب ما، وربما بسبب شعوره برعب مفاجئ، لم يتأخر كثيرًا في المكان الذي كان فيه، وعاد، وانضم إلى رفاق الطريق، واستمع معهم إلى العود. لم تكن زوجته نامت بعد عندما عاد في تلك الليلة متعبًا وشعر في معدته بثقل الفطائر والكباب الذي تناوله في الصباح الباكر، وكذلك بحرقة الكونياك الفرنسي، والنبيذ الذي شربه، وبسبب أن المصعد كان لا يعمل، صعد إلى الطابق الخامس فكان يتصبب عرقًا، كانت زوجته قد أغلقت الإضاءة في الغرف، وكانت تنتظر زوجها وهي تشرب الشاي في المطبخ وتقرأ الجريدة. لم تقل زوجته له أي شيء، لم تعاتب زوجها بسبب عودته للمنزل قرب طلوع النهار – كان أحد الأشياء التي اعتادت عليها منذ سنوات وتعلمتها هو عدم إفصاحها عن عدم رضاها عن أي شيء في هذا المنزل، الرجل له مكانته في المنزل كرجل، وكذلك المرأة. ولكن كان الأمر في هذه الليلة مختلفًا بعض الشيء، أخبرته زوجته أن حماتها التي ترقد في المستشفى في حالة حرجة وتسوء حالتها يومًا بعد يوم، كانت في حالة سيئة جدًّا اليوم، اشتكت من شيء واحد فقط هو لماذا لا يذهب لزيارة أمه، فالمرأة تريد أن ترى ابنها.... جلس في المطبخ بجوار زوجته، ووضع رأسه بين يديه، وتخيل أمام عينيه جدران المستشفى البيضاء، والممرضات اللاتي يرتدين زيا أبيض، والشفتين المائلتين

للزرقة لأمه التي ترقد تحت غطاء أبيض، كانت أمه تشعر بضيق في التنفس، وكانت الحشرجة الموجودة في صدرها تزداد يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة. وطبقًا لرأي الأطباء، العلاج يحتاج إلى معجزة. جلس على هذا النحو كثيرًا واضعًا رأسه بين يديه وهو يلهث، ودون أن يرد على شكوى زوجته، أخذ يسب ويلعن في نفسه جميع أطباء المستشفى الذي يرقد فيها أمه، وجميع أطباء مستشفيات كل الدنيا، ليس من العدل أن تدفع كل هذه الأموال للأطباء وللعلاج والدواء، ولا تستطيع إنقاذ أمك! بعد ذلك تولدت فكرة غاضبة في ذهنه الذي لان من المشروبات الكحولية، لم تجد هذه المرأة الوقت المناسب للموت! لأن الضيف كان يجب أن يجلس عشرة أيام أخرى في باكو، ولو حل بالمرأة خلال هذه المدة أي مكروه، سوف يضطر أن يترك الضيف، وينشغل بمراسم العزاء والدفن. أما ترك الضيف فهو أمر مستحيل، ليس من أجل قضاء الأيام والساعات مع الضيف في الأكل والشرب والتلذذ بالنعم، بالطبع ليس الأمر كذلك، كان يجب على الضيف وعليه وعلى "كريموف" أن يؤثروا على شخص رابع ويجبرونه على أخذ الرشوة. لأن تأمين المستقبل، وراحته وكذلك سعادة العديد من الناس مرتبطة بأخذ هذا الشخص الرابع لتلك الرشوة ... غلبه النوم في المكان الذي جلس فيه من المطبخ وهو يفكر في هذا وفي أشياء أخرى شبه هذا. ليس لديه علم كيف اصطحبته زوجته إلى حجرة النوم، وخلعت ملابسه، وجعلته يتمدد على السرير....

كانت هناك أم تُرضع صغيرها في أحد منازل باكو ذات الطابق الواحد والسقف المسطح، كان اللبن يخرج من فم الرضيع، وكان هناك شخص رياضي يقف بجسمه الضخم ولحيته السوداء في الرواق الضيق الخاص بذلك المنزل. وضع على الأرض الخُرج الثقيل المهدب الأطراف الموجود على ظهره، وكان يقول، "إنني قادم من الجبال، أيها الأولاد". فبكى. وانتحب كالطفل الصغير في صمت متأسفًا. كان في السابق يوجد شحاذ في أحد شوارع باكو الضيقة في سنوات القحط أثناء الحرب، كان رجلاً مسنا نحيف البدن ودائمًا متسخًا. كان يقترب من

الناس دون أن يقول أي شيء، ويبكي منتحبًا كالطفل الصغير دون أن يرفع صوته ويمد يده، كان يطلب الصدقة، وبتذكره هذا الشحاذ الذي جلبه الماضي البعيد إلى ذهنه والذي هو بعيد المنال الآن في سنوات القحط، كان يرغب في التعرف على السبب الأساسي الذي يؤرقه منذ الدقيقة الأولى التي نزل فيها من التاكسي لليلة أمس في الظلام وصعد إلى هذا المكان - كان هذا السبب يتلاعب أمام عينيه منذ فترة كظل النسر وقت الظهيرة، كان يتدحرج فوق الأرض وعلى الحجارة، ولا يثبت في مكان واحد، ولكن كان يجب أن يثبت حتى يمسكه، وكان يجب عليه عاجلاً أو آجلاً أن يعرف السبب، ربما في وقت ما سوف تزاح الستارة الغامضة قبل الخطوة النهائية، وسوف يتضح له هذا السبب. الله يُلهم الصبر لجميع الأحياء! سواء الأحياء الموجودين في العالم الآخر، أو الموجودين في هذه الدنيا".

اعتقد أنه أغمض عينيه ثانية، لأنه أغمض عينيه عدة مرات مبكرًا بعد طلوع الشمس - كان يخاف من النظر إلى الضوء. كان الأمل الذي ينتظره يزداد في الضوء، وينصهر في القلب كالرصاص، حتى أنه كان يُخيل إليه من حين لآخر أنه سوف يسمع صوت أخيه في نفس اللحظة، وسوف تزول عنه كل المتاعب والعذاب - كما يزول حلم صعب يمكن أن يقتل الإنسان -عقب استيقاظه من النوم. ساعدني يا الله بمدد من عندك!... ولكن فهم أنه لم يغمض عينيه - اسود الجو تمامًا، كما أنه رأى لسبب ما فقط الظلام خلال مدة قصيرة أما عيناه المفتوحتان، وكأن لديه عينين أخريين في مكان ما منفصل عن جسده، وفُتحت تلك العينان وركزت النظر في الظلام. وكأن هذا الإحساس الغريب غير المفهوم مثل مغناطيس ضخم جمع كل الخوف والذعر والقلق الموجود بالدنيا. وركزه في قلبه مثل العدسة المحدبة التي تجمع ضوء الشمس في نقطة صغيرة، خُيل إليه أنها هنا - في صخور قوبستان - قد تواجد في وقت ما في المكان الذي يجلس فيه الآن، وأن الحالة التي عليها حاليًا قد تكررت قبل ذلك في وقت ما. لا، لم يُخيل إليه ذلك، كانت هذه هي الحقيقة، هذه حقيقة لا يمكن إنكارها. أغمض عينيه بشدة، وأحنى

رأسه، ثم احتضن ركبتيه ووضع رأسه بين ركبتيه. سمع صوتا يشبه الرعد، ففهم أنه يستمع إلى دقات قلبه، لا تستطيع قطعة لحم في حجم قبضة اليد أن تحفظ روحا في بدنين.

ليت النهار يطلع عليه سالمًا من هذه الليلة، ليت أخوه يأتي صباحًا، ليت لم يحدث له أي شيء، فلترحمني يا إلهي، لا تتركني، لا تتركني، لا تتركني، لا تتركني....

وفي الليل اهتزت من جديد المياه المجمعة منذ ملايين السنين في أحد مستنقعات الكرة الأرضية، وقدم صوت مُخيف وخانق للبحر البعيد، وسمع من جديد صوت الحيوانات وسط الحجارة، ونزلت لأسفل النجوم المنثورة مجموعات في كبد السماء، وتفاقم كل نجم منها حتى صار في حجم حجر أصم، وتدفقت قطرات باردة ضخمة من بريق كل منهم، تسمر وتمدد على جنبه، تتبعث دائرة ضوء مستديرة من شعاع عينين محدقتين لشخص أمسك بيده مقبض الحقيبة، كانت الطيور تتجمع على هذا الضوء أكان الوقت ليلاً أم نهارًا؟ كان لا يعرف ذلك، ولكنه كان في الظلام، وكان يوجد في هذا الظلام طريق يشبه الحزام الفضي يمتد ويصل إلى جنوب أذربيجان، وكان يوجد في هذا الظلام امرأة عجوز وضعت تحت قدميه وعاء من محشي ورق العنب في الساحة الموجودة بين الطابقين الرابع والخامس، ومسحت عرقها براحة يدها؛ كان في هذا الظلام تجري عملية البحث عنه في منزل ذى ثلاث حجرات من منازل باكو، وكان أخوه الأصغر الذي غشاه اليأس وزوجته يحتضن بعضهم البعض ويبكيان في المطبخ... أكان الوقت ليلاً أم فجرًا أم نهارًا – كان لا يعرف ذلك، كان الذي يعرفه فقط هو أنه من الآن وصاعدًا يجب أن تترحم الدنيا كلها على السيد "مُقبل"، وأن يُوزع الإحسان الذي يُوزع على روح جميع الموتى على روح السيد "مُقبل"، لأنه لم يأت أحد مطلقًا ليبحث عنه في

هذا المكان، أي أن الأمر وقع وانتهى، كما قال ذلك السيد "مُقبل" من قبل. اللهم ارحم جميع أهل القبور، والسيد "مُقبل".

"أيها الفتى، نهاية المال الحرام وخيمة، راجع نفسك"

أليس هذا هو السبب الرئيس؟ ..

فتح الحقيبة. وكانت هناك ثماني طلقات، إحداها جاهزة في المسدس. أخرج المسدس، وقال بصوت عالٍ،

-قالوا لن تستطيع أن تأخذ المسدس معك!

وضع مقدمة المسدس الباردة في فمه، وضغط على الزناد.

في تلك اللحظة أكان الوقت ليلاً أم فجرًا أم نهارًا، كان لا يعرف - في تلك اللحظة اخترقت الرصاصة الهواء بصوت صفير الرمح الذي كان ينتظر دوره في دائرة الضوء المنعكسة من شعاع عينيه، واتجهت نحو مكان بعيد، وفي تلك اللحظة تنهدت امرأة عجوز ملفوفة في كفن تحت التربة السوداء في مقابر المسلمين بباكو لدرجة أن الجثث الأخرى سمعتها، وفي تلك اللحظة صاح أشخاص عراة من الكهوف الموجودة في المكان، احتشدوا عند العتبة وهم يُحركون البلاطات الحجرية فوق رأسهم، وحملوه فوق أذرعهم، وذهبوا به إلى أحد الكهوف، ومدّدوه بجوار الجرحى الآخرين عند حافة الموقد المشتعل في هذا الجو البارد. ترطبت التربة من بول ودم الإنسان. وأصبحت لينة.

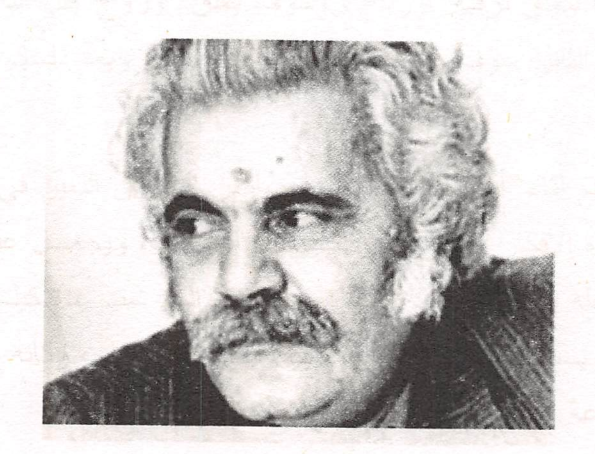
أما في أسفل هذه المنطقة، فكانت كلاب البحر ترطّم ذيولها بالأمواج في المياه السوداء بأحد المستنقعات الضخمة بالكرة الأرضية، وكانت تصدر صوتًا بأسنانها الحادة. كانت مياه البحر حالكة السواد كأن هذه المياه جُمع بداخلها ظلام جميع الليالي المأساوية لمليون عام لاحق ومليون عام قادم. تراخى بسبب حرارة الموقد ومن ألم جُرحه، وفي النهاية نسي كل شيء للأبد، وفهم أنه لو بقي حيًّا

فسوف يكون أحد إخوانه وأخواته الذين يغنون أغنية حزينة في الكهف وتتـضارب عظامه البيضاء مع بعضها البعض، ولو مات – فسوف يلقون به من هذا المرتفـع ومن هذه الصخور الضخمة الموجودة تحت قبة السماء إلى البحر الذي أصبح قريبًا جدًا الآن.

لأن كلاب البحر الموجودة في تلك المياه السوداء تنتظر ضحية.

(٧)

قصة "لا بد أن ينفطر قلب"



الكاتب/ فرمان كريمزاده

(١٩٣٧ - ١٩٨٩م)

كاتب وسيناريست أذربيجاني شهير. عضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام (١٩٦٨م). له العديد من الأعمال الأدبية مثل "العرض الأخير" (١٩٦١م)، و"عمرنا – يومنا" (١٩٦٣م)، و"التمثال يتحدث" (١٩٦٥م)، وكذلك له العديد من الروايات التاريخية التي تدخل ضمن النماذج الكلاسيكية للنثر الأذربيجاني في القرن العشرين مثل روايات "الفترة الثلجية"، "جسر جودفرين"، و"حرب تشالديران". ترجمت أعماله للعديد من اللغات. قام بتأليف العديد من سيناريوهات الأفلام الإبداعية والوثائقية.

قصة "لا بد أن ينفطر قلب"

للكاتب / فرمان كريمزاده

لم يكن العمل في حجرة المعاطف (*) أمرًا هينًا. كانت هذه الإدارة عبارة عن معهد كبير. في اليوم الواحد يأتي ويذهب ألف شخص. ويجب عليك أن تأخذ معاطفهم جميعًا وتعلقها، علاوة على أنه يجب أن تقول لهم كلمات ودودة حتى لا يغضب منك أحد. كان معظم الطلاب قادمين من القرى، وبعيدين عن أمهاتهم، وأخواتهم...

تقدمت "الخالة أمينة" للعمل في هذا المكان وهي على قناعة بهذا الأمر. كانت المرأة التي تسبقها في هذا العمل شابة متينة، فقالت لها هذه الشابة:

-أنت امرأة عجوز، لن تستطيعين القيام بهذا العمل. عندما يأتي الشتاء، سوف ترين كل شخص يرتدي معطفًا طويلاً. وعندما تستلمينه منه، تعتقدين أنه مثل سندان الحداد من ثقله، يملخ ذراع الشخص ملخًا. قاتل الله مثل هذا العمل، فهذه ليست مهنة أصلاً.

(*) يقصد بحجرة المعاطف حجرة أو مكان يكون موجودا في مدخل معظم الإدارات أو الشركات يسلم الزوار أو العاملون بهذا المكان معاطفهم وقبعاتهم أو أي شيء يحميهم من شدة البرد، وذلك لأن داخل المبنى يكون مجهزا بتدفئة مركزية غالبًا، ويتم إعطاء رقم وتُعلق هذه المُتعلقات في شماعة بهذه الحجرة، وعند مغادرة المكان يتم تسليم الرقم للعاملة التي تعمل هناك حتى تعطيه متعلقاته. (المترجم)

لم تصدق المرأة هذا في ذلك الوقت. ولكن رأت بعد ذلك، أنه بالفعل الأمـر كما قالت، وكانت تحمل هذا الثقل بصعوبة بالفعل. كانت دائمًا تأتي إلـى العمـل عندما ترتفع الشمس في كبد السماء، وتستلم معاطف طلاب الفترة المسائية وتحتفظ بها. في خلال يوم واحد سأل الطلاب عن اسـمها وعرفـوه. وبمجـرد أن يـرن الجرس، يحدث ازدحام أمام حجرة المعاطف لدرجة أنه لا يسمع أحد ما يُقـال، ولا يمكن التحرك من كثرة الناس.

-أيتها "الخالة أمينة"، هذا المعطف الأسود لي.

-أعطيني هذا الأزرق، أنظر إليه.

-أسرعي، تحركي بسرعة، أصدقائي ذهبوا.

كانت المرأة لتفقد نفسها وسط هذه الأصوات المتداخلة، وتلتفت هنا وهنـاك عبثًا. أما هذا اليوم فقد أربكوها ربكة شديدة. فسقط معطف بني اللون جديد تمامًـا دون أن تقترب من يدها على الأرض. صاح صاحبه من بين الطلاب:

-لا تقدرين على هذا العمل، لا تعملين. مـاذا يحـدث لـو لـم تـشتغلين أبستموتين؟

ارتعد جسد "الخالة أمينة"، وغشيها إحساس بالبرودة لم يقل لها أحـد حتـى الآن كلمة صعبة مثل هذه. لا زوجها، أو بناتهـا، أو ابنهـا... عنـدما اسـتدارت ونظرت خلفها، كان غلام مكشوف الرأس، وشعره منثور فوق عينيـه قـد قفـز، وتخطى الحاجز الخشبي، وأخذ المعطف الذي سقط علـى الأرض، وهمـس إلـى "الخالة أمينة":

-اطمئني! سوف أعطيه الرد اللائق به.

احتضن المعطف وسار، وتوقف أما الشاب الذى كان يبـدو منـه الجـزء العلوي فصاح قائلاً:

-لمن هذا؟

-اسأل، لمن هذا اللعين؟

فقال غلام أزرق العين، وجهه مملوء بالبثور، وشعره منتصب وخفيف:

-لا تنظر كالخروف الميت، أعطني هذا.

فألقى المعطف فوق صاحبه.

-وقح، في مقام أمك.

وبخ جميع الطلاب صاحب المعطف.

-"سراج" يقول الصواب، يا أخي.

-امرأة عجوز...

وتعالت أصوات في الرواق تقول:

-يجب أن تفسحوا لها المجال، حتى تقوم بعملها هي الأخرى.

أما سراج فقد وضع الأرقام في الشماعات، وبدأ يعطي المعاطف والبلاطي لأصحابها.

فرغت الشماعات تمامًا. وذهب الطلاب وهدأ المكان. وبقي شخصان، أحدهما "الخالة أمينة"، والآخر "سراج". كانت المرأة لا تزال تحافظ على توازنها.

-يا بُني، لو قبلوا استقالتي اليوم، سوف أترك العمل. لم يهينني أحد مطلقًا حتى الآن، كي أغض الطرف الآن عن مثل هذا الكلام الصعب.

وضع "سراج" كتبه تحت إبطه دون أن يتكلم، وانتصب.

-أيتها "الخالة أمينة"، هو خسيس. مكروه فيما بيننا. لا يستذكر دروسه جيدًا، وليس له رفيق أو صديق، وسليط اللسان. لا تلقين بالاً لكلامه. سوف نحاسبه نحن بأنفسنا.

رأته المرأة وهو يذهب، ففكرت قائلة:

-أشكرك يا بني، أطال الله في عمرك. "كلام مثل هذا الشخص يكون ثقيلاً على النفس، فإن كان هذا الكلام صدر من ذي شأن، لما أثر كل هذا التأثير على النفس".

وصل "سراج" عند الباب، فنادته "الخالة أمينة" من الخلف:

-يا بُني، أين معطفك؟

تلعثم قائلاً:

-إنه في مبيت الطلاب، أسرعتُ فلم أستطع أن أرتديه.

-يا بني، لا تغتر بشبابك. لا أمان لجو "باكو" خاصة هذه الأيام، طلعت الشمس المحرقة في الصباح، أما الآن فالعاصفة الثلجية تجتاحها.

فكر "سراج" قائلاً: "كانت أمي أيضًا تستخدم مرارًا وتكرارًا كلمة "العاصفة الثلجية"، ثم فتح الباب الزجاجي الضخم، وخرج إلى الشارع. كانت الرياح ترتطم بالجدران، فتحدث صوت صفير، وتنثر الثلج في الشوارع، وكانت تشبه الدقيق الذي يتناثر من المنخل في ضوء السيارات.

* * *

تكدس الثلج الذي يتساقط منذ أمس في أركان الشوارع. أما الثلج الذي كانت تطأه الأقدام على الأرصفة، فكان يتجمع بحواف الجدران. طلعت الشمس من وسط السحب المتناثرة ومع ذلك كان الصقيع القارس يجعل العين تدمع.

نزل "سراج" من الترولي باص، ودخل بخطى سريعة إلى الحديقة. عبر بجوار التماثيل التي تكومت عليها الثلوج. كان البريق الذي ينعكس من الثلج

الموجود في حمام السباحة المقابل له يُزغلل عينيه. كان يشعر بالبرد. حشر يديه الاثنتين في جيب البنطلون، ووضع الكتب التي لفها بجريدة تحت إبطه.

"مشكلتي هي هذا الشتاء فقط. سوف أذهب في الصيف إلى الأراضي الخصبة، وأعمل وأكسب، وأرتدي ملابس جيدة، ماذا لو حدث هذا؟ لستُ عاجز اليدين أو القدمين؟"

التحق "سراج" بالمعهد حديثًا. كان يدرس في الفرقة الأولى. لم يكن لديه أي أحد في القرية سوى أحد أقاربه من القرابة البعيدة. لذلك كان لا يستاء من أحد مطلقًا، ولا يشتكي أحدًا على الإطلاق.

رأى عندما وصل إلى المعهد أن الغلام صاحب المعطف البني ينزل من التاكسي.

كانت الفتاة السمراء التي تعمل في الوردية الصباحية بدلاً من "الخالة أمينة" تتصفح صحيفة المعهد في يدها:

-أيتها الخالة، انظري، ما شاء الله، لقد أُدرجت له بعض الأشعار.

-لمن؟

-لـ "سراج".

-يا بُنيتي، هل لديه موهبة قرض الشعر أيضًا؟

-أليس للشخص الذي يترعرع فوق قمة تلك الجبال، ووسط الورود والأزهار وحي وإلهام؟ ولكن يُقال يا "خالة أمينة" أنه ليس له أحد.

-يا بُنيتي، سيكون لمثل هذا الشخص مستقبلا باهرا. اقرئي أشعاره فلنراها...

بدأت الفتاة في قراءة الأشعار بصوت لطيف، ولكن توقفت ووكزتها بمرفقها.

-ها هو، انظري، جاء ثانية بسترة فقط.

نادت عليه "الخالة أمينة".

أما "سراج" فقد تظاهر بعدم السماع. لقد عرف أنها سوف توبخه بسبب عدم لبس معطف - صعد السلالم مسرعًا واختفى عن الأنظار.

* * *

ترقبت "الخالة أمينة". عندما يرن الجرس، ربما يكون أول من يخرج ويذهب، كان يضع الكتب تحت إبطه كالعادة، ويسير منكمشًا داخل السترة. رأته في تلك اللحظة، ونادت عليه، فالتفت الغلام واقترب.

دعته إلى حجرة المعاطف قائلة:

-ادخل يا بني، تعال، تعال هنا.

وضع "سراج" الكتب فوق الحائل الخشبي، وعبره، ثم أمسكت "الخالة أمينة" بمعطف سميك أسود اللون أمامه.

-ارتدي يا بني.

نظر "سراج" إلى وجهها متعجبًا.

-ما هذا، يا "خالة أمينة"؟

-هذا لك، يا بني، ارتديه.

أراد الغلام أن يبتعد قائلاً:

-لا، هذا ليس لي.

ولكن أمسكت "الخالة أمينة" بذراعه بحنان أم وأدارته للخلف.

-إن لم تأخذه، سوف أغضب منك يا بني.

تردد "سراج"، فقال من أجل أن يُخفي خجله:

-إذا، قولي ثمنه.

-عندما تعمل، رد لي ثمنه من أول راتب.

-هذا كلام غير معقول يا "خالة أمينة".

البسته المعطف وهي تقول له:

-ألبس، وعندما يكون لك القدرة، حينئذ تدفع ثمنه.

كان للخالة "أمينة" ابنتان وولد. زوجت ابنتيها، وكذلك ابنها. كانت تعيش مع زوجها الذي أُحيل للتقاعد، وذلك في الطابق السفلي بالمبنى ثلاثي الطوابق الموجود بالقرب من المعهد. قبل شهرين، أصيب زوجها بسكتة قلبية أثناء حديثه وضحكه في منزل القرية. أما "الخالة أمينة" فلم تذهب للعيش مع ابنها، وقالت:

"من الصعب معرفة طباع زوجة ابنها، وعلاوة على ذلك، لماذا أُضيق عليهم منزلهم؟ فمنزلهم في الأصل حجرة واحدة. فلا أُضيقه عليهم.

ولم تر من الملائم أيضًا أن تسكن مع بناتها.

كان المعطف الذي ألبسته لـ "سراج" هدية أحضرتها إحدى ابنتيها لأبيها. لم يلبس الرجل المعطف مطلقًا. كان هذا المعطف بعد موت الرجل معلقا بقلب "الخالة أمينة"، وليس بالدولاب. كانت تفكر قائلة: "جاء المعطف لعمل الخير، وليس جيدًا أن يبقى وسط ملابس المرحوم".

أما بعد أن ودعت "سراج" فكرت:

"كم كان جيدًا ما حدث! كان عمل خير".

* * *

دعا الطالب أزرق العين وذو الوجه المملوء بالبثور "سراج" بإصبعه إليه:

-تعال، وشاهد بنفسك، وانظر خالتك "أمينة"، ما أصلها؟

لم يفهم "سراج" ماذا يقول. كانت عينه تنظر إلى الثلج الموجود أمام النافــذة، وفكره في مكان آخر.

-خالتك "أمينة" تسرق، خالتك "أمينة" تنشل.

-ماذا تقول؟ من أين جلبت هذا الكذب؟

أمسكت أصابعه الطويلة برسغه كالأفعى، وسحبه ذاهبًا بــه نحــو حجــرة المعاطف.

فتح الطالب مملوء الوجه بالبثور الباب فجأة. فرفعت "الخالة أمينــة" التــي كانت تضع على ركبتها معطفًا رثًا رأسها بهدوء ونظرت.

التفت نحو "سراج". ولعبت أصابعه التي تشبه الحية أمام عينه:

-لا تقل بعد ذلك لم أر. أنت ترى هذه العجوز؟ تعبث بجيــوب الطــلاب. أجلس وأكتب فيها شكوى.

نظرت "الخالة أمينة" إليهما بهدوء. غرست الإبــرة ولمــع الكُــشتُبَانُ فــي أصبعها، ويُعقد الخيط الأسود من داخل القماش، فيخرج، ويُشد.

جلس "سراج" بجوار المرأة بمودة ووضع ذراعه على كتفها.

-ماذا تعملين يا خالة؟

ظهرت ابتسامة ودودة على وجه المرأة.

-يا بني، معظم الطلاب يأتون من القرى. ولا يعيــشون مــع أمهــاتهم أو أخواتهم. أحيك الأماكن الممزقة من ملابسهم.

نهض "سراج" على قدميه، وأمسك الطالب ذي العين الزرقاء من تلابيبه، ودفعه نحو الرواق.

-وغد وابن وغد!

وضع يده في جيبه، وذهب نحو مكان الشماعات.

"أقول لك يا "خالة أمينة"، إنني أشكرك، لقد أصبحتِ أمي. لقد انتشلتني من البرد. أما الآن خذي، أعطيك ثمن المعطف، مكسبي الجديد. أعطوني هذا المبلغ بسبب أشعاري. وإلا لا أستطيع ارتداء المعطف. كأنني أرتدي نارًا على جسدي".

أما "الخالة أمينة" فقد وضعت النظارة على عينيها، وكانت تنظر في صحيفة المعهد.

-الخالة أمينة...

رفعت المرأة رأسها ونظرت. كأنها رأت أعز الناس لها.

-فداك نفسي، يا بني، لم تنس خالتك، ونظمتَ لأجلها شعرًا.

-أينسى الإنسان أمه؟

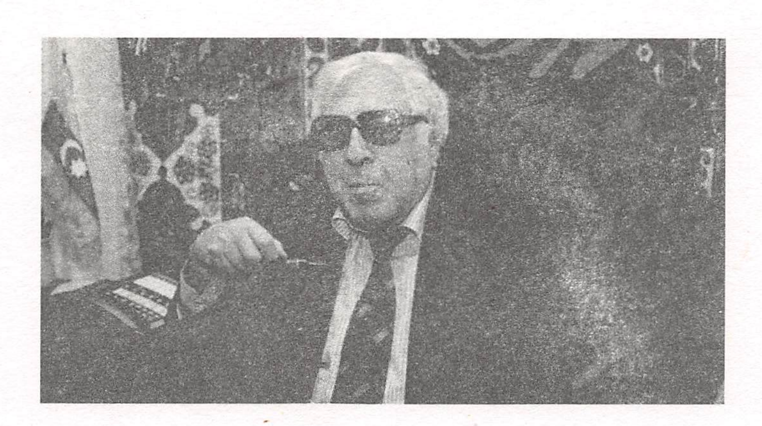
-أشكرك يا بني، أطال الله في عمرك.

وضع "سراج" يده في جيبه، وأخرج النقود ومدها نحو "الخالة أمينة". ولكن ظلت يده معلقة في الهواء. انهمرت الدموع التي اغرورقت بها عيني "الخالة أمينة" وتبدو من خلف زجاج نظارتها كأنها حبات عنب. أعاد "سراج" يده في جيبه يائسًا، وعاد. كان يهمس في أذنيه صوت مكتوم:

"جميع أبناء القرى، ليس بجوارهم أمهاتهم أو أخواتهم... أيجب أن ينفطر قلب الإنسان عليهم أم لا ..."

(٨)

قصة "الذعر"



الكاتب/ آنار

"١٩٣٨م "

حصل على لقب "كاتب الشعب الأذربيجاني"، مترجم وسيناريست ورئيس اتحاد الكتاب الأذربيجانيين، وحصل على لقب "خادم الفن القدير الأذربيجاني". له العشرات من الروايات والقصص القصيرة والطويلة، والكتب مثل "طريق العمر"، والعلاقة"، و"الذعر"، و"حكاية السلطان الحسنة"، و"غرفة الفندق"، و"الليموزين الأحمر"، و"العائلة الجورجية"، و"ذكرى دانتي"، و"أنا وأنت والهاتف". ترجمت أعماله إلى معظم لغات العالم. قام بكتابة سيناريوهات أكثر من عشرة أفلام إبداعية ووثائقية. حصل على جائزة الدولة الأذربيجانية، كما حصل على العديد من الجوائز المحلية والعالمية. حصل على وسام "الشهرة" ووسام "الاستقلال" في أذربيجان بعد الاستقلال.

قصة "الذعر"

للكاتب / آنار

أول صرخة ربما ...

من ذعر الأيام القادمة...

القبر...

مثوى لآلام الدهر...

هدوء... ظل بارد

الشاعر الأذربيجاني "رسول رضا"

كان الطبيب "أوروج" قانعًا بحياته. لم يكن يشكو من اعتلال بصحته. كـــان يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، ولم يصب بالزكام قط. كان هادئ البال فيمـــا يتعلق بأسرته. كانت زوجته "باكيزا" تكبره بست سنوات، وكانت ربة منزل رائعة؛ فمنزلها دائمًا مرتب ومنظم، والأطعمة التي تطهيها لذيذة، وهي نفسها قنوعة، قليلة الكلام، متواضعة. لم تزعج زوجها مطلقًا بقولها "أين ذهبت؟ من أين أتيت؟ جئـــت مبكرًا، جئت متأخرًا".

كان "أوروج" يستيقظ من النوم باكرًا، فيجد في المطـــبخ الـــشاي، والبـــيض المسلوق أو المقلي، والخبز، والجبن، والزبد معدًا من أجله. وقد تم الانتهاء من كيّ قميصه، وبدلته، ورابطة عنقه، ونظف حذاؤه، وإن وجد أزرة ملابسه أو معطفه قد تراخت من مكانها بعض الشيء، يتم تثبيتها من جديد.

كان راضيًا كذلك عن ابنه، حيث أنهى الثانوية العامة وحصل على الميدالية الذهبية؛ فالتحق بالجامعة بمجهوده (بالطبع قد ساعده "أوروج" في ذلك حتى ولو قليلًا). ومن الفرقة الثانية، انتقل إلى المعهد الطبي الثاني بموسكو بمساعدة بسيطة من "أوروج". كان يتحدث مع والده وأمه هاتفيًا كل أسبوع، وكان يرسل إليهما رسائل تهنئة في الأعياد. وكان "أوروج" يرسل إلى ابنه في مطلع كل شهر المبلغ الذي حدده واتفق عليه مع ابنه.

كان يحب عمله خاصة وأنه من الأطباء النفسيين المشهورين بالمدينة. اعتاد غرائب المرضى منذ زمن، كما اعتاد تجاوزاتهم التي تأخذ أشكالًا غريبة، فكان لا يتضايق منها، وكان يُسر عندما يستطيع مساعدة أي شخص، وكان لا يأنف من الأمراض العضال التي لا أمل فيها. فعلاج مثل هذه الأمراض لا يتعلق به ... بالطبع الأمر به جزء مادي، وكما كان الطبيب "أوروج" لا يشعر بتأنيب الضمير بسبب أنه يحقق رفاهيته على حساب تعاسة الآخرين، هذه هي مهنته!

كان متخصصًا يتقن مهنته وتخصصه جيدًا. فأمر طبيعي أن يتقاضى أجره الحلال مقابل تخفيفه الآلام عن أحد أو كان سببًا في شفائه أو علاجه أو حتى فحصه للتأكد من حالته أميؤوس منها أم لا؟ كان المقابل هذا والذي يعتبره حلالاً يظنه أمرًا عادلاً حتى ولو كان أكثر من راتبه الرسمي بكثير. فقد كانت قيمة اسمه وخبرته وعلمه الذي اكتسبه أكبر بكثير من الأطباء الآخرين وزملاء العمل الذين يتقاضون مثل أجره. والحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن المرضى، أو بمعنى أدق أهل المريض، يبحثون عن الطبيب "أوروج" وليس أحدًا غيره، ويسعون للعلاج عنده، ويكونون على أتم الاستعداد لدفع أي مبلغ من أجل ذلك. بالإضافة إلى أن هناك يومين في الأسبوع يستقبل الطبيب "أوروج" المرضى في منزله مساءً، بالإضافة إلى ساعات العمل في المستشفى. وخلاصة الكلام، لم يكن لدى الطبيب "أوروج" أي ضيق مادي في الخمسة عشر عامًا الأخيرة؛ فقد اشترى شقة بها أربع

غرف في منزل تطل نوافذه على البحر، لقد جدّده تمامًا، وغطى أرضيته بباركيه غالٍ ومزركش، وجعل بابه ونوافذه من خشب شجر البلوط (كما جعل أيضا الأبواب الموجودة بين هذه الغرف مستديرة الشكل)، وزيّن السقف والحوائط، واشترى أثاثًا أجنبيًا لكل غرفة وللمطبخ وللشرفة. وأضاء الغرف والممر بأباجورات كريستالية، وبنجف عالي الإضاءة. كان يوجد ثلاثة تلفازات، وأجهزة فيديو متعددة الأنظمة (أحدهما في حديقة المنزل)، وأجهزة تشغيل اسطوانات الليزر. كان يصطحب معه "كاميرا فيديو" في السفر للخارج. كان لديه سيارة يقودها بنفسه ماركة "فولجا" بمسجل وسماعات "استيريو"، ولديه أيضًا منزل مصيفي في منطقة "ماردكان" الشاطئية.

ومع ذلك بدأت جميع المتاعب في هذا الصيف. أو على وجه التحديد، كان كل شيء على ما يرام قبل شراء هذا المنزل الذي اشتراه قبل خمس سنوات. كان مالك هذا المكان قبل "أوروج" هو طبيب أرميني هاجر من "باكو" إلى "موسكو" عقب أحداث عام ١٩٨٨ الشهيرة [١]. كان بيت الأرميني مكونًا من طابق واحد فزاد عليه "أوروج" طابقًا آخر وشرفة كبيرة. ووسّع الحمام، وأرفق به "ساونا"، واشترى أثاثًا جديدًا.

كان يمكث مع "باكيزا" في بيته الصيفي هذا خلال شهري يوليو وأغسطس، وكان ابنه الذي يدرس في "موسكو" في الإجازة الصيفية يقضي أسبوعًا أو اثنين في هذا البيت. أما بقية أشهر السنة، فكان "أوروج" يذهب إليه وحده يقضي نهاية الأسبوع. وعندما يُقال إنه يأتي "وحده"، يعني أنه ...

---

(١) قامت "أرمينيا" في عام ١٩٨٨م بتحريض ودعم مجموعة من الانفصاليين في إقليم "قره باغ" الأذربيجاني المحتل حاليًا من قبل أرمينيا، والقيام بحرب عدوانية وتطهير عرقي بهدف ضم هذا الإقليم إلى أرمينيا، وتم بالفعل تهجير الأذربيجانيين المقيمين فيه إلى أذربيجان. (المترجم)

كان يذهب إلى منزله قبيل المساء يوم الجمعة بعد استقبال آخر المرضى، فيغير ملابسه، ويركب سيارته، ويتجه إلى منزل المصيف. في آخر ثلاث سنوات بعد أن بدأت علاقته مع "أوفيليا"، كانت تأتي له في منزل المصيف أيام السبت – مرة كل أسبوعين – كما اتفقا على ذلك مسبقًا. كانا يقضيان طيلة اليوم معًا. كانت "أوفيليا" تقول لوالديها اللذين يعيشان معها "عندي عمل ليلي"، وتبيت عند "أوروج". في بداية الأمر، كان "أوروج" يشعر بتأنيب الضمير لأن الأطعمة التي أعدتها له "باكيزا" بنظام وترتيب – اللحم المحمر، البطاطس، المحاشي أو الفراخ، الخضرة، المخلل، الخيار والطماطم، حتى الفاكهة – يأكلها مع "أوفيليا". كانا يشربان الخمر والمسكرات. وبعد أن اعتاد على هذا الأمر، كان لا يشعر بأي تأنيب ضمير. كانت "أوفيليا" تستيقظ قبله يوم الأحد صباحًا، وتُعد الشاي، ويتناولان طعام الإفطار معًا. ثم بعد ذلك تمضي "أوفيليا" وتذهب. وكان "أوروج" يأخذ الفأس ويسوّي الأرض حول جذور أشجار العنب، ويأخذ الخرطوم ويروي الحديقة.

كان رفاقه يأتون إليه حوالي الساعة الثانية عشرة أو الواحدة. وفي الوقت الذي يُعد السائق "مهدي" أسياخ الكباب الذي وضعه في التتبيلة من المساء، ويُوقد الموقد، كان "أوروج" ورفاقه يشربون النبيذ في "الساونا"، ثم يخرجون ويلعبون النرد. ثم بعد ذلك يتناولون قطع الكباب، ويمدحون بعضهم البعض بكلمات بليغة، ويظلون حتى المساء يتبادلون المديح، حتى يتعب الرفاق، فيركبون السيارة مع "مهدي"، ويتجهون إلى "باكو". أما "مهدي" فكان يُشغل جهاز الفيديو الموجود بالمصيف، ويشاهد الأفلام البوليسية الأمريكية.

عندما كان "أوروج" يعود إلى المدينة صباح الاثنين يشعر بأنه استراح تمامًا خلال هذين اليومين، وأنه ابتعد عن جميع الضغوط العصبية، وأنه مستعد لمواجهة توترات أسبوع جديد. كان يُغير ملابسه في المنزل ويذهب للعمل ويقضي أسبوعًا جديدًا طبقًا للجدول الثابت يومًا تلو الآخر؛ العمل في الصباح، واستقبال المرضى

في المنزل بالمساء يومي الاثنين والثلاثاء، ويوم الأربعاء مساءً يلعب القمار في منزل "مهدي"، أحيانًا يغلب، وأحيانًا يخسر. كانوا لا يلعبون على مبالغ مالية كبيرة، فكانت الخسارة شكلية وكان يذهب عادة يوم الخميس لأداء أحد الواجبات الاجتماعية، حتى أنه أحيانًا يذهب إلى مكانين أو ثلاثة؛ فأصدقاؤه كثيرون، وكما يقال: أداء الواجب دين.

كان أصدقاؤه كثيرين، ورفاقه قلة، كان نادرًا ما يتحدث عن السياسة ربما مع رفيقين أو ثلاثة. كان اهتمامهم هو مهنتهم والإمكانيات المادية التي توفرها لهم تخصصاتهم، وكذلك رفاهية أسرهم، .علاوة على "النساء". كان جميعهم لا يزالون رجالاً في فترة الفتوة، فاستمتاعهم بنشوة الحياة ورغبتهم جميعًا في الابتهاج بالحياة أمر طبيعي. كانوا يجتهدون في الابتعاد عن الأحداث الاجتماعية والسياسية المتوترة المتلاحقة وراء بعضها البعض. لم يكن أحد منهم يثق في ساسة السلطة أو المعارضة الذين يتغيرون بسرعة. فكانوا لا يثقون في حميميتهم، ولا في نضالهم من أجل الشعب...

كانوا يثقون في أن هدفهم جميعًا هو الوصول إلى السلطة، والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه، وانتزاع ما يمكن انتزاعه، والسطو على ما يمكن السطو عليه. كان "أوروج" قانعاً بما رزق به حتى الآن، ولا يرغب في المزيد، فكان يعرف أن الطمع يُطغي.

وكانت هناك أيضًا "أوفيليا" ذات الخمسة والعشرين عامًا، التي تشبه الحورية من أجل الاستمتاع بلذة وبهجة الحياة.

كانت "أوفيليا" تعمل ممرضة في المستشفى التي يعمل بها "أوروج"، تزوجت قبل خمس سنوات، وانفصلت عن زوجها. لم تتوافق طباعهما معًا، ففشل زواجهما الذي استمر أقل من عام.

كان "أوروج" يلاحظ "أوفيليا" منذ فترة طويلة. ولكن كان بإمكانه التعرف على فتيات أجمل وأصغر من "أوفيليا"، حيث كان وسيما، عريض المنكبين، حسن المظهر، لديه خبرة، لبقًا في الحديث، عنده ثروة، ومصيف، وسيارة.

ربما السبب في اختيار "أوفيليا" هو سكنها في منطقة "شوفلان" القريبة من مصيف "أوروج". فبينما كان في طريقه من المصيف إلى المدينة ذات مرة، شاهد "أوفيليا" تسير نحو محطة القطار الكهربائي، فأوقف السيارة، فعرف آنذاك أن "أوفيليا" تعيش هناك. كان منزل مصيف "أوروج" يقع بين المنزل الذي تعيش فيه "أوفيليا" مع والديها، وبين محطة القطار الكهربائي والسوق والمحلات، لهذا السبب، فإن ذهاب هذه المرأة الشابة وإيابها من هذا الطريق يستحيل أن يدفع أي شخص إلى الشك والريبة. أما باب هذا المنزل الصيفي فكان في نهاية "شارع مسدود"، فلا يمكن أن يراها أو يسمعها أحد إذا استدارت أو خرجت من هذا الطريق. وعلى الرغم من أن "أوروج" لم يكن يرغب في ذلك، فإن هذه الملاحظات كان لها دور في إقامة علاقته مع "أوفيليا". على أية حال استمرت علاقتهما قرابة الثلاث سنوات، فبالرغم من أنهما كانا يلتقيان في العمل، فإنهما لم يسأما أو يشبعا من بعضهما البعض بسبب ليالي الحب التي كانت تجمعهما في الشهر مرتين أو ثلاثة. لم يسئ أحدهما للآخر، بالطبع كان "أوروج" قلقًا أكثر منها، وبالنسبة له كانت هذه العلاقة مجرد مغامرة جميلة، أما بالنسبة لـ "أوفيليا" فكان يمكن أن تتحول إلى إحساس أو مشاعر أكبر... ولكن ربما كانت "أوفيليا" امرأة عاقلة بالقدر الكافي، فكانت تكفيها هذه اللقاءات والهدايا الثمينة التي يقدمها لها "أوروج" من وقت لآخر. لم تكن ترغب في شيء آخر، أو تنتظر شيئًا آخر، ولم يكن لديها أمل آخر.

كان فحص المرضى وعلاجهم، والإمكانيات المادية، والهدوء والاستقرار الأسري وتقدم مستقبل ابنه، وهواء منزل المصيف الجميل، وتسوية أرض الأشجار بالفأس، وليالي السبت مع "أوفيليا"، ومجالس رفاقه، ولعب القمار، والنرد، وأفلام

الفيديو – كان كل هذا جدولاً دقيقًا للعمر. كان "أوروج" يحبس نفسه داخل سياج معين كي يحميها. وكأنه لم يكن لديه أي دخل بالعالم المتوهج المتصارع الذي تسفك فيه الدماء، وتذرف فيه الدموع خلف هذا السياج وذلك الحائط. ربما هذا نفسه هو السبيل للنجاة والخلاص من هذه الدنيا، ووسيلة من أجل ألا يفكر "أوروج" في آلام هذه الدنيا التي لن ينصلح حالها مطلقًا من قبل أحد. كان هذا بغرض عدم الاغتمام في هذه الدنيا ذات الخمسة أيام التي لم يأت إليها طواعية، ومن أجل عدم العيش فيها داخل الهم والحزن.

لم يكن يشكو من نومه، كما لم يكن يشكو من صحته. كان عادة ينام في الساعة الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف، ويستيقظ في السابعة أو في السابعة والنصف على الأكثر، كان يمارس الرياضة، ويستحم كل يوم صيفًا وشتاءً. ولكن في الآونة الأخيرة، كان النوم يهرب منه. ولا سيما عندما ينام ويستيقظ فجأة في منتصف الليل، لا يستطيع النوم حتى الصباح، وعندما يتململ في السرير، تسوء حاله أكثر. وتحل على ذهنه الأفكار السيئة. ويغشاه الخوف من عمره – ماذا يعني بلوغ الخمسين؟ ... أي حياة تعيشها بعد الخمسين؟ الأمراض، والنفس البارد للشيخوخة المقبلة، وأنين الموت... ماذا بقي؟ بقي القليل جدًا. وبعد ذلك ماذا سيحدث؟ لا شيء – لقد تربى "أوروج" على الإلحاد، فلم يكن يؤمن بالآخرة ولا بالجنة ولا بالنار. كان يعتقد، بوصفه طبيبًا، أن الإنسان عبارة عن مواد معينة، وكيف أن هذه المواد بعد موت الإنسان تتحلل وتتلاشى. وإذا استخدم المصطلح القديم فإنه كان "طبيبًا روحانيًا"، فهو يعرف أن الروح ترتبط بعمليات مادية محددة وبنشاط فصي المخ الأيمن والأيسر. وبعد أن يموت الإنسان لا تبقى الروح، ولا تذهب لأي مكان، ولا تعود. جميع الحوارات بهذا الشأن ولاسيما الحوارات التي تصطبغ بصبغة علمية مجرد حكايات خرافية، أساطير، محض خيال، تخاريف، لا أكثر ولا أقل. يوجد فقط الحياة التي نعيشها. هي الدنيا التي نراها ونسمعها ونحسها فقط. وهي خمسة أيام، والخمسة أيام سوداء. والماهر من يصبغ هذه الأيام السوداء

باللون الذي يريد، ويعيش في هذا اللون. في الفترة الأخيرة كان يُخيل إلى "أوروج" أنه استطاع ذلك. ولكن الآن، الحياة التي فيها عن الدنيا وأحاطها بسياج كانت تتعرض إلى هزات مختلفة، ويمكن للسيل الموجود أسفل هذا السياج وذلك الحائط أن يحطم هذه السدود أو يتجاوزها. كما يحدث عندما يرتفع منسوب المياه في بحر قزوين فجأة ويتجاوز الجسور والمعابر حتى يتخطى أسوار الشاطئ.

وكانت اضطرابات الحياة الاجتماعية مثل المظاهرات والعطلات وصراع "قره باغ"[١]، والنزاع على السلطة، وتغير السلطة، كل هذا كان يؤثر أيضًا في مهنة "أوروج". فقد زادت الأمراض النفسية، وكثرت الاضطرابات العقلية، وظهرت هواجس ومخاوف جديدة. كان خمسون بالمائة على الأقل من المرضى الذين يجلبهم أقاربهم وأفراد أسرهم بمختلف الحجج للكشف عليهم مرضى بسبب قضية "قره باغ". كان معظمهم يقول: "أعطوني فرصة، وأنا أحل مشكلة "قره باغ" في ساعتين". وكان هناك أيضًا من يطلب عشرين دقيقة أو عشرين يومًا لحل هذه القضية. ولكن مضمون الأمر لا يتغير وينتج مرض "ذُهان عقلي" جديد، يغوص أناس طبيعيون تمامًا في خيال خاطئ؛ يعتقدون أنهم على دراية كاملة بحل قضية "قره باغ" أو بمعنى أصح بالسر الوحيد الذي يحل المشكلة. وتوجد هواجس تتعلق بهذا الشأن. ويعتقد بعضهم أنهم بسبب معرفتهم لهذا السر يُراقبون – مثلاً من قبل الأرمن، أو الأذربيجانيين أو موسكو أو المخابرات. حتى أن أحدهم كان يدعي علاقة "ستارافوبتوفا" (إحدى المتعصبات الأرمن) بالقوى الكونية، وأنهم أصبحوا في جانب الأرمن، وأنهم يراقبونه بسبب معرفته لهذا السر. ولم يكن عدد الواهمين

---

(١) قضية قره باغ هي المشكلة الأساسية التي تعاني منها أذربيجان بعد الحصول على استقلالها عام ١٩٩١م، حيث احتلت أرمينيا ٢٠% من أراضيها ممثلة في منطقة قره باغ الجبلية، مما نتج عن ذلك أكثر من مليون لاجئ أذربيجاني حتى الآن، وبالرغم من صدور أربعة قرارات من مجلس الأمن بشأن أحقية أذربيجان في هذه القضية، فلا تزال المشكلة قائمة. (المترجم)

بالهواجس والمخاوف قلة. كان أحدهم يدعي أنه سوف يتم تفجير سد "منجتشافير"[1]. وسوف يغمر الماء نصف أذربيجان، وسوف يُحرق أرشيف الوثائق الموجود بمدينة "باكو"، وهذا يعني أنه لن يبقى لهذا الشعب ماض أو حاضر... وعرف آخر من مكان ما أن بيت مصيف "أوروج" كان في السابق لأحد الأرمن، فجاء هذا الشخص لمقابلته شخصيًّا (لم يأت به أحد الأقارب، بل جاء هو بنفسه). وحذر "أوروج" من أن الرجل الأرميني دهن حوائط بيت المصيف، وأشجاره وأغصانه بمواد كيميائية خاصة، ولا يمكن رؤية هذه المواد أو استنشاقها. ولكنها تسبب تسممًا لجميع المقيمين في هذا البيت والزائرين له تدريجيًّا، وتصيبهم بمرض مميت في غضون شهرين أو ثلاثة. وعندما يذكر "أوروج" أنه يعيش في هذا البيت منذ خمس سنوات، يقول له هذا الشخص، حتى ولو هذا حدث، فمن الممكن أن يستغرق ظهور المرض أربعة أو خمسة أعوام حسب خصائص الجسم. ولكن عاجلاً أو آجلاً سوف يتملك منك المرض، لذا يجب أن تعجل بحرق هذا المصيف وهذه الأشجار وكل شيء. ولا تقرب هذه المنطقة مرة أخرى.

عندما رأى "أوروج" "بالامي" لأول مرة، أو بمعنى أصح عندما عرف سبب مجيئه، أيقن أن هذا أحد المرضى الذين فقدوا عقلهم. قدم إلى المستشفى في موعد كشف "أوروج". سجل اسمه. وعندما جاء عليه الدور، دخل رجل قصير القامة، عريض المنكبين، شديد السواد. متوسط العمر، لديه جبين ضيق جدًّا بشكل لافت للنظر. كان حاجباه المنتصبان يشبهان تاجًا ثقيلاً معلقًا فوق عينيه اللتين تعلوهما حمرة. وكانت نظراته حادة هي الأخرى. من خلال كفاءته المهنية، فكر "أوروج" في أن هذا الشخص يعاني "تخلفًا عقليًا"، ثم فكر في أن مثل هذا الرجل ضيق الجبين وذي النظرات الحادة يشبه "القاتل المحترف".

---

(١) تقع مدينة "منجتشافير" في اتجاه الشمال الغربي من أذربيجان، السد على بعد ثلاثة كيلومترات منها وهي رابع مدن أذربيجان من حيث عدد السكان. (المترجم)

قال "أوروج" كلماته المعهودة:

-تفضل، مم تشكو؟

-منك ...

-ماذا؟

-لدي شكوى منك.

لا يمكن أن تزعج مثل هذه الكلمات "أوروج"؛ لأنه كثيرًا ما يقابل هواجس موجهة لشخصه.

قال له حتى يغير الموضوع بالرغم من أن اسمه مكتوب في الورقة الموجودة أمامه:

-ما اسمك؟

-اسمي "بالامي"، واسم العائلة "داداشوف".

لم آت إليك لأني مريض. أنا لست مريضًا. أنا لدي شكوى منك. أنت سلبت مني بيت المصيف الخاص بي.

استحضر "أوروج" الطبيب الأرميني الذي يتذكر شكله جيدًا وقال:

-أنت مخطئ، كان هذا البيت لأرميني، كان طبيبًا، هاجر إلى موسكو قبل خمس سنوات، وقد بيع لي هذا المنزل بعد ذلك.

-أنا لم أخطئ، أنت الذي تخطئ. هذا المنزل كان لوالدي قبل الأرميني، وقبل ذلك كان ملكًا لجدي. هذا المكان مكان أجدادي. ربما سمعت عن "قافار": كان "مهدى داداش" جدي. جئتُ لأطلب منك حقي الحلال. والآن، الحمد لله نحن نعيش في وقت يُطالب فيه الجميع بممتلكاته وماله القديم، أعد إلي بيتنا بسماحة نفس حتى لا نكثر في الجدال. هذا الأمر ليس به مزاحًا. هذا أمر غاية في الجدية.

اضطرب "أوروج" بعض الشيء. بالرغم من أن الرجل الموجود أمامه، تظهر عليه علامات واضحة للمرض، فهو على أية حال ليس مريضًا، وربما ما يقوله يوافق الحقيقة؛ ربما كان هذا المنزل قبل أن يمتلكه الأرميني ملكًا لأجداده. ولكن ما مدى معقولية طرح هذا الأمر الآن!

قال:

-لا أعرف، من كان يمتلكه قبل ذلك. ولكن الذي باعني إياه هو "إدارة المصايف". خاطبهم هم.

-أنا لن أخاطبهم. وسببي الأول هو أنه ليس لدي أي مستندات أو عقد للمنزل، والسبب الثاني هو أنك رجل مشهور، ولن يأخذوه منك ويعطوه لي...

-إذًا ماذا تريد مني؟

-إنني أريد منك أن تُعيد لي المنزل طواعيةً.

كاد "أوروج" أن يقول له "هل خربت رأسك؟" ولكنه تذكر حينها أن هذه العبارة ربما يسمح بها لأي شخص إلا الطبيب النفسي ليس من حقه استخدامها.

فقال:

-حسنًا. أنا في ذلك المنزل منذ خمس سنوات. وقمتُ ببناء الطابق الثاني، وقمت أيضًا بأعمال تجديد وتشييد أخرى. أين كنتَ خلال هذه السنوات الخمس؟ لماذا استيقظتَ بعد أن قمتُ بكل هذا وانتهيتُ منه؟!

قال "بالامي":

-سبب هذا أمر آخر، ولكن ليس له دخل بالموضوع. أنت أنفقت أموالًا، سوف نتفاوض بشأنها، وسوف نعيد لك ما أنفقت. ولكن يجب عليك أن تُعيد لي هذا المنزل. أنا الابن الأكبر لأبي، هذا المنزل من نصيبي. مهما قلت، على جثتي. هذا كلام جاد!

نظر إلى ساعته:

-لا، هذا ليس كلامًا جادًا. ليس لدي وقت هنا لأتجادل معك بشأن كلام فارغ. المرضى ينتظرون. أنا استقبلتك بوصفك مريضًا. مرحبًا بك.

-لن تُعيد لي المنزل إذن؟

-لا

-لماذا؟

-لا معنى لهذا الحديث!! فقد اشتريت هذا المنزل. هو الآن ملكي. وسوف أعيش به.

-لا... لن أدعك تعيش فيه. لن تستطيع أن تبقى هناك ولو ليوم واحد بعد ذلك.

-لماذا؟

-هذا شأني أنا.

-هل ستحرق المنزل، أم ستضع عند بابه دبابة؟

-هذا شأني أنا.

-حسنًا، لو أبلغت الشرطة بتهديدك هذا، كيف سيكون الأمر؟

-أنا أريد هذا بالفعل .... أريدك أن تجعلهم يقبضون علي، الجميع يعرفك. الآن ليس كالماضي. سوف يفضحونك في كل مكان وفي الصحف، سيقولون العالم الكبير الطبيب استولى على منزل ابن قروي بسيط، وجعلهم يقبضون عليه، وألقى به في السجن، ويتّم أبناءه.

كان "أوروج" لا يستطيع أن يتحمل أكثر من ذلك، فقال له:

-أتعرف ما الأمر؟ انهض على الفور وانصرف قبل أن أضربك، وإلا سوف أسحبك من أذنك، وألقى بك بنفسي. افعل ما يحلو لك. ولكن لا تفكر أن تخطو خطوة إلى هنا مرة أخرى، فلا أريد أن أراك ثانية.

نهض "بالامي" على قدميه بهدوء، وكان وجهه شاحبًا، ونظراته حادة.

وقال:

-ماذا نفعل؟! لدي ولدان، الكبير يسمى "حسين آغا"، عنده واحد وعشرون عامًا، والصغير يسمى "حسن آغا" عنده تسعة عشر عامًا. إن لم أستطع أن أسترد ذلك المنزل، سوف يسترده أبنائي. ولكن الله لا يقبل أن يستولي أحد على ممتلكات غيره، إن لم تكن تخاف من الناس، فاخش الله.

تحرك نحو الباب بخطى بطيئة وخرج. كان هذا اليوم يوم جمعة، ويجب أن يلتقي غدًا مع "أوفيليا". استدعى "أوروج" "أوفيليا". وقال:

-لدي غدًا أمر عاجل، لن أستطيع الذهاب إلى البيت الصيفي. فلنؤجل اللقاء إلى الأسبوع القادم. لم ترد "أوفيليا".

ثم بحث الأسبوع التالي عن عذرٍ آخر وأخبر به "أوفيليا"، وقال إنه لن يتمكن من الذهاب إلى البيت. ولم يذهب بالفعل. كما امتنع عن ليالي الحب يوم السبت، امتنع أيضًا عن مجلس الأصدقاء يوم الأحد. وقال لأصدقائه الذين تعجبوا من هذا الأمر:

-لقد قطعوا الكهرباء والغاز عن البيت الصيفي. ماذا سنفعل في هذا الجو البارد هناك من دون غاز أو كهرباء؟

قال مهدي:

-آه، سأتصل فورًا بـ "سيد آغا"، ليجعلهم يفتحون الغاز، ولكي يرسل رجلاً لإصلاح الكهرباء أيضًا...

قال "أوروج":

-لا، لا حاجة لهذا. أنا تحدثت إلى فني، سوف يأتي الأسبوع القادم ليصلحه. نلتقي إن شاء الله الأسبوع القادم.

قال مهدي:

-بالمناسبة، تحدث معهم أيضًا عن سلك الضغط العالي، ليبعدوه عن "البيت الصيفي".

كان يقصد أسلاك الضغط العالي التي تمر من فوق بيت مصيف "أوروج": "فمن الممكن أن يأتي يوم – لا قدر الله، وينقطع هذا السلك أثناء هبوب الرياح ويسقط على الأرض ويتسبب في كارثة".

كان "أوروج" يفكر كذلك في أن يستدعي كهربائيا ليُخرج الأسلاك خارج حديقة المنزل. ولكنه لم يجد وقتًا ليفعل هذا الأمر.

لم يكن السبب في عدم ذهابه إلى منزل المصيف هو الخوف. كان لا يخاف من "بالامي". بل كان يخاف من أن يأتي "بالامي" ويُراقبه هو و"أوفيليا"، ويُخبر والديها، ويحدث ضجيجًا وشجارًا، وينفضح أمرهما الاثنين. ولو ألغى موضوع يوم السبت، واقتصر الأمر على جمع رفاقه يوم الأحد، يمكن أن تعرف "أوفيليا" هذا الأمر، فتصاب بضيق، وتظن أن مشاعر "أوروج" قد بردت تجاهها، وأنه سئم منها، وأنه يريد أن يُنهي العلاقة التي بينهما.

على أية حال، لم يذهب إلى منزل المصيف لمدة أسبوعين. ولكنه اختلق سببًا وسأل "أوفيليا".

-ربما تعرفين مريضًا يُدعى "بالامي دادا شوف" في المنطقة التي تعيشين فيها؟ لقد قدم إلي لأنه يحتاج للعلاج، جاء إلي مرة ثم اختفى بعد ذلك.

قالت "أوفيليا":

-بالطبع أعرفه. كان محبوسًا خمس سنوات في السجن، وخرج من السجن حديثًا.

-بأي تهمة؟

-اعتقد جريمة قتل، قتل عاملاً في مقهى. ولكن لم يستطع أحد إثبات هذا الأمر. شرب "بالامي" ورفاقه الخمر، وتشاجروا، وضربوا عامل المقهى ضربًا شديدًا. والعجيب في الأمر أن عامل المقهى لم يمت هناك، بل عاد إلى منزله، وأصيب بسكتة قلبية في تلك الليلة. ضرب "أغاجول" عامل المقهى بآلة حديدية حادة. ثم ضربه "بالامي" بالرأس مرتين أو ثلاثة فقط. على أية حال حكموا على كل واحد منهما بخمس سنوات سجن. سُجن أربع سنوات ثم خرج. كانت تلك المنطقة تتحدث عن هذا الحادث آنذاك.

بعد أسبوعين، خُيل إليه أن كل هذا كان مجرد حلم مزعج، ولا يوجد رجل على وجه الأرض يسمى "بالامي"، وأن هذا الرجل جاءه في المنام فقط، وأنه كان مخطئًا أن تخلى عن تلك الأيام والساعات الجميلة بعدم ذهابه لمنزل المصيف كالمعتاد. وسوف يتفق غدًا الجمعة مع "أوفيليا"، ليلتقيا يوم السبت، أما يوم الأحد فسوف يدعو أصدقاءه لأكل الكباب.

ما أن نام بهذه النيات الحسنة، رن جرس الهاتف، فمد يده ورفع سماعة الهاتف الموجود بجوار سريره.

-ألو

-السلام عليكم. أنا "بالامي".

-من؟

-"بالامي". جئتُ إليك الشهر الماضي، هل تتذكرني؟ من أجل منزل والدي: هل قررت شيئًا؟

أراد "أوروج" أن يضع السماعة في الحال، ولسبب ما لم يضعها.

سأله قائلًا:

-من أين عرفتَ رقم هاتف منزلي؟

-أهذا أمر صعب؟ وأعرف عنوانك أيضًا.

-حسنًا، ما الأمر؟ ما قرارك؟

-قراري هو قراري السابق. اذهب، واشغل نفسك بشيء آخر، ولا تتصل بي مرة أخرى.

-شيء غريب جدًا. ولكن لي طلب وحيد منك.

-أي طلب.

-أحضر قلمًا وورقة، واكتب.

-ماذا أكتب؟

-سأقول لك الآن، هل تكتب؟

قال ستة أرقام، كتب "أوروج" الأرقام متعجبًا من نفسه.

-هل كتبت؟

-ما هذه الأرقام؟

-هذا رقم هاتفي. لو قررتَ شيئًا في أي وقت.

أي إذا أردت أن تُعيد إلى المنزل، اتصل بهذا الهاتف. أكون في خدمتك بعد ساعة.

وضع السماعة مكانها بغضب. أراد أن يمزق الورقة التي كتب بها للتوّ رقم الهاتف. ولكن لم يمزقها تحسبًا لأي شيء، فأطبقها ووضعها في جيبه.

جاءت إليه "أوفيليا" بنفسها صباحًا. التفتت يمينًا وشمالاً في الممر، وبعد أن تأكدت من عدم وجود أي شخص يراهما، همست إليه:

-ألم تشتق إلي؟ هل نتقابل غدًا؟

-ليس غدًا، بالتأكيد الأسبوع القادم.

بحث عن عذر للسبت التالي، ولم يذهب إلى بيت المصيف.

أما يوم الخميس في الأسبوع التالي، فطلبت "أوفيليا" إذنًا حتى تخرج من العمل مبكرًا ساعتين قائلة:

-سوف أذهب مع أمي للعزاء.

أعطاها "أوروج" الأذن:

-من الذي توفي؟

-زوجته تعرف أمي، وأنا أيضًا أعرف ابنته.

وفجأة تذكرت "أوفيليا" شيئًا فقالت:

-آه، نسيتُ تمامًا. أنت أيضًا كنتَ تعرفه...

-من؟

-المتوفي هو الشخص الذي جاء إليك مرة واحدة، وسألتني عنه قريبًا.

شعر "أوروج" بأن قلبه بدأ يخفق بشدة، فقال:

-"بالامي"؟

-نعم... "بالامي"... أصيب بجلطة، فمات.

لم يفرح أحد لموته، الفرح في الموت ذنب. ولكن عندما خرج "أوروج" من العمل ذلك اليوم وعاد إلى المنزل كان يشعر بارتياح وسكينة وطمأنينة.

أما في الصباح فقال لـ "أوفيليا" في العمل:

-سأذهب غدًا إلى البيت الصيفي، سوف أنتظرك هناك.

وقال لـ "باكيزا":

-لم أزر البيت الصيفي منذ فترة طويلة. أود أن أذهب غدًا.

كانت "باكيزا" تعرف ما ينبغي القيام به عندما كان "أوروج" يرتدي ملابس الذهاب إلى منزل المصيف – البدلة الجينز الزرقاء والحذاء "الأديدس"، كانت "باكيزا" تضع قطع اللحم المرتبة بنظام وسط الخبز، وكذلك البطاطس المحمرة المعدة في أكياس منفصلة، وكذلك تضع الريحان والفجل الأحمر، والحساء، والبيض المسلوق، والجبن والزبد والتفاح والكمثرى والخوخ في سلة كبيرة. ولم يكن يحتاج لشراء العصائر والمياه الغازية والمشروبات الكحولية؛ إذ توجد كل هذه الأشياء في ذلك المنزل بكميات كثيرة.

ودع "باكيزا"، وأخذ منها السلة ونزل إلى فناء المنزل. فتح الجراج، وقاد سيارته ماركة "الفولجا" نحو الشارع، وسار في طريقه. وكلما استمع "أوروج" لأغاني "آجدا بكان"، و"إبراهيم تطليسس"، و"سزان أكسون" من مُسجل السيارة، تخيّل ما سيحدث في منزل المصيف بعد ساعتين أو ثلاثة، فيشعر بنشوة تهز كيانه، ويشعر بشغف في أعضاء جسده المضطرب.

بعد ساعة أو ساعتين سوف يقترب من الباب، وسوف يفتح الباب قليلًا، ويلتفت منه نحو الشارع المسدود الذي يُطل عليه المنزل، وسوف يعيش الدقائق الأخيرة قبل اللقاء. سوف تظهر "أوفيليا" ترتدي المعطف الأخضر عند رأس الشارع، وسوف تسير بخطى سريعة عند الباب، وسوف تخطو خطوة وتدخل من الباب، وسوف تتعلق برقبة "أوروج"، وسوف يغلق "أوروج" قفل الباب بإحدى يديه بسرعة، ويده الثانية سوف يمررها على شعر "أوفيليا"، وبعد ذلك يدلفان إلى الداخل....

كان عدم لقاء "أوفيليا" لمدة شهر ووساوس الشيطان اللعين في ذهن "أوروج" يُشعل لديه هذه الأفكار والرغبات والمشاهد والذكريات، ويجعل عقله يطيش، ويُحمسه ويجعله يجتهد في أن يقطع هذه المسافة التي تمتد عدة كيلومترات في أسرع وقت، ويستعجل الوقت، وكأن تعجيل الوقت أمر متاح، وكأنه من الممكن الوصول بسرعة إلى الأحداث التي ستقع بعد ساعة أو اثنتين.

كان يشعر برائحة "أوفيليا" داخل السيارة، ويحس بلمساتها وحركاتها، ويسمع همساتها، فكان يُسرع ويُسرع.

عندما مر بالسيارة من أمام منزل أسرة "أوفيليا" داخل الحي الذي تسكن فيه، كأنه كان يرى خلف هذه النافذة المزدوجة في هذا المنزل ذي الطابق الواحد كيف تستعد "أوفيليا" للقاء، وهي تغير ملابسها وتتعطر. اتجه بالسيارة نحو الشارع الذي به بيت المصيف، ونزل منها وفتح قفل الباب الكبير، وفتح البوابة على مصراعيها، وأدخل السيارة للداخل.

أغلق البوابة من الداخل، وفتح باب الحجرة الموجودة بالطابق الأول بالمنزل. وأحضر السلة، ووضع ما بها بالثلاجة، وأوقد المدفأة، وأضاء الأنوار، وضبط التلفاز. ثم بعد ذلك صعد إلى الطابق الثاني، حيث كان هناك حجرة النوم، والبار، والفيديو.

كان ذلك في يوم فاتر من أيام شهر إبريل، كان "أوروج" قد خلـع معطفـه ووضعه في الطابق السفلي. تجول قليلًا في الشرفة، ونظر إلى المنـازل المحيطـة وإلى البحر الذي يبدو من بعيد جدًّا، وبعد ذلك اتجه نحو حجرة النوم، فتسمر أمـام الباب: يوجد مفتاح في الباب.

كان "أوروج" لا يصدق عينيه. لم يكن لمنزل المصيف – سواء للبوابـة أو الحجرات في الطابق السفلي أو العلوي – سوى مفتاحين اثنين، والمفتاحان معـه. أحدهما في المدينة في خزانته، والآخر في جيبه. والآن، من أين ظهر هذا المفتاح الموجود بالقفل الذي بالباب؟ ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. بل رأى "أوروج" أيضًا أن المفتاح بدأ يدور رويدًا رويدًا، أي أن أحدًا بالداخل يُحرك قفـل البـاب. شعر بأن عرقًا باردًا يعلو جبهته ما هذا الأمر؟

استدار المفتاح حتى النهاية. مد "أوروج" يده، وفتح الباب، ودخل. وبمجـرد أن دخل إلى الحجرة فزع؛ كان يوجد شخص بالداخل. كان مخلوقًا غريبًـا. شـديد الصفرة، شعره، وحاجباه، وشعر وجهه، كل شيء فيه شديد الصفرة. كانت حدقـة عينيه أيضًا تميل إلى الصفرة. كان شخصًا أمهق.

تمالك "أوروج" نفسه، وقال:

–من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

قال الأمهق:

–أنا "حسين آغا"، الابن الأكبر لـ "بالامي". جئتُ إلى منزل جـدي وأبـي. أنت ماذا تفعل هنا؟

استشاط غضبًا. ما كان يُغضب "أوروج" أكثر من تعالي وقلة أدب ووقاحـة "حسين آغا" هو تمدد هذا المخلوق القبيح على سريره – السرير الذي قضى عليـه

وسيقضي لحظات سعيدة – لقد تمدد من دون حتى أن يخلع حذاءه. وكان خير دليل على ذلك هو الوسائد غير المنسقة، والبطانية غير المرتبة.

قال "أوروج":

-اخرج من هنا، انصرف.

كان هو أيضًا متضايق من نفسه، لأنه لا يستطيع التحكم في أعصابه، وأنه يغضب مثل الطفل ويصرخ. كان "حسين آغا" لا يتحرك من مكانه:

-كيف أصبح هذا المنزل منزل أبيك وجدك؟ أنا الذي قمت ببناء هذا المنزل، بنفسي وبمالي.

نهض " حسين آغا " من مكانه.

كان "أوروج" يفكر في استعمال القوة معه؛ فعلى أية حال يستطيع أن يغلب هذا الشاب النحيف ضعيف البنيان. مع أنه أكبر منه مرتين، فقد كان مصارعًا قديمًا. ولا يزال يحتفظ برشاقته. ولكن يبقى أمر واحد وهو أن "أوروج" واحد من الأشخاص المحترمين بالمدينة، وطبيب معروف، كيف يبدأ في الشجار مع أحد العامة!

كان الوقت يمضي، وبعد قليل يجب أن تأتي "أوفيليا". ومن المستحيل أن ترى "حسين آغا" أو أن يراها هو. يجب طرد هذا الضيف الذي لم يدعه أحد قبل مجيء "أوفيليا". قال وهو يحاول أن يتحدث بلين قدر الإمكان:

-يا فتى، هذه الأمور لا تُحل هكذا. جاءني والدك من قبل. وقلت له رأيي. أنا اشتريت هذا المنزل من "إدارة المصايف"، خاطبهم، واذهب إلى المحكمة، وخاطب من تخاطب، حتى يُحل الأمر. الأمور ليست دون ضابط حتى يدخل أي شخص إلى المكان الذي يريد ويجلس فيه. لو استدعيتُ الشرطة لك الآن، سوف

يلقون القبض عليك، ويلقون بك في السجن. كيف تسللت إلى منزل يمتلكه آخر، كما أني لا أعرف أيضًا من أين أحضرت المفتاح؟

كان "حسين آغا" لا يتكلم، كان يقف مكانه دون حراك، وقد سلط عينيه المائلتين إلى الصفرة في عيني "أوروج". وكان "أوروج" كلما تحدث، كان يتلعثم ويهرب الكلام منه جراء تأثير هذه النظرات التي تشبه وخز الإبر.

-حسنًا، كفى ذلك، اخرج وانصرف من هذه الحجرة، وسوف آخذ المفتاح أيضًا. بعد ذلك من الممكن أن تأتي إلى هنا، أو تأتي إلي في المدينة – تنازل أخير مني – ونتحدث معًا.

ولكنه عندما مد يده، وأراد أن يُخرج المفتاح، تغير وجه "حسين آغا" فجأة. وكأن شرارة انفجرت في عينيه البارزتين، ومال فمه، ومد يده تحت السرير.

رأى "أوروج" الآن فقط أن المنجل الذي يشذب به جذور أشجار العنب كان موجودًا في ذلك المكان تحت السرير. من أحضره إلى هنا، وأخفاه تحت السرير؟ من؟ بالتأكيد "حسين آغا"، ولكن لماذا؟

لقد اتضح غرضه الآن. أخرج الفأس من أسفل السرير وأمسكه من مقبضه، ووجّه الجزء الحديدي المدبب حاد الأطراف نحو رأس "أوروج" وسار نحوه.

بدت الأحداث التالية لـ "أوروج" كالرؤية أو كفيلم تتغير مشاهده بسرعة فائقة في لمح البصر. كان رد فعله سريعًا. ارتمى للأمام دون أن ينتظر ضربة "حسين آغا"، وأمسك خصمه من رسغه، وباليد الأخرى أمسك مقبض المنجل. وركله ركلة شديدة بركبته اليمنى بين قدميه. فصاح " حسين آغا " من الألم. وأرخى يده، فأخذ "أوروج" منه المنجل. ولكن في اللحظة نفسها، تمالك "حسين آغا" نفسه، وضرب "أوروج" لكمة بكل قوته. فاسودت الدنيا في عين "أوروج"، فسئم من سخافة كل هذه الأحداث وعبثيتها، وأصبح كالمجنون بسبب غضبه من هذه اللكمة

التي أصابته دون وجه حق. وفقد سيطرته على حركاته وأنــزل غاضــبًا ضـــربة بالمنجل الموجود في يده على رأس "حسين آغا"...

وفي تلك اللحظة كأن المشاهد سريعة التغير التي تشبه الفيلم بدأت تعــرض ببطء وهدوء على عكس ما كانت عليه. خر "حسين آغا" على الأرض، وبدأ الــدم يتدفق من رأسه المصابة، وثبتت حدقة عينيه، وتركزت في نقطـــة مـــا، وجمــدت نظراته. أدرك "أوروج" معنى هذا في الحال لأنه طبيب. مات "حسين آغــا". قتلــه "أوروج" في منزله؛ أي في منزل "أوروج"، على أية حال ليس هذا البيت، أو على الأقل هذه الحجرة التي في الطابق الثاني، ملكًا لأسرة "حــسين آغــا". بــل ملــك "أوروج". بناها "أوروج" بنفسه. والآن توجد في هذه الحجرة جثة شاب في الواحــد والعشرين من عمره تقريبًا. وقد لطخت دماؤه الأرض، وانتثرت علـــى الــسرير. كانت هناك بقع الدم على الجزء الحديدي من المنجل، وفي مقبضه بصمات أصابع "أوروج". كان "أوروج" في السنوات الأخيرة مهتمًا بقراءة الروايــات البوليــسية. وشاهد في الفيديو أفلامًا بوليسية كثيرة؛ لذا فإن أول شيء قام به بعد هذا الحــادث المروع وغير المتوقع هو أنه أخرج منديل الجيب ومسح مقبض المنجل بقوة مرارًا وتكرارًا. هكذا يفعلون في الأفلام البوليسية. أراد أن يمسح أيضًا الدم الموجــود فـــي الجزء الحديدي بالمنجل، ولكنه لم يمسحه؟ فلا توجد بصمات لأصابعه فوق مقــبض الفأس، فما أهمية الدم الموجود عليه؟ على أية حال سوف يعرفون أن "حــسين آغــا" قُتل بهذا المنجل. ولكن من الذي قتله؟ دعهم، فليعثروا عليه. فـــي البدايـــة يجــب أن يجدوا جوابًا على سؤال آخر. ماذا كان يعمل "حسين آغا" هنا؟ هل كان يسرق؟ هــذا مستحيل، كل من المفتاحين لدى "أوروج". هل أخرج قلب القفل، ونسخ عليه مفتاحًا؟

ممكن. ولكن بأي هدف؟ هل من الممكن أن يتملك هذا المنزل مــن خــلال تسلله لمنزل يملكه آخر وتمدده على سريره؟ الدنيا ليست خربـــة، يوجــد قـــانون، وتوجد قواعد.

كل ما في الأمر أنه حتى هذه اللحظة كان القانون في صف "أوروج"، ولكن اعتبارًا من هذه اللحظة، لن يكون القانون أو العدالة في صف "أوروج" بعد أن ارتكب جريمة قتل، بغض النظر عن السبب أو الطريقة أو الظروف التي أدت إلى هذه الجريمة. لقد ارتكب جريمة كان فيها المتهم، المذنب، المدعى عليه. بالطبع في حالة أنهم استطاعوا أن يكتشفوا الجريمة واستطاعوا أن يُثبتوها.

كان يجب عليه الهرب والنجاة. وعندما تُكتشف الجريمة، كان يجب عليه أن يُنكر كل شيء. "لم أكن في المنزل مطلقًا في ذلك اليوم (المحقق التخيلي يسأل: كيف استطعت تحديد اليوم؟)، لا، لا يمكن تحديد ذلك اليوم. لم آت منذ شهر إلى المصيف". يجب القول بهذا وفي الحقيقة الأمر هكذا. فهو لم يأت إلى المنزل الصيفي منذ شهر. لا يحتسب هذا اليوم. لم آت أيضًا هذا اليوم. من يعرف بوجودي في المنزل الصيفي؛ "باكيزا"؛ أعود إلى المنزل الآن، وأقول لها غيرت رأيي، ولم أذهب إلى بيتنا الصيفي. تذكرتُ أن لدي عملاً في المدينة في المساء.

من يعرف كذلك بأمر ذهابه إلى هناك؟ "أوفيليا". يا إلهي، سوف تأتي "أوفيليا" بعد نصف ساعة. يجب الذهاب بسرعة من هنا. سوف تأتي، وتدق الباب قليلاً، ثم تنصرف. سأجد يوم الأحد أي عذر أعتذر به لها. وأقول لها: نتقابل الأسبوع القادم. ولكن هل يستطيعان أن يتقابلا الأسبوع القادم؟ إن لم يأت كيف ستكتشف هذه الجريمة؟ الجثة في منزله هو، من سيخطر بباله أنها في الطابق الثاني للمنزل. على أية حال هناك أمر واضح؛ وهو أنه يجب أن يذهب من هنا الآن. مسح آثار أصابعه من مقبض المنجل. هذا يكفي، لا يلزم مسحها من على الباب أو من الأماكن الأخرى. هنا منزله، ويجب وجود بصمات أصابع "أوروج" في منزله، فأي غرابة في هذا؟ ولا يمكن تحديد إذا ما كانت هذه البصمات حديثة أم قديمة. لا توجد بصمات أخرى هنا. ربما أثناء الشجار، نزع زرًا أو سقط شيء من جيبه. أو شعر من رأسه... ألقى نظرة بدقة على الحجرة. كان "حسين آغا"

ملقى على الأرض بجوار السرير. كوّن الدم المتدفق من منتصف جبينه بقعة كبيرة فوق الأرض، بدأت تصبح لزجة، وأخذت تجف بجوار الجثة وعند رأسه. لطخت بقع كبيرة من الدماء البطانية الوردية الموجودة فوق السرير. وظل المنجل الملطخ بالدماء ملقى بجانب الجثة. لم يكن هناك أي أثر آخر للجريمة أو للشجار في الحجرة. على أية حالة لم يكن "أوروج" يرى شيئًا آخر.

ألقى نظرة أخيرة على الحجرة، وخرج إلى الشرفة. أغلق باب الحجرة بقوة، ونزل مسرعًا على السلالم لأسفل، ضغط على زر التلفاز، وشد السلك الخاص به، ونزعه من مكانه، وأغلق الأنوار، وأطفأ المدفأة. وأغلق الباب بالمفتاح، واتجه نحو البوابة. فتح البوابة، ورجع بالسيارة إلى الوراء، وعاد وأغلق البوابة. "الأمر الأساسي هو أنك لا تفقد تركيزك، لا يزال لم يرك أحد هنا. يجب الاختفاء من هنا بسرعة".

أدار السيارة بحركة آلية تنم عن حالته، وخرج من الشارع الضيق إلى الطريق الرئيس، تتداخل الأفكار مع بعضها البعض في ذهنه طيلة الطريق، وتتدافع، وتختلط مع بعضها البعض. وفي خضم هذه الأفكار، يصعب فك أو حل عقدة المشكلة من خلال الافتراضات والاحتمالات. يا ترى هل ترك خطأ أو خلف أثرًا أو طرف خيط من أجل كشف الجريمة؟ وبينما كان يفكر في هذا الشأن، تذكر أنه كان مخطئًا عندما ترك المفتاح الموجود في باب الحجرة بالطابق العلوي. كيف يستطيع إثبات أن هذا المفتاح ليس مفتاحه... وإذا كان لديه مفتاحان، ألا يمكن أن يكون لديه ثالث؟ ربما يرجع ويأخذه ... لا... هذه مخاطرة، من الممكن أن ينكشف أمره. بل ربما يقابل "أوفيليا" نفسها، وآنذاك سيتعقد كل شيء.

ولكن عندما كان يمر بجوار مطار "بنا"، تذكر أنه ترك دليلًا آخر في المنزل الصيفي، وهو الأطعمة والفاكهة الموجودة بالثلاجة. ويمكن أن يحدد الفحص أن الأطعمة والفاكهة والخضروات أُحضرت اليوم، وهذا يعني ذهاب "أوروج" إلى

المنزل كما أن الجرائد التي لف بها الخضروات هي صحف اليوم. وهـذا يعنـي إمكانية تحديد وتردد "أوروج" على المنزل في شهر إبريل بشكل تام.

بمجرد أن فكر في هذا، أدار السيارة ورجع، رغم أن رجوعه إلى المنـزل الصيفي مخاطرة كبيرة، ولكن عدم رجوعه وتركه دليل إدانته أكثر خطرًا. لذا عاد متمنيًا ألا تأتي "أوفيليا".

بعد ثماني دقائق دخل بالسيارة في الشارع الضيق الذي به المنزل لم يفـتح البوابة على مصراعيها، ترك السيارة في الخارج، ودخل إلى المنزل، وجمع جميع الأطعمة والفاكهة والخضروات من جديد في السلة. وأخرج الخبز الموجـود فـي الوعاء، ووضعه في السلة، حتى أنه أخذ الجرائد المبتلة – جرائد اليوم- من سـلة المهملات واحدة واحدة، وألقى بها في المرحاض.

كانت هذه هي أخطر دقائق في تأخره. سوف تأتي "أوفيليا" وترى الـسيارة في الخارج. وستعرف أن "أوروج" في الداخل وستدق الباب. وآنذاك إما أن يفـتح الباب ويشرح لـ "أوفيليا" كل شيء. (هل يمكن شرح هذا الأمـر؟)، أو لا يفتحـه ويدع "أوفيليا" في قلقها. وكيف ستكون نهاية القلق؟ كم ستنتظر "أوفيليا" أمام الباب؟ ربما قلقها على "أوروج" واضطرابها وهواجسها السيئة تغلب ضرورة كتمان السر، فتخبر الجيران أو الشرطة...

كان "أوروج" -الذي كان ينتظر مجيء محبوبته بفارغ الصبر-مستعدًا الآن أن يدفع كل ما يملك نظير ألا تأتي "أوفيليا". ولكن ربما جاءت وذهبت عندما كـان "أوروج" في الطريق. لقد استغرق ذهابه من المنزل ورجوعه من جوار مطار "بنا" ووصوله إلى المنزل مرة أخرى حوالي خمس عشرة أو عشرين دقيقة.

هل من الممكن أن تكون "أوفيليا" جاءت ورجعت في غضون هذه الفتـرة؛ ربما حدث ذلك، ليته يكون حدث ذلك يا ربي!

أخذ السلة وخرج بها وأغلق باب الحجرة بقوة. سار وصعد إلى الطابق الثاني، كادت قدمه تنزلق، فيسقط من على السلم. فكر قائلاً "ما ينقص هو سقوطي وانكسار فخذي!". اقترب نحو باب الحجرة الموجودة بالطابق العلوي، وأخرج المفتاح من الباب. فتح الباب قليلاً بطرف قدمه، ونظر داخل الحجرة. كل شيء كان كسابق عهده؛ الجثة، المنجل، السرير... فقط بقعة الدم كبرت بعض الشيء...

أغلق "أوروج" الباب مسرعًا، وضرب عليه بقدمه، ولكن صوت هذه الضربة ترك صدى كبيرًا في هدوء المنزل والأماكن المحيطة به، فانزعج "أوروج". وألقى بمفتاح الحجرة – المفتاح الثالث-في البئر.

فكر قائلًا: "لا تزال عائلة "حسين آغا" لا تعرف شيئًا عن هذه الكارثة". عندما تعرف، سيحدث صخب وضجة شديدتان. لم يمر أسبوع على وفاة "بالامي"، وقد مات ابنه الأكبر هكذا. حقًا إنها مصيبة. وكان لا يرغب في أن يتذكر أنه المتسبب في هذه المصيبة أو على الأقل في قتل "حسين آغا"، كان يدفع هذه الأفكار. ما ذنبه -أي ما ذنب "أوروج"-؟ هل هو الذي بدأ هذا الموضوع العبثي؟ هل هو الذي ذهب إلى منزل "بالامي"؟ أم "حسين آغا" هو الذي تسلل إلى منزل أسرة "أوروج"؟ من الذي بدأ الشجار، ومن الذي هجم؟ لو لم يُمسك "أوروج" المنجل من مقبضه، كان "حسين آغا" سينزل هذا المنجل على رأس "أوروج"؛ وكانت جثة "أوروج" هي التي ستكون ملقاة الآن على الأرض بجوار السرير وليست جثة "حسين آغا". لم يرتكب "أوروج" جريمة: ما قام به هو مجرد دفاع مشروع عن النفس.

حسنًا، الوضع الآن هكذا، فلم إذن لا تقود السيارة الآن إلى الشرطة، وتحكي لهم كل شيء كما حدث؛ من الصعب أن يُصدقوا أن الأحداث وقعت على هذا النحو. بغض النظر عن احترامي ومكانتي، فلن يصدقوا بهذا الشكل. وإذا افترضت أنهم صدقوني، وقبلوا كل شيء كما حكيتُ لهم. وحتى لو ذهبت القضية إلى

المحكمة، وأخذتُ براءة. حتى في هذه الحالة سوف تلتصق بجبيني وصمة القتل مدى الحياة. وهو ما يعني نهاية جميع أنشطة عملي ومستقبلي.

عندما أغلق الباب وأدار السيارة، وعندما خرج من الشارع الضيق الموجود به المنزل وأخذ طريقه في السير، كانت النتيجة المنطقية لألف فكرة دارت في عقله هي أمر واحد، وهو أنه على أية حال فعل الصواب ولم يذهب إلى الشرطة. الجريمة، لماذا أقول جريمة، الحادث، نعم حادث، ولا يوجد أي أثر أو علامة في مكان الحادث. ولا يوجد أي طرف خيط هناك. لو استطاع أن يتمالك نفسه بشكل جيد، أي لو لم يُفسد ضبط نفسه تحت أي ظروف أو بأي شكل في التحقيقات، ولو أظهر نفسه بشكل هادي كأنه لا علم له بأي شيء... سوف يستطيع أن يتمالك نفسه بالشكل اللازم...

على أية حال فهو طبيب نفسي ماهر: يستطيع أن يُدير أعصابه وسلوكه ومزاجه وحركاته، ويتمالك نفسه، ويتظاهر بالشكل اللائق. كان لا يستطيع أي محقق ماهر أو ذو خبرة أن يجعله يخرج من صوابه. مما لا شك فيه أنه سوف يتواجه مع المحقق عاجلاً أو آجلاً، فقد حدثت الجريمة (الحادث!) في منزله، في البداية والنهاية سوف يأتون إليه. على الأقل من أجل طلب توضيح عن الأمر. من كان في المنزل الصيفي في ذلك اليوم، هل يمكن أن يكون هناك مفتاح مع شخص آخر؟ هل تعرف هذا الشخص (الجثة)، وهل رأيته قبل ذلك، وهل لك علاقة بأسرته؟ كان يجب عليه أن يُعد ردًا مباشرة على جميع هذه الأسئلة. وكان يجب عليه أن يُعطي إيضاحات صادقة دون تلعثم أو خطأ في أي موضع.

تذكر ثانية الأفلام البوليسية التي شاهدها. كان يجب أن يُعد لنفسه دليلاً لعدم وجوده في المكان أثناء الحادث. فاتجه إلى المستشفى. فقال للحارس المتعجب من مجيئه:

-نسيت أوراقًا لي هنا. يجب أن آخذها. كنتُ أعمل من الصباح، فرأيتُ فجأة أن بعض أوراقي بقيت في العمل.

سُر من سؤال الحارس له عن الساعة. فلم يقل له الوقت الحقيقي، بل قال التوقيت قبل ساعة. قال ذلك التوقيت حتى يتزامن مع الوقت الذي شق فيه رأس "حسين آغا" بالفأس على مسافة اثنين وأربعين كيلو مترا من هذا المكان.

خرج من المستشفى وذهب إلى المتجر. واشترى معجون أسنان وسأله البائع عن حاله وأمواله. ودخل الصيدلية. وطلب علاج "فولكاردين". وعندما قالوا له "لا يوجد"، فصاح فيهم قائلاً:

-متى يمكن شراء العلاج الذي نريده منكم، لقد جئتُ قبل ساعة، (مشيرًا على الساعة الموجودة على الحائط)، وطلبت أسبرين، حتى الأسبرين لا يوجد عندكم.

قال البائع الذي يعرف "أوروج" من وجهه:

-يوجد لدينا أسبرين، من قال لك إنه لا يوجد لدينا؟!

-لا أعرف، فتاة شابة، جئت قبل ساعة، قالت لا يوجد عندنا.

وصل إلى المنزل. وعندما فتح الباب بمفتاحه ودخل بالسلة، تعجبت "باكيزا".

-لم تكن في البيت الصيفي؟

قال:

-لم أذهب، تذكرتُ أن عندي محاضرة بعد غد، وجميع المراجع في المنزل والمستشفى. يجب أن أجلس هذه الليلة وأعمل حتى الصباح. ضعي ما بهذه السلة في الثلاجة، حتى لا تفسد.

لعب هذا المشهد بإتقان. هو نفسه رضي عن ذلك. ولكن توجد رجفة في جسمه، كان كل جسده يرتعش قليلاً. كان لا يستطيع أن يتمالك نفسه، أو يهدأ. كانت لا تزول عن خاطره الأحداث التي وقعت قبل ساعتين، كانت لا تزول مطلقًا.

دخل مكان الاستحمام، وأخذ حمامًا ساخنًا أولاً، ثم حمامًا باردًا. وملأ المسبح بالماء وتمدد به لفترة. وتذكر أنه عندما يتمدد داخل ماء ساخن، ويقطع شرايينه، فهذا هو أكثر طرق الانتحار راحة. وبخ نفسه قائلاً "أي شيطان يجلب إلى رأسي هذه الأفكار". خرج من الحمام بعد ثلاثين أو خمس وثلاثين دقيقة. بدأ يجفف شعره بمجفف الشعر. وكأنه استراح بعض الشيء. أحضرت "باكيزا" شايًا ثقيلًا ووضعته أمامه مع الليمون والمربى.

قالت:

-اتصلوا بك، فقلتُ لهم: إنه يستحم، اتصلوا بعد قليل. أصغى إليها "أوروج" وقال:

-ومن المتصل؟

-لم أعرفه، قال إن اسمه "بالامي".

-من؟

-"بالامي".

شعر "أوروج" أن قلبه قد انخلع من مكانه. "بالامي"! "بالامي" الذي توفي قبل عدة أيام، والد "حسين آغا" الذي قتل قبل ثلاث ساعات.

مما لا شك أن هذا الاتصال يتعلق بالحادث الذي وقع قبل ساعتين أو ثلاث. ربما لم يقولوا لها "بالامي"، بل قالوا: "أحد من أسرة بالامي". أو ربما لديهم قريب آخر يسمى "بالامي". على أية حال ذكر اسم "بالامي" في الهاتف اليوم وفي هذا التوقيت ليس مجرد صدفة عابرة، بالتأكيد له علاقة بالحادث الذي وقع منذ قليل.

وضعت "باكيزا" شايًا جديدًا لـ "أوروج" بدلاً من الشاي الذي برد.

قالت:

-ألستَ جائعًا؟

"كم كان اهتمام "باكيزا" ودقتها، وبصفة عامة سلوكها ووداعتها وقلة كلامها، أمرًا مهمًّا للغاية، كم كانت ذات قيمة عالية بالنسبة له – لـ "أوروج". لقد فكر "أوروج" في هذا الشأن، وكان على يقين تام بأنه لو اكتشف أمر الحادث (الجريمة) يومًا ما، ولو حتى أصبح متهمًا، أو حُكم عليه (هذا أمر وارد)، ستكون "باكيزا" ملجأه الوحيد وملاذه وسنده الأخير الذي يستند عليه. كان لا ينتظر مثل هذه الثقة والتضحية حتى من ابنه. فما بالكم ببقية الأقارب والأصدقاء. خطرت على باله في هذه اللحظة "أوفيليا". حسنًا أننا لم نلتق اليوم في المنزل الصيفي – كان فقط يمكنه أن يفكر فيها الآن من هذه الزاوية.

كررت "باكيزا" عليه سؤالها:

-ألست جائعًا؟ لم تذق طعم الطعام منذ الصباح.

بالفعل لم يأكل شيئًا منذ الصباح. ولكن ليس لديه رغبة. كان لا يرغب في الطعام مطلقًا. كان لا يريد أن يفكر في أي شيء. كان لا يرغب في أن يشاهد التلفاز الذي يعرض أخبارًا سيئة، أو يشعر بشيء أو يرى أحدًا. كان يريد أن ينعزل عن الدنيا تمامًا وأن يستريح وحيدًا تحت ظل هادئ وبارد. لقد تعب من الأصوات، والأشكال والكلمات ومختلف الأفكار. لقد تعب من الناس. لقد تعب من المرضى الذين يتصرفون كالأصحاء، ومن الأصحاء الذين يتحدثون كالمرضى. تعب من نفسه. كان شغوفًا لهدوء طويل لا نهاية له، وللصمت. الهدوء الأخير. لا يعني هذا الانتحار أو ما شابه ذلك، ليس له قوة أو عزيمة لهذا. فكان لا يستطيع قطع شرايينه في الماء الساخن في المسبح والموت مستريحًا. ولكن في النوم الموت

الوقتي – من دون تعب أو مشقة أو خوف أو ذعر.... ما أجمل هذا. فقط النـــوم، والرقود، وعدم الاستيقاظ ثانية. مطلقًا، مطلقًا....

ارتشف رشفة من الشاي وأغمض عينيه. أراد أن يمسح الأفكار التي تـــدور في ذهنه، وذلك المشهد المشؤوم الذي يتجسد في مخيلته، حاول التفكير في أشـــياء أخرى. حتى أنه أراد أن يتخيل لقاءاته مع "أوفيليا". شعر بغثيان. تـــذكر طفولتـــه، عند ملتقى النهرين وينبوع الماء الموجود داخل الغابة الكثيفة. فجأة شـــعر ببـــرودة ذلك الماء في قدميه، وامتلأت أذناه بخريره، وبدأ في نعاس بسيط مسترخيًا علـــى المقعد اللين.

دق جرس الباب. كان جرس الباب دائمًا يدق نغمة حزينة متجانسة (أحضر هذا الجرس من تركيا)، ولكن الآن ربما بسبب أن "أوروج" كان نائمًـــا، أو بـــسبب الاضطراب العصبي الذي يعانيه، خُيل إليه جراء صوت صفير الجرس أن قطـــارًا سريعًا يمر من أعماق أذنه.

انتفض ونهض على قدميه، وذهب إلى الباب. عادة كان يسأل أو ينظر مـــن العين السحرية الصغيرة ثم يفتح الباب. لم يسأل ولم ينظر من العين السحرية. فتح الباب مباشرة.

كان الشخص الواقف أمام الباب هو "بالامي". فيما بعد كان "أوروج" يتعجب من نفسه، ماذا حدث، لم يُغم عليه، ويُغشى عليه ويخر على الأرض. لقـــد وقـــف أمامه شخص يعرف أنه مات، وكذلك شخص قتل هو ابنه قبل ثلاث ساعات. هـــل عاد من العالم الآخر؟ هل قدم ليأخذ ثأر ابنه؟

ولكن لم يكن "بالامي" يشبه من جاء لأخذ الثأر أو للانتقام. كانت تعلو وجهه ابتسامة وتعابير تنم على الراحة والارتياح. بل كان يبتسم. لقد كان "أوروج" أثنـــاء اللقاء الأول والأوحد الذي جمعهما على قناعة تامة بأن رجلًا حاد النظرات مثل هذا

لم يضحك في حياته مطلقًا. والآن وجه الرجل الموجود أمامه هو الوجـه نفـسه: السنتان الأماميتان له كانتا من الذهب. كان يختلف هذه المرة عن المـرة الـسابقة بشيئين؛ هما: أنه ترك لحيته، والآخـر: تغيّـرت تعبيـرات وجهـه، كـان ودودًا ولطيفًا ومبتسمًا.

-اتصلت قبل قليل، فقالت الأخت أنك تستحم، فقلـتُ مـا دام يـستحم، إذن سيكون في المنزل، ولن يذهب إلى أي مكان. أصبح الجو باردًا فجـأة، والريـاح شديدة، فإذا استحممتَ وخرجت في مثل هذا الجو، يمكن أن تصاب بالتهاب رئوي. "نعيمًا". قلتُ أزور الطبيب "أوروج"، لن يطردني من على البـاب... هـل تـسمح لي بالدخول؟

-تفضل.

خلع "بالامي" معطفه في الممر، ثم بعد ذلك حذاءه. كانت الأفكار تدور فـي رأس "أوروج" بسرعة البرق. "ما هذا الأمر؟ لقد مات هذا الرجل. لكن من قال: إنه قد مات؟ "أوفيليا". ربما "أوفيليا" كانت تقصد رجلاً آخر تمامًا. أيوجـد فـي الـدنيا "بالامي" واحد فقط؟ حسنًا. هذا الجانب من القضية معروف. لم يمت هـو. والـذي مات شخص آخر، وجاء هذا حيًا سليمًا إلى هنا. إذن ليس لديـه علـم حتـى الآن بمصيبة ابنه. لو كان على علم بها، حتى ولو لم يشك في "أوروج"، كان على الأقل لن يبتسم بهذا الشكل... قبل ثلاث ساعات فقط فقد ابنه الكبيـر... ربمـا أصـابه الجنون. نظر "أوروج" في عيني "بالامي" نظرة فاحصة، وتابع حركة يديـه. لا... لا يشبه رجلاً أصيب بالجنون. على أية حال، بالتأكيد ليس عنده خبر بكارثة ابنـه. فلماذا إذن حضر إلى منزلي؟ ماذا كان هدفه؟

دخلا الحجرة. تفقد "بالامي" الحجرة بابتسامته الجميلة السابقة، وكان صامتًا. فكر "أوروج" قائلاً: "ربما يريد الآن أن يقاسمني منزلي هذا". ربما هذا مظهر جديد لهذا الانحراف النفسي، مقاسمة المنزل الصيفي ومنزل يمتلكه آخر.

أحضرت "باكيزا" الشاي، ووضعته أمام "بالامي". رفع "بالامي" رأسه وقال دون النظر إلى "باكيزا":

-أشكرك يا أختاه، نشرب في فرح أولادك.

ارتشف "بالامي" رشفة من الشاي، وبعد أن تفقد الحجرة بالكامل مرة أخرى، قال:

-نعم، الأخ "أوروج"، أود أن أقول لك: إن هذه الدنيا دنيا مثيرة، دنيا غاضبة. كنتُ أود أن أقول لك: إنني غير موجود في هذا البلد منذ أسبوعين، فقد ذهبتُ إلى إيران. جعل الله سبحانه لك نصيبًا أيضًا. ذهبتُ إلى "مشهد"، إلى زيارة الإمام. عدتُ اليوم بالباخرة. أخذتُ عهدًا على نفسي هناك بأنني أزورك أولاً قبل الذهاب إلى المنزل، وإلى الأولاد كان عندي نذر نذرتُه هناك عند المقام. والآن أقول لك النذر. أيها الأخ؛ لقد جئتُ لأقول لك إنني سامحتك في المنزل الصيفي. ولا أريد منك أي شيء. وليس لدي أي زعم أو ادعاء بشأن ذلك المنزل. كأن صاحب المقام الذي نذرتُ له وذهبتُ إليه أشار إلي: "يا "بالامي" ابتعد عن هذا الأمر. اتركه بطيب نفس، كم من السنوات عاشها الأرميني هناك، ولم نقل شيئًا. والآن عندما يعيش فيه المسلم تضايقه؟ دع الرجل يعيش ويستمتع به في هدوء. وأنت ما شاء الله لديك أسرة وأولاد. كان ما كان، وما فات مات. الخلاصة أيها الأخ، لقد جئتُ إليك لأقول لك، حلال لك هذا المنزل، عش واستمتع به. وكما قال المرحوم الشاعر "واحد":

يا واحد: الباقي في هذه الدنيا هو ملكه

كل ما دونه خراب بالنسبة لي

كان "أوروج" يفكر في أن "بالامي" سوف يذهب إلى القرية الآن، وعلى أيـــة حال سوف يشعر بفقدان ابنه في أقرب وقت. وسوف يبحثون عنـــه، وعـــاجلاً أو آجلاً سوف يجدون الجثة. وسوف تبدأ الكارثة آنذاك.

شرب "بالامي" شايه، ونهض على قدميه.

قال له "أوروج" ببذاءة تعجب منها هو نفسه:

-اجلس، إلى أين؟ اشرب كوبًا آخر من الشاي ربما أنت جائع؟

-لا، أشكرك، زادك الله من فضله. يجب عليّ أن أذهب، الأولاد ينتظرونني.

-كم عندك من الأبناء؟

ربما كان لا يسأل هذه الأسئلة هباء. فمن خلال مثل هذه الأسئلة الطبيعيـــة سيُثبت أنه ليس له دخل بقتل "حسين آغا".

-قلتُ لك عندي ولدان وبنت. الابن الأكبر هو "حسين آغا"، والابن الأصغر هو "حسن آغا".

حدّث "أوروج" نفسه قائلاً "كان يوجد "حسين آغا" الآن لا يوجد الابن الأكبر. الابن الأصغر هو الموجود على قيد الحياة فقط.

كان "بالامي" لا يعرف هذا الأمر حتى الآن، لذلك كان يبتسم. أمـــا "أوروج" فكان يعلم، ولكن كان يجتهد في أن يبتسم هو الآخر أمام ابتسامة "بالامي".

ودعه "بالامي" وذهب. لم يستطع "أوروج" النوم تلك الليلة حتـــى الـــصباح. وفي اليوم التالي – يوم الأحد كأنه يجلس على إبر توخذه. كان يرتعد من أي رنـــة للهاتف. كان ينتظر، في أي لحظة، أن يُدق الباب، ويأتون ويذهبون به. ولكن لـــم يطرق الباب أحد طوال اليوم. ورن الهاتف مرتين أو ثلاث، ولم يكن للمكالمات أي أهمية. كان الجار يسأل: هل الماء جاء أم لا، ومعارفه يسألون عن حاله وأحوالـــه،

وشخص غريب اتصل خطأ. قرابة المساء كان "أوروج" قد أُنهك وتعب، وتمدد على السرير ونعس ساعة أو اثنتين، وبعد ذلك استيقظ، ولم يستطع النوم حتى المساء.

نهض في السادسة صباحًا، واستحم، وحلق ذقنه بماكينة ماركة "فيليبس"، ووضع لقيمات من الطعام في فمه، فتوقفت في حلقه، وشرب كوبًا من الشاي واتجه إلى العمل ماشيًا.

عندما وصل إلى المستشفى، رأى وجهًا مألوفًا عند الباب. كانت "أوفيليا"، قدمت نحو "أوروج". وقالت: "أيها البروفيسور، يوجد لك رسالة". مدت يدها بالظرف. كان الظرف مفتوحًا، ولا يوجد بداخله شيء. كان "أوروج" على علم بمثل هذه الحركات الساذجة لـ "أوفيليا". قالت "أوفيليا" بصوت منخفض:

-أعتذر إليك. لم أستطع المجيء ذلك اليوم. لقد ارتفع ضغط أمي، وأعطيتها حقنة، ولم أجرؤ على أن أتركها وآتي. أتغضب مني؟

قال "أوروج":

-بالطبع لا.

لقد فرح بداخله، قائلاً: "ما أجمل هذه المصادفة، لم تظهر مشكلة أخرى". بعد ذلك تذكر أنه يجب أن يظهر لـ "أوفيليا" أنه لم يكن هناك ذلك اليوم، فقال:

-كنتُ أود أن أعتذر لك، لقد ظهر عمل لي فجأة، فلم أستطع الذهاب إلى المنزل الصيفي يوم السبت، وكذلك يوم الأحد. فتأثرتُ جدًا، وكنتُ أقول لنفسي: ستأتي "أوفيليا" الآن، وسترى أن الباب مغلق. جيد أنك لم تأتِ – كان يجب عليه أن يضبط الكلام مرة أخرى – بالطبع ارتفاع ضغط الدم عند أمك أمر غير جيد، كيف حالها الآن؟

-قست درجة حرارتها صباحًا. كانت طبيعية – بدت "أوفيليا" منكسرة الخاطر – إذن لم تأت أنت أيضًا. كاد أن يطيش عقلي وأصاب بالجنون بسبب أنك سوف تقلق...

كان حديثهما يمتد، وكان المارة يرمقان الاثنين بنظرات مريبة. ربما العلاقة التي بينهما كانت معلومة للكثير.

استقبل "أوروج" مريضين أو ثلاثة وكان يشعر بعدم التركيز، ولا يستطيع أن يجمع شتات فكره. فقال لمساعدته:

-أشعر بألم شديد في رأسي لسبب ما، يجب أن أذهب إلى المنزل.

بمجرد أن وصل إلى المنزل، فطن على الفور إلى أن حاله هنا سيكون أكثر سوءًا. كانت شكاوى المرضى المتعددة تُشغّل رأسه وسط زحام الناس في المستشفى. وكان وجود "باكيزا" قليلة الكلام لا يُذهب عنه الشعور بالوحدة والعزلة بالمنزل. كان "أوروج" يضجر صدره ويضيق أكثر. كان مضطربًا. وكان جسمه يتوجع وجعًا خفيفًا كأنه ينتظر حدوث شيء فظيع في أية لحظة.

مرت ثلاثة أيام على الحادث. لماذا لم يُحدث "بالامي" ضجيجًا إذًا؟ على الأقل بسبب غياب ابنه. لو أحدث ضجيجًا، ولو أخبر الشرطة، فعاجلاً أو آجلًا سوف تقتفي الشرطة أثره، وتصل إلى منزل "أوروج" الصيفي. مما لا شك فيه أن "حسين آغا" كان على دراية بادعاء والده بشأن المنزل، وقدم إلى "أوروج" جراء هذه الادعاءات. وكان لا يمكن أن يكون على علم بأن "بالامي" غير رأيه بعد زيارته لـ "مشهد". لم يلتق "بالامي" مع ابنه عقب عودته. ربما دار الحديث كثيرًا عن هذا الأمر في منزلهم. وكان لا يغيب عن بال "بالامي" احتمال أن يكون "حسين آغا" استطاع أن يذهب إلى "أوروج"، فيخبر "بالامي" الشرطة بهذا الشأن. وحينئذ – ودون شك–سوف تصل خيوط الأمر إليه، وعلى الأقل سوف يستجوبون "أوروج".

ولكن كل هذا كان من الممكن أن يحدث اليوم أو غدًا أو بعد أسبوع أو بعد شـــهر. علاوة على ذلك، لو لم يقم بزيارة المنزل الصيفي كما اعتاد أسبوعيًا، فهذا نفـسه يبدو شيئًا مريبًا. عاجلاً أو آجلا، كان يجب عليه أن يذهب إلى هذا المنزل، وآنذاك يجب أن يكتشف الجثة بنفسه. كان يجب أن يكتشف الجثة التي بدأت فـي التحلـل وانتشرت رائحتها في جميع أرجاء المنزل، ويُبلغ عنها إن لم يكتشفوا الجريمة حتى ذلك الوقت، فيجب عليه أن يُبلغ عنها بعد شهر أو شهرين على الأكثر، بالطبع دون أن يذكر الجاني. ولكن كان يجب عليه أن يعيش خـلال هـذا الـشهر أو الـشهر ونصف أو الشهرين وقلبه ينفطر. هل يستطيع تحمل هـذا؟ لا يوجـد فـي الـدنيا شيء أصعب من الغموض. كما يقال في الأمثال: "نهاية مُفزعة خير من فـزع لا نهاية له".

خطر بباله فجأة أن يأخذ الهاتف ويتصل بـ "بالامي". كم هو جيد أنـه لـم يمزق الورقة التي كتب بها رقم الهاتف، واحتفظ بها. بحث عنها ووجدها. حـسنًا، اتصلت به، ماذا بعد؟ ماذا سأقول له، عم سأسأله؟ بالرغم من أنه فكر كثيرًا، فإنـه كان لا يجد مبررًا لمحادثته.

أي تعامل يمكن أن يكون مع "بالامي"، وأي حديث ممكن أن يكون بينهمـا؟ فجأة خطر بباله أنه يمكنه أن يتصل ويسمع صوته. يمكن تحديد أشياء كثيرة مـن الصوت الذي يسمعه. لو اتصل واستمع له، يا ترى هل سيكون لذلك فائدة... ربما أصبح هاتف "أوروج" تحت المراقبة بالفعل. "والله أنت شخص شديد الارتياب".

رفع السماعة وطلب الرقم. بعد فترة سُمع صوت رجل. كان صوت "بالامي" تعرف عليه. كان الصوت هادئًا ومبتهجًا.

-نعم، أسمع، من؟

كان "أوروج" يصمت، فقال "بالامي" أيضًا:

-نعم، ألو.

ثم وضع السماعة.

لم يكن الصوت صوت شخص حزين أو مغتم. فلماذا إذًا لم يضطرب من اختفاء "حسين آغا"، لماذا لم يقلق؟

ظل يفكر حتى المساء، ووجد مبررًا. سوف يتصل بـ "بالامي" ويسأله عن رحلته إلى إيران. وسوف يقول إن له صديقا يريد أن يسافر إلى إيران ويرغب في أن يأخذ منك بعض النصائح. على سبيل المثال تكلفة الذهاب والعودة من وإلى إيران كم تبلغ؟ كان مبررًا فارغًا، ولكن لم يكن في حالة تساعده على أن يفكر الآن ويجد شيئًا آخر.

اتصل الساعة التاسعة مساءً. رد "بالامي" بنفسه هذه المرة أيضًا. كتم "أوروج" قلقه قائلاً:

-السلام عليكم، يا "بالامي"، معك الدكتور "أوروج".

-آه... السيد "أوروج". مرحبًا بك، كيف حالك؟ أمر غريب حقًا؟

كان الصوت مبتهجًا، بل فرحًا. كان لا يبدو عليه أي نوع من القلق.

تحدث "أوروج" عن كذبته بشأن نية أحد أصدقائه للسفر إلى إيران، وسأله الأسئلة. واستمع للرد، وعندما اقترب من نهاية المكالمة سأل عن أحواله قائلاً:

كيف حال الأولاد؟

قال "بالامي":

-أشكرك، يدعون لك. "حسن آغا" يعمل ويعتني بالبستان و"حسين آغا" ذهب بالورود إلى السوق في موسكو.

فكر "أوروج" في أنه ربما "بالامي" مثل الفلاحين الآخرين يزرعون القرنفل في الصوب ويرسلونها إلى أسواق موسكو. ربما يظنون الآن أن "حسين آغا" في موسكو، لذلك هم مطمئنون، لا يفتقدونه أو يبحثون عنه. كان "أوروج" يُدرك أن السؤال الذي سوف يسأله سيُكلفه الكثير فيما بعد، ويُثير الشكوك، ولكن لم يستطع أن يتمالك نفسه، فسأل هذا السؤال الخطير:

-متى ذهب "حسين آغا" إلى موسكو؟

عندما قال "بالامي" له: "ذهب أمس"، كادت سماعة الهاتف أن تقع من يده. فأنهى المكالمة معه بسرعة ووضع السماعة مكانها.

كان يشعر بأحاسيس غريبة. كان لا يعرف أيفرح أم ماذا؟ كان لديه سبب للفرح. جميع أفراد أسرة "بالامي" سالمون. لم يصبهم "أوروج" بأي أذى. والرجل الأمهق الذي قتله بالمنجل لم يكن "حسين آغا" (لم يخطر بباله مطلقًا لماذا ابن رجل أسمر قمحي مثل "بالامي" يكون أمهق). لو كان ذلك الشخص هو "حسين آغا"، ولو كان قد خرج ولم يمت (لم يكن لدى "أوروج" بصفته طبيبًا أدنى شك في موته)، ولو كان عاد إلى وعيه بعد ذلك، ورجع إلى منزله، فلن ينسى على أية حال أن الضربة المميتة التي تلقاها كانت على يد "أوروج"... إذن، لم تكن الجثة الموجودة في ذلك المنزل هي جثة "حسين آغا". ألف شكر...

ولكن لمن هذه الجثة؟ لماذا قدم نفسه على أنه "حسين آغا" ابن "بالامي"؟ ومن أين كان يعرف موضوع المنزل الصيفي؟ ماذا كان هدفه؟

رغم فرحه الشديد بسلامة "حسين آغا"، فقد كان هذا اللغز يؤرقه. قتل من؟ وبأي هدف تسلل ذلك الشخص إلى منزل "أوروج"؟ مهما كان السبب، فقد قتل "أوروج" الشخص. بالرغم من هذه الصدمة الناجمة من قتل شخص لأول مرة والمرة الوحيدة في حياته، فإن الخوف من اكتشاف هذه الجريمة وبصفة عامة

الذعر من هذا الحادث الغريب الذي لا معنى له كان يهز كيان "أوروج" هزًا. هل كان هناك أحد يستطيع أن يشاطره مخاوفه وقلقه وافتراضاته المخيفة، أو يتقاسم معه هذه الأمور؟ لا أحد مطلقًا.

لم تذق عيناه طعم النوم في تلك الليلة، وعندما رأى عينيه الكئيبتين شديدي الحمرة وهو يحلق ذقنه، والهالات السوداء تحتهما، ووجهه الذي علته الصفرة الشديدة، عندما رأى هذا كله أيقن أنه لم يبق لديه القدرة على العيش ليلة أخرى بهذه الصورة. كان لا يستطيع أن يذهب إلى العمل في هذه الحالة أيضًا. وسوف تفهم "باكيزا" حاله عاجلاً أو آجلا، إن لم تكن فهمته بعد. (كان يتهرب منها بقوله: "رأسي تؤلمني جدًا"، وكان يرفض استدعاء الطبيب، وكان يتناول حبوبًا لألم الرأس كذبًا).

لقد أنهك أرق الليالي الثلاث "أوروج" وأتعب عقله، وبالرغم من أنه حطم أعصابه، كان يسعى إلى أن يُرتب أفكاره والخطوات التي يريد أن يخطوها بشكل منطقي. من الواضح أن الشخص الذي قتله لم يكن هو ابن "بالامي"، وبصفة عامة ليس له دخل بتلك الأسرة. إذن يستبعد الدوافع العدائية أو الشخصية عن هذا الأمر. لو كان "حسين آغا" قد قُتل، فمما لا شك فيه أن "بالامي" كان سيتهم "أوروج"، وكان سيسعى بأية طريقة إلى أن يقتص منه. أما المقتول فهو شخص مجهول. ومما لا شك فيه أن "أوروج" سوف يتحمل مسئولية هذه الجريمة. ولكن كان لا يستطيع أن ينتظر شهورًا لاكتشافها. ربما كان هذا الرجل الأمهق أحد المتشردين. ولن يفتقده أو يبحث عنه أحد مطلقًا...

ولكن كان موسم الصيف يقترب، وستبدأ الحرارة في الارتفاع، وعلى أية حال سوف يضطر إلى الذهاب إلى المنزل الصيفي عاجلاً أو آجلاً، وحينئذ سوف ينكشف أمر هذه الجريمة بشكل أبشع وأفظع. وسوف يُشرّحون الجثة ويحددون بالتقريب وقت القتل، وآنذاك سوف يشكون في "أوروج" وكيف أنه لا يذهب إلى

المنزل الصيفي منذ شهرين أو ثلاثة. هناك أناس كثيرون يعرفون أنه يذهب إلى هناك مرة كل أسبوع أو اثنين... فـ "باكيزا" كانت تعلم، ورفاقه كذلك يعرفون... وننحي "أوفيليا" جانبًا الآن. فلو امتنع عن اللقاء مع "أوفيليا" لمدة طويلة، فهذا أيضًا سوف يتسبب في المشكلات.

لا... انظر إلى الأمر من أي ناحية تريد، ولكن لا يمكن إطالة هذا الأمر. يجب عليه أن يذهب إلى المنزل الصيفي اليوم، يجب أن يكتشف" الجثة، ويُخبر الشرطة في الحال. يجب عليه عمل أمر واحد من أجل أن ينجو من هذا الأمر، وهو أن يتماسك ويتمالك نفسه، ويجمع كل قوته ويحافظ على هدوئه وسكينته. أي كأنه بريء وغير مذنب على الإطلاق. أما أنه يشعر بالقلق من هول الموقف ويفقد أعصابه ولو قليلًا، فسوف يبدو هذا طبيعيًا – تأتي وترى في منزلك جثة شخص ما – فبالطبع سوف تضطرب وتهتز وتفقد أعصابك.

لا... يجب عليه أن يذهب اليوم بالتأكيد. يجب وضع حد لهذا المجهول. ويجب ألا يقول لـ "باكيزا" شيئًا. بعد أن يذهب ويرجع سوف يحكي لها كل شيء بالشكل الذي سوف يحكيه للشرطة بالطبع. سوف يجد مبررًا لضرورة ذهابه إلى المنزل الصيفي اليوم بالذات. سيقول: "اشتريتُ إطارات جديدة للسيارة ووضعتها في المنزل الصيفي. – وهذا الأمر صحيح حقًا – وذهبت لهذا الأمر". وصعدتُ إلى الحجرة العلوية لأخذ شريط كاسيت، وآنذاك رأيتُ ... " وإلى آخره.

كان اليوم باردًا تعصف به الرياح. وكلما كان يقترب من المنزل الصيفي، يبدأ رذاذ المطر في النزول. لم يُدخل السيارة إلى فناء المنزل، ركنها في الخلف. دخل إلى حديقة المنزل. ألقى نظرة حوله. لا يوجد أي تغيير. كان كل شيء كسابق عهده. شجرة التوت، أشجار التين، أسلاك الضغط العالي التي تمتد فوق المنزل، البئر، حمام السباحة، أشجار العنب، الجراج، الساونا، المنزل ذو الطابقين. لم يفتح

باب الطابق الأول. صعد إلى الطابق الثاني، خرج إلى الشرفة، واقترب من باب الحجرة.

كان هناك مفتاح مرة أخرى في باب الحجرة. لمعت عينا "أوروج"، لقد ألقى هذا المفتاح الثالث في البئر، ربما هذا ليس المفتاح الثالث، بل الرابع. بدأ المفتاح يدور من تلقاء نفسه، ودار حتى النهاية، وتوقف. الآن الباب مفتوح.

على أية حال كان قلبه الذي ينبض بسرعة كاد أن ينخلع ويخرج من بين أضلاعه. وحين فتح الباب ودخل إلى الحجرة، كأن قلبه توقف فجأة، كأنه انخلع وسقط على الأرض.

اسودت عينا "أوروج". وثقلت رأسه، وكاد أن يُغمى عليه. اجتهد في أن يجمع قواه، وإلا فقد توازنه.

لم يكن على أرضية الحجرة آثار للدم، ولا الفأس الملطخ بالدماء، ولا جثة الشخص الأمهق. تمدد الأمهق فوق سريره بنفسه، وهو في كامل صحته، وليست جثته. ولم يكن في جبينه أو رأسه أي جُرح أو دم أو ما شابه ذلك. وعندما رأى "أوروج" نهض على قدميه بهدوء متكاسلًا. فقال "أوروج":

-أأنت؟ ألا زلتَ هنا؟

قال الأمهق:

-ها أنا، "حسين آغا". الابن الأكبر لـ "بالامي". جئتُ إلى منزل جدي وأبي.

سمع "أوروج" هذه الكلمة مرة قبل ذلك. وكان يسمع تكرارها تمامًا مرة أخرى. كانت نظرة "حسين آغا" وحركاته (إن كان هو بالفعل "حسين آغا") هي نفسها التي كانت في ذلك اليوم. والمدهش في الأمر أن "أوروج" كان يعرف كيف

ستجري الأحداث. أدرك ذلك ... وكان من المستحيل التصدي لسير الأحداث على هذا النحو -كان يعلم ذلك أيضًا.

كأن المتحدث ليس "أوروج"، كأنه شخص ما يكرر من خلال صوته هو الكلمات نفسها التي قالها قبل أربعة أيام:

-انصرف من هنا، واذهب إلى حال سبيلك. أضاف "أوروج" جملة جديدة فقط بنفسه، وحسب رغبته.

-لا تلطخني بالدم.

وقف "حسين آغا" -إن كان هو بالفعل-صامتًا، لا يتحرك، مصلطًا عينيه على وجه "أوروج"، وكان "أوروج" كالآلة يكرر الكلمات التي قالها في ذلك اليوم كلمة كلمة: "أنا الذي قمت ببناء هذا المنزل... إدارة المصايف... والدك أيضًا جاء لي..."

كان الأمهق يصمت. كان يصمت صمتًا كاملاً. لحظة خطيرة، حادث مدهش يقترب كالقطار السريع، يقترب لحظة بلحظة، يندفع من مكان ما نحوهما.

استرق "أوروج" البصر لينظر تحت سريره، لأنه كان يعرف ما الذي يوجد تحت سريره، وكان يعرف أيضًا ما الدور الذي سوف يلعبه المنجل الموجود تحت السرير في الشجار الذي سوف يحدث بعد عدة ثوانٍ. وقد تبقى عدة ثواني على النهاية المدهشة، وعندما حان الوقت، أخرج المنجل من تحت سريره، وهجم على "أوروج". كان "أوروج" لا يخاف من هذا الهجوم، لأنه كان يعرف نتيجته، كان يعرف أنه لن يحدث له – أي "أوروج" -شيء. ولكن كان يخاف أيضًا لأنه يعرف هذه النتيجة. كان يعرف أنه شاء أم أبى سوف يجب عليه قتل الشاب الذي أمامه (أيا كان هذا الشاب).

تشاجرا قليلاً. وأمسك كل منهما المنجل من مقبضه يجذبه كل منهما نحوه، ولكن عندما سنحت الفرصة أصبح المنجل في يد "أوروج"، وعندما لكم الأمهق "أوروج" لكمة، ضربه "أوروج" بالمنجل على رأسه. فخر الأمهق على الأرض. وانتثر الدم أيضًا فوق البطانية كما حدث في ذلك اليوم بالضبط.

خرج "أوروج" من الحجرة. أخرج منديله، ولم يمسح بصمات أصابعه هذه المرة. ليس لهذا أي معنى على الإطلاق. كان لا يستطيع التفكير في أي شيء بعد، أو يتوصل إلى أي نتيجة منطقية. فتذكر من واقع تجربته المهنية أغرب الاضطرابات النفسية، كنا نعرف بالتحديد أنه لم يصبه الجنون، ولم يختل عقله. ولكن كان لا يستطيع أن يفهم تكرار التسلسل المنطقي لهذه الأحداث الغريبة. تذكر فرضية شبه خيالية قرأها في مكان ما وقتًا ما، مفادها: أن بعض الناس يمكنهم بالفطنة أن يشعروا ويروا ويعيشوا مسبقًا بشكل حي الحادث الذي سوف يحدث في المستقبل. لقد رأى وعاش قبل أربعة أيام بشكل واضح الحادث الذي وقع الآن. أي أن الجريمة التي وقعت ذلك اليوم كانت خيالًا، تهيؤات...

تذكر أيضًا أن أحدًا من المرضى حذره: لقد سحر الأرميني هذا المنزل، أي وضع مادة سامة على جدران المنزل. ربما توجد حقيقة لهذه الأوهام الجنونية – توجد عقاقير تسبب الهلوسة... وتأثيرها في العقل ثابت علميًا. بصفة عامة ألم تُربك أحداث هذه السنوات الأخيرة عقل الجميع بشكل أو بآخر، وتُضللها، وتُخرجها عن صوابها، علاوة على من قال إن الإنسان على علم بجميع أسرار الطبيعة وطلاسمها. كم في الدنيا من أسرار وطلاسم لم يُفصح عنها... التفت نحو الحجرة – وهذا أيضًا أحدها.

نزل إلى أسفل. كانت الرياح عاتية، والمطر شديد. فجأة تخيل "أوروج" أنه حدث في المنزل شيء آخر، وأن هذا الأمر غاية في الأهمية، وهو موضوع حياة وموت لدى "أوروج".

لكن كان لا يستطيع مطلقًا فهم ما حدث وتحديده، رغم محاولاته المتعددة.

أما عندما جاءت اللحظة التي سوف يستطيع أن يفهم فيها، فات الأوان – أي أنه لم يستطيع أن يدرك ما الذي حدث إلى الأبد...

بسبب قوة الرياح، انقطع سلك كهرباء الضغط العالي وسقط في حديقة المنزل. كانت الحديقة مبتلة جدًا بسبب المطر. كانت الشرفة الموجودة تحت المظلة جافة تمامًا.

وما أن وطئت قدم "أوروج" الأرض المبتلة متجهًا من تحت شرفة الطابق الأول، احترق وتفحم.

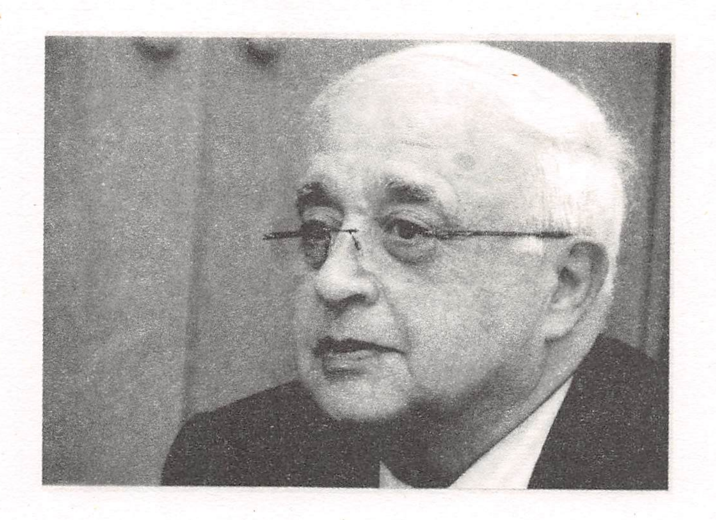
اكتشفوا جثة "أوروج" بعد يومين من موته. كان يوجد اجتماع مهم. بسبب أن "أوروج" لم يكن في المنزل أو العمل، فمن الطبيعي أن يرسلوا خلفه أحدًا. كان هذا الشخص هو السائق "مهدي".

رأى السائق "مهدي" سيارة "أوروج" عند الباب، فدق الباب كثيرًا، عندما لم يفتح الباب، تسلق السور، ونزل الحديقة. كانت الحديقة آنذاك جافة تمامًا، في بداية الأمر لم يفهم السائق "مهدي" أن الجثة المتفحمة الملقاة على الأرض لـ"أوروج". فهم بعد ذلك، ولكنه لم يستطع أن يفهم أيضًا ما سبب موته، ولماذا تفحم هكذا. أخبر بالأمر، جاءوا وحملوا جثمان "أوروج" إلى المدينة.

صدر النعي في الجرائد، وأقيم العزاء في المستشفى ودفنوه في المقابر الشرقية الثانية. وحضر مراسم الدفن أفراد عائلته (ابنه أيضًا قدم من السفر)، وأصدقاؤه، وزملاء العمل، وأقاربه، وجيرانه، ومعارفه. كانت "أوفيليا" منزوية جانبًا وتجهش بالبكاء. ورافقه حتى القبر "بالامي" وابناه الاثنان "حسين آغا" و"حسن آغا".

(٩)

قصة "مصير قاشي"



الكاتب/ إلتشين

(١٩٤٣م)

حصل على لقب "كاتب الشعب"، و"خادم الفن القدير الأذربيجـاني"، وكـذلك حاصل على درجة الأستاذية. له العديد من الروايـات والقـصص والكتـب مثـل "المرثية"، و"بعد عشر سنوات"، و"أول حب لــ (بـالادداش)"، و"حكايـة الـشتاء"، و"السقيفة"، و"حكاية العندليب"، و"حمام زفاف (بالادداش)"، و"حـادث سـيارة فـي باريس"، و"خمس دقائق والخلود"، و"العروس الصفراء"، و"قصة قراباغ"، و"تـاريخ اللقاء الأول"، و"بقاء الدجاجة على قيد الحياة"، و"حكم بالإعدام". ترجمت أعماله إلى معظم لغات العالم. ألّف أكثر من عشر سيناريوهات لأفلام إبداعية ووثائقية. حصل على جائزة الدولة، كما حصل على العديد من الجوائز المحلية والعالمية. وحـصل على وسام "الشهرة"، ووسام "الشرف" بعد استقلال أذربيجان.

قصة "مصير قاشي"

للكاتب / التشين

(١)

انفلق الصباح، إلا أن نور الكون لم ينبلج هذه المرة - كانت الساعة حوالي الخامسة صباحًا. بشكل لا إرادي وخلال نومه انتظر الرجل ذلك الصياح المزعج للديك في قلق، وبالفعل بعد عشر أو خمس عشرة ثانية - استغرقت هذه الثواني أثناء النوم وقتًا طويلاً - عم صياح ديك كبير أرجاء فناء المنزل، وكذلك شرفة منزل "مولا زيد الله" ذى النوافذ الزجاجية.

لقد أثر صياح هذا الديك في الرجل، لدرجة أنه ضايقه بشدة ولم يتمالك نفسه، فسب الديك وصاحبه.

مع أنه همس بهدوء، إلا أن زوجته "خير النساء" كانت متيقظة كالعادة، فسمعت صوته وهي نائمة، فقالت:

-أيها الرجل، أليس عيبًا عليك هذا؟ فضلاً عن أنك مُلا "شيخ".... ثم بعد ذلك استدارت على جنبها الآخر، وواصلت نومها اليقظ الجميل.

نهض "المولا زيد الله" في حالة نعاس جالسًا على سريره، وأخذ نفسًا عميقًا وفرك جبينه بأصابعه ذات الشعر حالك السواد. ولأنه رجل مؤدب، كان في شدة الخجل من الكلمات التي صدرت عنه دون وعي، أخذ يفكر كيف دفعه هذا الديك لأن يصل إلى هذه الحالة، وتصدر عنه مثل هذه الكلمات، فضلاً عن أنه بجوار زوجته.... ثم نظر إلى "خير النسا" التي تنام وظهرها تجاهه، شعر بالهدوء هذا

الصباح لأن صياح الديك لم يقلق زوجته. وأنها تستطيع أن تنام حتى تشبع. حقيقة، لم يؤثر هذا الصياح الكريه في "خير النسا". لقد واصلت بعد صياح الديك الحلم الذي كانت تراه، تثاءب "المولا زيد الله" وتمطى بشدة.

منذ مدة طويلة وهو يعاني من صوت صياح الديك في الصباح الباكر ولاسيما في أشهر الصيف شديد الحرارة، كان لا يستطيع أن يتلذذ كسابق عهده بجمال وقت الصباح بسبب هذا الصياح المرتفع الكريه الذي يتزايد يومًا بعد يوم.

عمل "زيد الله" أكثر من ثلاثين عامًا مدرسًا للألعاب الرياضية في المدرسة الإعدادية أثناء الحكم السوفيتي، وأحيل للتقاعد. وعقب انهيار الاتحاد السوفيتي، بدأ بالعمل شيخًا، ولكنه في أعماق قلبه، لم يكن رياضيًا ولا واعظًا. كان شاعرًا. ولكن ليس بالمعنى المتعارف عليه، كان يقرض الشعر، وكان يعتبر نفسه إنسانًا ذا طبيعة شاعرية، وكان على حق في هذا الرأي. كان طيلة حياته جارًا "للمولا زربالا" صاحب ذلك الديك. وكان يستيقظ صباحًا بنفسه من النوم وليس على صياح الديك. وكان الإنصات لزقزقة العصافير وهو على السرير، ولصوت البحر، ولهبوب الرياح في الأيام العاصفة هو أجمل أوقات الحياة لهذا الرجل ضخم الجثة والذي يبدو على وجهه وبلحيته المتناثر عليها بعض الشعيرات البيضاء الحزن، وهو في ذلك السجن!!

تخرج "زيد الله" في معهد تربية رياضية في الخمسينيات، وعمل أكثر من ثلاثين عامًا في إحدى المدارس بمدينة باكو، وكان كل يوم في الصباح الباكر يركب القطار الكهربائي من المحطة الموجودة في نهاية القرية، ويذهب إلى "باكو". وكان يعود في المساء. ولكن لم تكن هوايته الأصلية هي تدريس التربية الرياضية، بل الشعر الكلاسيكي وعالم شخصيات هذا الشعر، وكذلك التاريخ والفلسفة الإسلامية. وكان يعرف -إلى حد ما- اللغتين العربية والفارسية اللتين تعلمهما بنفسه.

كانت المسافة بين باكو وهذه القرية الموجودة بمنطقة "أبـشيرون" تـستغرق حوالي خمس وثلاثين دقيقة بالقطار الكهربائي، وكان السيد "زيد الله" خـلال هـذا الطريق -ذهابًا وإيابًا -لا يفكر في إنجازات الطلاب الرياضية فـي المـستقبل أو حتى في صحتهم، بل كان يفكر في أسرار أشعار الشاعر "فـضولي"، ورباعيـات الخيام، ولأنه رجل لديه ضمير، كان أحيانًا يعيش إحساسًا يشبه الخجل من نفـسه، بسبب اللامبالاة التي لديه بشأن نشاطه التربوي.

ولكن ماذا عساه أن يفعل، الله يخلق كل إنسان مختلفًا عـن غيـره، وربمـا بسبب كل هذا، استقبل أهل القرية موضوع انشغاله بالوعظ عقب انهيـار الاتحـاد السوفيتي بشكل طبيعي. كان "المولا زيد الله" شيخًا ورجل دين مشهور لـيس فـي قريته فحسب، بل في قرى "آبشرون" المجاورة، وبالرغم من أنه كان طاعنًـا فـي السن، إلا أنه كان يبدو شابًا، وكان الجميع يفسر ذلك بأنه لا يـشرب الخمـر، ولا يشرب السجائر، وأنه يبدو قنوعًا في الموائد التي تنصب أثناء العـزاء، وبعـضهم يبرر هذا بأنه مرتبط بالرياضة. بالتأكيد كان "زيد الله" لا يمارس أبدًا الرياضة فـي الصباح، ولكن هناك شيئًا من الحقيقة في التفسيرات الأخرى، ومع ذلك كان يعرف أن السبب الحقيقي في بقائه صحيح البنية على هذا النحو، هو أنـه يعتبـر نفـسه شخصًا سليم الطوية، وليس عنده ذرة حقد، وكان يجتهد في الاسـتمتاع بالطبيعـة، وكان مخلصًا مع الله ومع دينه، وكانت أشعار الشعراء "نظامي"، و"حافظ"، و"مولانا جلال الدين الرومي" تتردد في ذهنه باستمرار.

كان لدى "المولا زيد الله" سر عزيز وخاص جدًا، لا يعرف هذا السر سوى الله في السماء، و"خير النسا" والطبيب "جعفروف" في الأرض، لأنه كان يخجل من إفشاء هذا السر ... لماذا كان يخجل؟ كان هذا حياء فطريا، ولا يمكن التعبير عـن هذا الشعور بالكلام. الموضوع وما فيه أنه في الثلاث أو الأربع سنوات الأخيـرة كان الإلهام يأتيه فجأة فيتناول القلم دون أن يشعر، ويكتب الأشعار التي تجود بهـا

قريحته على الورق، وبذلك تتكون غزليات شعرية كلاسيكية لديه. كان من المستحيل أن يخفي عملية كتابة هذا الإبداع المفاجئ عن "خير النسا"، كانت "خير النسا" تعلم أن "زيد الله" ينظم الشعر، ولكن لا تعرف ما بداخل هذه الأشعار، لأنه كان يقرأها عليها، ولم يكن لدى "خير النسا" هي الأخرى رغبة في سماع هذا الشعر.

كانت الأطعمة التي تطبخها "خير النسا" مثل "الكفتة"، و"الأرز" و"الفطير باللحم" مشهورة في القرية كلها، عندما كان "زيد الله" يأكل تلك الأطعمة اللذيذة التي تطبخها زوجته، فإنها كانت تتلذذ بذلك أكثر من "زيد الله" نفسه. خلاصة القول، كانت "خير النسا" تعرف فقط أن "زيد الله" ينظم الشعر، وهذا وحده يكفي لأن تفخر بكون زوجها شاعرًا.

كان الطبيب "جعفروف" هو الآخر يعرف موضوع هذه الأشعار، لأنه كان صديق الطفولة لـ "زيد الله"، كان الطبيب "جعفروف" معروفًا في القرية بأنه رجل متعلم، ومؤدب وحاذق في عمله، لذلك كان "زيد الله" يستأمنه -هو فقط- على سره، فكان يقرأ له من حين لآخر هذه الأشعار. لقد عاش الطبيب "جعفروف" فترة في روسيا، وأصبح مثل الروس بعض الشيء، لذلك كان لا يفهم بعض الكلمات العربية والفارسية الموجودة في الشعر، فكان "زيد الله" يشرحها له، وكان يقوم بهذا العمل بشغف. وكان إلقاء شعره بصوت مرتفع وشرح معانيه لـ "جعفروف" يُضاعف بهجته.

كان هذا الصياح الفظ لديك "زربالا" في الآونة الأخيرة يفسد تمامًا على "المولا زيد الله" حياته بفضل حبه وشغفه بالشعر الكلاسيكي. كان يُدعى في المساء إلى حضور سرادقات عزاء علية القوم ليس في قريته فحسب، بل في القرى المجاورة، وكان يقوم بالوعظ وإدارة هذه السرادقات. أما في الصباح، فكان لا

يستطيع أن يشبع من نومه بسبب صياح ذلك الديك، ويشعر بالأرق طيلة اليوم؛ وكان هذا الأمر يُحدث ارتباكًا واضحًا في حياته ومعيشته اليومية التي اعتاد عليها، ولاسيما في أشهر الصيف هذه؛ تنشر "خير النسا" غطاء السرير في الشرفة لأن الحجرة تكون حارة، وهذه كانت عادة حياتهم معًا منذ حوالي خمسين عامًا. كأن ذلك الديك كان يصيح بصوته الغليظ ليس في فناء المنزل المجاور، بل في أعماق أذن "زيد الله"، فكان يستيقظ من نومه، ولا يستطيع أن ينام مرة أخرى.

تنبهت "خير النسا" من نومها قليلًا، ثم عاودت النوم العميق من جديد، ولكن مهما حاول "زيد الله" كان لا يستطيع أن ينام مرة أخرى. نهض من نومه ليس بسبب زقزقة العصافير أو صوت الحجر، بل بسبب صياح الديك قبل أوانه، كان يفكر بشكل تلقائي – كالمعتاد–في أنه سوف يستيقظ في اليوم التالي على صياح الديك قبل طلوع النهار، بدلاً من أن يتذكر كلام المفكرين العظام أو أفكار كبار شعراء الشرق الجميلة. لم يكن لديه رغبة كسابق عهده للنزول إلى فناء المنزل قبل تناول الإفطار، وأن يتجول وسط الورود والأزهار والأشجار وهو يفكر في هذه الأشعار الجميلة. كان يجلس في الشرفة وهو يحرك مسبحته منتظرًا "خير النسا" تستيقظ من النوم لتُعد له الطعام.

كان كل هذا يجلب إلى ذهن المولا "زيد الله" العديد من الأفكار التشاؤمية المتعلقة بمعنى الحياة والموت والآخرة، والتفكير في مثل هذه الأفكار في الصباح الباكر بفضل صياح ذلك الديك الكريه الذي كان يُزيد من ضيق الرجل.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الإلهام كان لا يأتي بعد صياح هذا الديك الضخم في الصباح الباكر....

(٢)

اشتهر ديك "زربالا" في غضون عدة أشهر في القرية وفي جميع القرى المحيطة أيضًا، كما اشتهر "زربالا" ذاته بسبب هذا الديك، فلا يوجد سبب يجعل "زربالا" مشهورًا سوى أنه صاحب هذا الديك.

يمكنك أن تجد جميع ألوان الدنيا في ريش وأجنحة وعُرف وذيل ديك "زربالا" الطويل المسمى "قاشي"، وكان هذا الريش والعُرف المنتصب يتلألأ في ضوء الشمس، ويعكس كل الألوان. كان ينصب رقبته الطويلة كأنها ستصل إلى عنان السماء، وكأنه يلقي نظره على الكرة الأرضية من أعلى، أما منقاره ذو اللون الرمادي الداكن فكان يشبه منقار النسر تمامًا، وكان له صدر عريض، ومخالب ضخمة، خلاصة القول، لم يكن "قاشي" ديكًا، بل معجزة الدنيا الثامنة.

قال أحد سكان القرية عن هذا الديك:

-آه، هذا "قاشي"، هو "قاشي" بالفعل.

منذ هذه اللحظة وأصبح اسم الديك هو "قاشي" للأبد. كان أحد أشد المعجبين والمشجعين لـــ "قاشي" هو "فيضي بك" الذي قدم من إسطنبول ويعمل طبيب أسنان في مركز ترفيهي يسمى (الذات رقم ١) المقام حديثًا على شاطئ البحر، عندما رأى "فيضي بك" لأول مرة "قاشي" في الميدان سأل:

-ما معنى "قاشي".

كان شباب القرية يردون على أسئلته دائمًا بشغف، وهذه المرة أيضًا اجتهدوا في الرد عليه بلهجة إسطنبول، وحاولوا الشرح لطبيب الأسنان قائلين:

-"قاشي" هو اسم سامٍ في الحكايات الخرافية الروسية، ويوجد فيلم جيد عنه يسمى "قاشي الخالد"، لأن قلب "قاشي" فوق طرف إبرة، والإبرة داخل بيضة، والبيضة في بطن بطة، والبطة في بطن الأرنب، والأرنب داخل صندوق،

والصندوق معلق في شجرة بلوط ضخمة، ولا أحد يعرف مكان هذه الشجرة الضخمة سوى "قاشي"، وهو يحافظ عليها مثل حدقة العين.

اقتنع "فيضي بك" بهذا الرد. وأعجب بموضوع حفظ قلب "قاشي" في مكان آمن، لأن هذا الديك كان في الحقيقة شيء مثل ذلك الساحر الذي يسمى "قاشي"، وكان من المستحيل أن يفوز عليه أحد، وكان "فيضي بك" على ثقة تامة بأنه لو كان "قاشي" في إسطنبول، فلن تستطيع أن تغلبه ديوك ميدان "تقسيم".

القضية هي أن ديك "زربالا" "قاشي" هذا كان البطل الأول في صراع الديكة في قرى الساحل الموجودة بمنطقة "آبشرون"، كان يتجمع أناس كثيرون في معارك صراع الديكة التي يشارك فيها "قاشي"، لدرجة أن الجزار "ميرزا آغا"- أحد المشجعين القدامى لمثل هذه المباريات- كان يقول:

-آه، يا "زربالا"، أعرف قيمة هذا الـ "قاشي"! أقسم بحياتك أنني لم أر في حياتي مثل هذا العدد من الناس تأتي لمشاهدة الديكة...!

كان هناك شرطي يتلعثم في الكلام يسمى "صَفَر"، كان يعمل أيام الاتحاد السوفيتي شرطيًا، ويطرد المجتمعين لمشاهدة صراع الديكة في القرية، ولا يدع أحدًا يجمع أية نقود للرهان على صراع الديكة، وكان يأخذ الذين يجمعون النقود إلى قسم الشرطة بالقرية (في الحقيقة، كان يطلق سراحهم بعد أن يأمرهم بعدم تكرار ذلك)، أما عقب انهيار الاتحاد السوفيتي، فقد تحول هو نفسه إلى أحد أشد المتعصبين والمشجعين لصراع الديكة، كان "سفر" يقول:

-الأخ – خ – خ يقول الصواب، أعرف قي – م – م مة "قاشي"!...

كان "قاشي" عندما ينقض كل مرة على منافسه، وينزل به الضربة القاضية، كان المشجعون الذين تحلقوا حول ساحة النزال، يقولون عن تأثير هذه الضربة:

-ما شاء الله...!

-هذا ليس ديك، هذا تايسون، تايسون...!

-أقسم لك، هذا لم يولد من بيضة دجاجة، بل من بيضة نسر...!

كان هناك رجل يدعى الأستاذ "مظفر" مدير مركز الأوبئة بالقرية، وأحد من ترشح ثلاث مرات متتاليات في انتخابات البرلمان الأذربيجاني ولم ييأس رغم أنه لم يُنتخب، وكان قد حصل على المركز الرابع في بطولة الاتحاد السوفيتي لرفع الأثقال عام ١٩٧١. لم يستطع الأستاذ "مظفر" أن يتمالك نفسه، وكان الذي يصارع ليس "قاشي"، بل هو "زربالا"، فصاح قائلاً:

-شكر يا "زربالا"... أحسنت ...

بالتأكيد، كان هذا التصفيق يُشعر "زربالا" بالفخر، ولكن في الأصل كان بداخله فخر كبير بـ "قاشي". فمعرفة قيمة "قاشي" أمر عظيم، فهذا الديك هو بالنسبة لـ "زربالا" أعز، وأحب، وأغلى مخلوق في الدنيا بعد ابنه "جولبالا".

كان "جولبالا" ذو الأربع سنوات هو ابن "زربالا" الوحيد الذي وُلد بعد زواج دام سبع سنوات بـ "أمينة"، كان "جولبالا" طفلًا محظوظًا بفضل "قاشي"، أي لم يكن لدى "زربالا" مشكلة في شراء أطعمة مملوءة بالفيتامينات من أجل الطفل.

كان من بين المشجعين الذين دفعوا الرهان للخال، "عباد" الذي كان يقوم بدور المحصل، فيضع – بسعادة بالغة–النقود في جيب من يكسب الرهان ، أما الخاسرون فكانوا ينظرون إلى "قاشي" قائلين:

-حلال عليك...

لم يكن دخل الفائزين في رهان "قاشي" كبيرًا، لأن معظم النقود كانوا يضعونها على فوز "قاشي"، ولكن عندما كان "زربالا" يطوف الأبواب ويبيع مبيدات حشرية ضد الناموس والنمل والذباب والفئران، كان لا يتخيل حتى ولو في المنام أن يكسب مثل هذه النقود. وبسبب أنه كان يعرف جيدًا أنه مدين لهذا

المخلوق بهذه النقود، كان في البداية يذهب إلى السوق ويشتري لـ "قاشي" أفضل أنواع الشعير والعلف والقمح، وحين يكون المكسب كثيرًا كان يشتري له نصف كيلو زبيب. وبعد ذلك كان يقوم بالتسوق للمنزل. كانت النقود التي يكسبها "قاشي" تكفي أسرة "زربالا" حتى نهاية الأسبوع أي إلى يوم السبت من الأسبوع التالي. وكان النصر الذي سيحققه "قاشي" في يوم السبت المقبل سوف يوفر مصاريف الأسبوع كله. وبدأت أسرة "زربالا" العيش حياة كريمة بفضل "قاشي".

أحيانًا، عقب مصارعة الديكة، كان عُرف "قاشي" ومنقاره يصابان ببعض الجراح، وكان "زربالا" يضع اليود على جراح الديك ويقول بكل فخر له:

-آه، لم يضع لي أحد اليود طيلة حياتي مثل هذا ...

وكان "قاشي" يصيح بصوته الجهوري صيحات متتاليات كأنه يُصدّق على ما قاله "زربالا". لم يُهزم حتى الآن ولو مرة واحدة، وكان "زربالا" وجميع مشجعي صراع الديكة في هذه المنطقة من "أبشرون"، على يقين تام من أنه لن يُهزم مطلقًا.

كان هناك ديوك سلالات هجينة من أجل المصارعة، كانوا يحضرون بيضها من تركيا، وجورجيا، وأوكرانيا، وإيران. ويضعونها تحت الدجاجات الأمهات التي في فترة حضانة البيض، وبمجرد أن يفقس البيض، يربون الفراخ على تدريبات خاصة. يبدو أنه انتشر في القرية كلام حول أن بيضة "قاشي" من "كوبا"، وذلك بسبب أن "فيدل كاسترو" يعد واحدًا من أقوى الرجال في العالم وهو من "كوبا" أيضًا!!

وعندما كانوا يسألون "زربالا" عن حقيقة هذا الأمر؟ - كان "زربالا" ينظر إلى وجه صاحب هذا السؤال بتعجب، ويمد يديه الاثنين نحو "قاشي":

-آه، كأنك لا تراه؟!

أي أن موضوع نسبة "قاشي" إلى "كوبا" أمر واضح وضوح الشمس.... وكأن "زربالا" نفسه بدأ يصدق من كل قلبه أن "قاشي" من "كوبا".

ومن الطبيعي أن "قاشي" ليس له أية علاقة بكوبا. كل ما في الأمر أن زوجة "زربالا" "أمينة" قالت ذات يوم:

-بدأت الفرخة فترة حضانة البيض، اذهب، واشتر خمس أو ست بيضات من السوق، نضعهم تحت الدجاجة.

فذهب "زربالا" إلى السوق واشترى خمس بيضات طازجة. فوضعت "أمينة" تلك البيضات تحت تلك الدجاجة التي ليس لها بيض، ولكنها دخلت في فترة حضانة البيض، وولد "قاشي" من إحدى تلك البيضات وشرف الدنيا. ولكن لا أحد يعرف هذا التاريخ لحياة "قاشي" سوف "زربالا"، و"أمينة"، وربما لن يعرف أحد مطلقًا. لأنه مهما كان "زربالا" مرتبطًا بـ "قاشي"، كانت "أمينة" راضية عن "قاشي" بالقدر نفسه، ليس فقط لأن "قاشي" كان يجلب النقود إلى المنزل بشكل أساسي. فهذا أمر واقع، حيث كانت خالة "أمينة" زوجة الخال "عباد" تدعو "الله أن يحفظ "قاشي"، بل السبب الأساسي بالنسبة لـ "أمينة" هو أنه عندما ظهر "قاشي" وقع أمر لا يصدقه عقل؛ وهو أن "زربالا" ترك شرب الخمر.

كانت بعض الليالي التي لا يكون بها موتى، فلا يقام سرادق عزاء في قريتهم، أو في القرى المجاورة. وفي مثل هذه الليالي العطرة، كان "مولا زيد الله" يختار أحد الكتب من مكتبته الشخصية التي جمعها ونظمها بشكل مرتب منذ سنوات طويلة، وكان يأخذ هذا الكتاب، ويستعرض مرة أخرى غزليات شعراء الشرق الكلاسيكيين، أو الشروح المكتوبة حول هذه الغزليات، أو نصائح المفكرين القدامى، ثم يخرج من البيت ويطوف فناء المنزل. ويتولد لديه إحساس بأنه يريد أن يتناقش مع أحد حول هذا الشعر الفذ وهذه النصائح والعبر الحكيمة. كان يجلس

على المقعد الموجود عند بوابة فناء المنزل، ويشرب الشاي وحده، ويُدير مسبحته كالمعتاد ويحدث نفسه.

-لكل إنسان جار، يشرب معه الشاي، ويتحدث معه، أما أنا فجاري هو "سكير".

حقًا كان "زربالا" يسمى "زربالا السكير" حتى ظهر "قاشي"، وكانت "أمينة" من خجلها تخاف أن تذهب قليلاً إلى السوق أو الدكان، حتى أنها كانت تُسخن المياه في المنزل وتستحم، لأنها عندما تذهب إلى الحمام الموجود في القرية، كانت نساء القرية تنظر إلى جسمها الجميل ويتأسفن عليها قائلات:

"أيتها المرأة، ألا تعرفين أنه من تثقين فيه ثقة عمياء من الممكن أن يخذلك؟ لماذا لا تأخذين ابنك، وتذهبين إلى منزل والدك؟" لقد كن يتحدثن بما يحلو لهن من كلام. وكانت والدة "أمينة" عندما تأتي إليها من حين لآخر، لا تستطيع أن تتمالك نفسها، فتقول لها: "الناس تزوج ابنتها لتكسب صهرًا، ونحن زوجنا بنتنا، فكسبنا بلاءً، أيتها الفتاة!".

كانت أمينة في تلك الفترة سائمة من الحياة، ولم يكن لديها الرغبة في أن تشرح لنساء القرية، ولأمها أن "زربالا" هو والد قرة عينها وابنها الوحيد "جولبالا"، وأنهن لا يعلمن كيف أن "زربالا" رجل بمعنى الكلمة، وقلبه غاية في الرقة، هل رأيتم كيف أن "زربالا" يقوم في منتصف الليل سرًا، ويجلس في المطبخ وحده، ويجهش بالبكاء؟ لكن "أمينة" رأت هذا، ليس مرة واحدة أو مرتين بل رأته عدة مرات، حقًا، لم يكن "زربالا" على علم بهذا. أي لم يكن على علم بأنه عندما يستيقظ من النوم في منتصف الليل ويذهب إلى المطبخ، ويجلس على المقعد الخشبي ويبكي وهو يشرب السجائر، كانت "أمينة" هي الأخرى تنهض من النوم، وتقف في الظلام عند الباب، وتنظر إليه خلسة، ولم يكن "زربالا" على علم أيضًا بأن "أمينة" في تلك اللحظة كانت هي الأخرى يتملكها الحزن.

كان الغضب يتملك "أمينة" أيضًا عندما كانت تُحمّم "جولبالا"، وتُلبسه الملابس التي غسلتها وكوتها له، يأتي إلى أنفها فجأة رائحة كيس ذلك المبيد الكريه و"الخمر" الخاص بـ "زربالا"، وكانت "أمينة" لا تفهم هي نفسها لماذا ترغب هي هذه المرة في البكاء، ولماذا الغضب يتملكها.

وفي يوم مبارك من الأيام، كبُر هذا الكتكوت العظيم مجهول الأب والأم، وأصبح "قاشي"، وحينئذ حدثت تلك المعجزة غير المتوقعة، وهي أن "زربالا" امتنع عن احتساء الخمر الذي أدمنه وأورده المهالك، وألقى بذلك الكيس الكريه الذي تفوح منه رائحة الخمر، وصار صاحب "قاشي" الشهير في ربوع قرى "آبشرون".

كان "زربالا" قبل ظهور "قاشي" في أشهر الصيف، يركب القطار الكهربائي في الصباح الباكر ويذهب إلى التسوق مرة أو مرتين في الأسبوع، ويشتري من محال الجملة الموجودة في "باكو" بأسعار رخيصة مبيدات حشرية ضد الناموس والذباب والنمل، ومبيدات ضد أمراض الأشجار والورود والخضروات، وكان يجمعها في هذا الجوال الكريه ويعود. وكان، في البداية، يدخل إلى مقهى الجزار "ميرزا آغا"، ويشرب حوالي ١٥٠ جرامًا من النبيذ، ثم بعد ذلك يبحث عن زبائن، ويطوف منازل القرية، والفيلات التي بناها حديثًا أثرياء "باكو"، واحدة تلو الأخرى، ويبيع المبيدات التي اشتراها. أما ما يحدث بعد ذلك فكان مثل الحلم حيث كان يذهب ثانية إلى مقهى الجزار "ميرزا آغا" وبعد أن يتناول ١٥٠ جرامًا من النبيذ مرة أخرى، لا يتذكر ما يحدث بعد ذلك جيدًا. أما في أشهر الشتاء، فكان في المقام الأول يساعد تجار بيع الأسماك، أي كان يقف على جانب الطريق الرئيس المؤدي إلى مدينة "باكو"، ويحمل على رأسه الأسماك التي يعطيها له الصيادون لبيعها، كان يبيعها إلى السائقين والركاب، ويأخذ نصيبه من مكسب هذا البيع.

وفجأة ظهر "قاشي" في دنياه الحقيرة هذه؛ فتغير كل شيء...

تغير كل شيء، ولكن كان "زربالا" لا ينظر مطلقًا إلى "قاشي" على أنه مصدر رزق، كان يحب هذا الديك من كل قلبه، وربما كان هذا الحب متبادلاً. ومن المعلوم أن "قاشي" لم يكن على علم بحياة "زربالا" السابقة، وكان "زربالا" عندما يضمه في حضنه ويحنو عليه، كان الديك يمسح ويتقلب بوجهه في راحة يد "زربالا" بكل مودة وحب، كأنه ليس هو العدو المفترس لديوك "آبشرون".

(٣)

كان جميع من في القرية يطلقون على العقيد "جعفروف" الذي كان يعمل في الخدمة الطبية وأُحيل للتقاعد عليه "الطبيب". كان الأطباء كُثر، ولكن عندما يُقال "الطبيب" كان جميع من في القرية يعرف أن المقصود هو "جعفروف". كان في الآونة الأخيرة غير راضٍ عن صحته، كان ينهج كثيرًا، وبدأت مفاصل ساقيه، وذراعيه تؤلمانه، وبالرغم من أنه كان يُعالج نفسه بنفسه، فكان يكرر باستمرار في الآونة الأخيرة في نفسه ما يلي: الشيخوخة شيء حقير. يجب أن تكون في هذه الدنيا شغوفًا بنظم الشعر مثل "زيد الله"، فبدلاً من الاهتمام بصحتك في هذه السن من عمرك، تنظم أشعارًا لا معنى لها عن الورود والبلابل وليلى والمجنون في عصر العولمة والإنترنت وأنت تأكل لحم الضأن الدهني المملوء بالكوليسترول.

كان "جعفروف" أثناء الحكم السوفيتي شيوعيًا بمعنى الكلمة – كان يعتقد ذلك – كان يدفع كل شهر رسوم العضوية بكل احترام بوصفه عضوًا في الحزب الشيوعي السوفيتي، وكان يحترم ويقدر بطاقة العضوية للحزب. ولكن عقب هجوم الجيش السوفيتي في العشرين من يناير ١٩٩٠ على مدينة "باكو" بأمر من "ميخائيل جورباتشوف" من أجل القضاء على المعارضين للحكم السوفيتي، وعقب إطلاق الجيش النار على الأبرياء، ألقى "جعفروف" ببطاقة عضوية الحزب احتجاجًا على ذلك.

مع أنه بعد فترة أخذ "جعفروف" بطاقة عضوية الحزب مرة أخرى، ولكنه لم يكن شيوعيًا مخلصًا كسابق عهده. وبعد ذلك انهار الاتحاد السوفيتي، وأصبح معلومًا للجميع أن الاستخبارات الروسية وموضوع الحزب الواحد، والأفكار الشيوعية، كلها أشياء فارغة، وأن شخص "جورباتشوف" استطاع أن يقضي على دولة في مثل هذا الحجم -"الاتحاد السوفيتي"-. ولكن بمرور السنين، بدأ الطبيب "جعفروف" في أن يكون شيوعيًا مخلصًا من جديد، وبالتدريج في هذه الدنيا الحرة التي كسرت أغلال الشيوعية، وكان يعتقد تدريجيًا أنه -كما كانت جدته رحمها الله تحكي له ذكريات جميلة في نهاية الأربعينيات وبدايات الخمسينيات عن فترة "نيكولاي" التي سبقت قيام الاتحاد السوفيتي-سوف يحكي لأحفاده ذكريات جميلة حول الاتحاد السوفيتي.

كان الطبيب "جعفروف" تنتابه بهجة داخلية عندما يفكر في هذا، لأنه كان يعرف أن هذا الأمر لن يحدث مطلقًا، ليس بسبب أن الحديث عن ذكريات جميلة حول الاتحاد السوفيتي أمر مستحيل، بل إنه أمر وارد، وكان يرى العالم الرأسمالي الحر القائم سوف تزداد فيه مثل هذه الذكريات. ولكن السبب هو أن لديه ابنين، أحدهما ابنة تسمى "يكاترينا" تزوجت في السويد، وتعيش هناك، أما ابنه "إسكندر" فيعيش مع أسرته في "سانت بطرسبورغ" بروسيا. وكان الطبيب "جعفروف" يفهم جيدًا أنه من المستحيل أن يأتي يوم ويجلس مع أحفاده ويحكي لهم الذكريات الجميلة.

أنهى الطبيب "جعفروف" المدرسة الثانوية عام ١٩٥٥م في باكو، والتحق بالأكاديمية الطبية العسكرية في "لينينغراد" في روسيا، أما بعد أن تخرج من هناك، فقام بالعمل في الدوائر العسكرية في جميع أنحاء روسيا بداية من "يارو سليغل" حتى "فلاديفو سنوك". وبعد ٣٣ عامًا أحيل إلى التقاعد وهو في رتبة عقيد، ثم عاد مع زوجته "آننا فيكتوروفينا" إلى "باكو".

عمل في أحد مستشفيات "باكو" لفترة طبيبًا متخصصًا، وبعد ذلك أحيل إلى التقاعد نهائيًا، وانتقل إلى منزل الأجداد الذي ظل خاويًا في القرية، وهناك بدأ أهل القرية فجأة في طلبه للمرضى. وبسبب أنه لم يكن رجلاً طماعًا، لم يتحدث الطبيب "جعفروف" عن النقود مطلقًا، وبعد أن يكشف على المريض، كان يقنع بما يضعه في جيبه أهل المريض أو ما يدفعونه له. وفي الوقت نفسه كان مستشارًا طبيًا غير رسمي في المنتجعات التي أُقيمت على طول الشاطئ؛ ولاسيما منتجع "جنة المكان". أي لم يكن يعمل رسميًا ويتقاضى راتبًا. ولكن عند حدوث أي مشكلة في صحة السياح أو لأحد من المترددين على هذه المنتجعات بصفة عامة، كانوا يلجأون إلى الطبيب "جعفروف" بتوجيه من "فيضي" بك، لأن "فيضي" بك كان يقدر شخصيته، ومهارته، ودقته، وكان يحترم أيضًا السيدة "آننا فيكتوروفينا" احترامًا خاصًا.

-يا تُرى هل يمكن أن يعود اسم مدينة "لينينغراد" إلى "سانت بطرسبورغ" من جديد...!

من يخطر بباله هذا؟

يقول المولا "زيد الله" الأحمق، احذف المقطع "وف" الموجود في آخر لقبك، واجعله "جعفر" فقط، وكأن السيرة الذاتية للطبيب "جعفروف" سوف تتغير بهذا الفعل؛ لم يكن المولا "زيد الله" على علم بكيفية تغير اسم والد الطبيب "جعفروف"... كل هذا نوع من العبث.

كان الطبيب "جعفروف" غير راضٍ عن صحته، ولكنه كان راضيًا عن حياته ومصيره؛ حيث كانت "آننا فيكتوروفنا" امرأة غاية في النظافة، هادئة الأعصاب، مكافحة، ودودة، تزوجا منذ عام ١٩٦٠م ومنذ ذلك التاريخ أي قبل ٣٢ عامًا كاملاً، لم يحدث بينهما، ولو مرة واحدة، عراك أو شجار أو أي خلاف، وكان الطبيب "جعفروف" يشيد بهذا الأمر جدًا. كان ولداه شخصيتين جادتين، مع أنه بالفعل ليس لهما علاقة مادية أو معنوية بأذربيجان، لكن هذا الأمر لم يمثل للطبيب

"جعفروف" مصدر إزعاج، فالعالم يتجه على أية حال إلى العولمة، فبعد مائة أو مائتي عام لن يكون هناك أذربيجاني أو روسي أو إنجليزي!

ولد الطبيب "جعفروف" في هذه القرية، وكبر مع أبناء القرية، ومن بينهم "زيد الله" (الذي أصبح الآن "مولا"، وينظم الشعر حول محبة الورود والبلابل) كبر في هذه القرية على تطيير الطائرة الورقية، والسباحة في البحر، وبالطبع كان من حين لآخر يتذكر تلك الأيام في الفترة التي كان يعيشها في روسيا، وكان يشتاق إلى الأطعمة الأذربيجانية ولا سيما الأرز الذي كانت تطهوه أمه رحمها الله. ولكن كل هذه الأمور لم تكن تمثل مشكلة للطبيب "جعفروف"، حتى يتأسف عليها أو يحزن عليها.

كانت "آننا فيكتوروفنا" تُطالع كتب الطهي، وتسعى إلى أن تطهو الأطعمة الأذربيجانية، وبالطبع الأرز الذي هو أشهر هذه الأطعمة. بالرغم من أن الطبيب "جعفروف" لم يصرح بذلك، فإنه كان يأكل بصعوبة الأرز الذي كانت "آننا فيكتوروفنا" تطهوه في بداية الأمر استنادًا على الوصفات الموجودة في الكتب، لأن هذا الأرز لم يكن له علاقة بالأرز المعروف. ولكن بمرور السنوات أتقنت طهي الأرز بشكل ممتاز لدرجة أنها عندما عادت إلى أذربيجان، لم يعجبه الأرز الذي أكله في بيت أحد أقاربه ذات مرة، فهو يرى أن أجمل أرز هو الأرز الذي تطهوه "آننا فيكتوروفنا".

في أحد أيام الصيف الحارة، جلس الطبيب "جعفروف" في المنزل وقت الظهيرة وقال باللغة الروسية لزوجته، وهو يحتسي حساء شعرية بالطماطم:

-"آنتا"، كنت أود بصفة عامة أن آكل الأرز ...

بدأت "آنتا فيكتوروفنا" في وضع الماء بالفعل لطهي الأرز، ولكن ابتسمت وهي تنظر لزوجها بعينيها الزرقاوتين الجميلتين قائلة:

-ربما في بداية الشهر القادم....

هي تعني أنهما سيحصلان على المعاش في بداية الشهر القادم أي بعد خمسة أو ستة أيام، وحينئذ سوف يكون هناك لحم أو دجاج لطهي الأرز. أما حساء اليوم الذي أعدته "آنتا فيكتوروفنا" فهو حساء العظم المتبقي من اللحم البقري الذي اشترته من الجزار "ميرزا آغا" قبل أسبوع كالمعتاد، وكان الطبيب "جعفروف" يُعجب بحساء الشعرية بالطماطم المُعدة بهذا الشكل. كانوا دائمًا يشترون لحم البقر، لأن لحم الضأن يسبب الإسهال لـ "آنتا فيكتوروفنا"، لهذا السبب نسي الطبيب جعفروف" لحم الضأن.

هز الطبيب "جعفروف" كتفيه، وأخذ ملعقة مملوءة من حساء الشعرية بالطماطم التي كانت "آنتا فيكتوروفنا" تعدها كالمعتاد بشكل جيد وقال:

-ماذا يمكن عمله؟ فلنحتسِ الحساء اللذيذ ....

(٤)

كانت مصارعة الديوك تبدأ عادة في أيام السبت وقت الظهيرة، أما في أشهر الصيف فكانت تبدأ قبيل المساء أي بعد استدارة الشمس، بدأ الخال "عباد" في يوم سبت لا يُنسى القيام بالاستعدادات في الساحة الموجودة خلف سوق القرية، وذلك عندما تحسّن الجو نسبيًا قبيل المساء.

كان الخال "عباد" قصير القامة، ولكنه رجل مثابِر، كان يقوم بحراسة السوق ليلاً، ورغم أنه ليس له علاقة بتلك الساحة الموجودة خلف السوق، فإنه نصب نفسه عليها "صاحب مكان"، فهو مثل "صاحب المنزل": كان يُعد ميدان المصارعة، وكان يجمع من كل واحد من المتفرجين ما بين خمسين قرشًا إلى مئات، وكان يجمع أيضًا نقود المراهنين، وكان صاحب الديك الذي يكسب الرهان يعطي له نصيبًا من النقود.

نضع كل هذه الأعمال وما يتعلق بها جانبًا، فلم يكن الأمر يتوقف عند استغلال الخال "عباد" لهذه المساحة الخاصة ببلدية القرية، بل كان الخال "عباد" زئبقي الحركة يخرج المنضدة الخشبية القديمة من كشك الحراسة الذي يحتفظ فيه بها بعد إدخالها بصعوبة، وكان يحضر إبريق الشاي القديم المتوارث عن الأجداد الخاص بزوجته "تسا"؛ ويضعه على تلك المنضدة. وكان يفرش على المنضدة الغطاء الذي غسلته وكوته زوجته "أنسا"، ويرتب عليها الأكواب والسكر وشرائح الليمون الذي قطعتها "تسا" في المنزل بشكل منمق وبحماسة شديدة، ثم يضع الفحم تحت إبريق الشاي، وكان يبيع كوب الشاي بالليمون للمشجعين الذين قتلهم الظمأ بثلاثين قرشًا، وعندما يحمي الوطيس بين الديوك كان يبيع الشاي بالليمون بخمسين قرشًا.

وهكذا، لم يكن مكسب الخال "عباد" بالقليل أيام السبت، ولكن عندما ظهر "قاشي"، دخلت تجارته مرحلة جديدة؛ حيث زاد مكسبه مرتين أو ثلاثة، لأنه لم يكن يأتي لمباريات "قاشي" أبناء القرية والسياح الذين يستجمون في منتجعات ساحل البحر فحسب، بل كان يأتي أيضًا مشاهدون من القرى المجاورة، وكانت الخالة "تسا" تعد، بشغف، النقود التي أحضرها الخال "عباد" إلى المنزل بسرعة عقب المباراة، وكانت تفخر بزوجها -أي الخال "عباد"-، وتقول بكل إخلاص:

-اللهم بارك في عمر "قاشي".

كأن "قاشي" لم يكن ديكًا، بل رجلاً ماهراً مثل الخال "عباد".

ولكن لم تكن التجارة الموجودة في ساحة صراع الديوك تقتصر على تجارة الخال "عباد" المتنامية باستمرار، بل كان يأتي الفتيان أيضًا من القرى المجاورة ليبيعوا اللب، والذرة المنضوجة في الماء المملحة، والمثلجات، وكانوا يتنافسون مع بعضهم البعض ويبيعون بضاعتهم، وذلك بعدما ذاع صيت "قاشي".

كان الخال "عباد" في الأيام العادية يجلس في كشك الحراسة الموجود في السوق ليلاً، ويقوم بالحراسة وهو يشرب الشاي منتظرًا بشغف يوم السبت التالي. وكان الخيال أحيانًا يحمله على أجنحته، ويطير به إلى المستقبل، وآنذاك في هذا العالم الخيالي الجميل، كان يتخيل الخال "عباد" أنه احتكر التجارة الموجودة في ساحة صراع الديوك، وأقام قصرًا ثقافيًا يشبه مقهى الجزار "ميرزا آغا" تحت ظل شجرة اللوز الضخمة الموجودة على مقربة من الساحة، وأنه وجد بائعًا متحضرًا، وعهد إليه ببيع اللب والذرة والآيس كريم. ويمكن بيع الكباب والفطير باللحم هناك فليست هذه الفترة هي فترة الاتحاد السوفيتي حتى يأتي الشرطي "صَفر" ويهدده بشأن تجارته، ويوبخه، وفي تلك اللحظة، كأن رائحة الكباب تسللت فجأة من عالم الخيال الخاص بالخال "عباد"، وأيقظته من هذا الحلم. آنذاك نبع صوت من داخل الرجل: "كفاك يا عباد" الطمع سيعُمك!"، ولكن بعد فترة، وبشكل تلقائي، كان الرجل يغوص مرة أخرى في عالم الخيال الجميل. بدأ هذه المرة جمع النقود من ركن سيارات المشجعين من القرى المجاورة بجوار شجرة اللوز.

وفي ذلك السبت الذي لا ينسى توكل الخال "عباد" على الله وخرج من المنزل قبيل المساء، واتجه نحو ساحة صراع الديكة، وكالمعتاد ساوى الأرض جيدًا بكل همة ونشاط، ورش الماء على الساحة حتى لا يتطاير الغبار أثناء المصارعة، وبدأ الناس التجمع شيئًا فشيئًا.

في البداية قدم الفتيان الذين يبيعون اللب والذرة والآيس كريم كالمعتاد، وكانوا يطوفون باستمرار في منتجعات الاستجمام الموجودة على شاطئ البحر، لأن معظم زبائنهم كانوا من السياح.

كان السياح القادمون من أوروبا واليابان والرجال الذين يرتدون معظمهم الشورت، والنساء والأطفال يشاهدون مصارعة الديوك ويصدرون أصواتًا تشجيعية بلغاتهم، وكان "قاشي" هو الديك الذي يفضلونه ويشجعونه أكثر من غيره. لقد

التقطوا صورًا كثيرة جدًا لـ "قاشي"، لدرجة أنه لا يوجد ديك آخر أو حيوان أو أي من نجوم هوليوود التقط له هذا الكم من الصور.

كان السياح يأتون للاستجمام في المنتجعات السياحية الموجودة على سواحل "آبشرون"، أو للسباحة في بحر قزوين، أو للتشمس في الرمال، ويذهبون بعد أسبوع أو عشرة أيام، ويأتي غيرهم أناس جُدد، ولكن حب "قاشي" والإعجاب به يلازم السياح دائمًا، بغض النظر عن ذهابهم وإيابهم، فمما لا شك فيه أن لـ "قاشي" مكانة لا تُنسى في ذكريات هؤلاء السياح حول "آبشرون".

كان شبان القرية يتوافدون بشغف خاص إلى مصارعة الديوك أيام السبت تلك، وكان السبب الأساسي في هذا الشغف هو "قاشي"، وكذلك السيقان العارية للسائحات وأجسادهن التي تبدو من تحت ملابسهن الشفافة. وكان "قاشي" يحصد بطولات كثيرة في ساحة الصراع، لدرجة أن شباب القرية ينسون بشكل مؤقت تلك السيقان العارية، وتلك الأبدان التي تهتز من تحت الملابس الشفافة لتلك السائحات اللاتي يشجعن ويقفزن من شدة الإثارة.

وبعد أن يتجمع المشاهدون، تبدأ ديوك المصارعة في الوصول إلى المكان. كان أصحاب الديوك يحضرونها في صناديق من الكرتون – صناديق سجائر أو مكرونة أو خمر كلٌ حسب ما يجد من صناديق. وبمجرد أن يأتوا يخرجون الديوك من الصناديق، ويتركونها في العراء، وكانت هذه الديوك المدربة التي تعرف مهمتها جيدًا، دون أن تهتم ببعضها البعض، تتجول بفخر تحت أقدام المشجعين، وكل منها ينتظر دوره.

كانوا عادة يؤخرون "مصارعة قاشي" لنهاية المصارعة بطلب من أصحاب الديوك الأخرى، لأنه بعد أن يصارع "قاشي" كان عدد المشجعين يقل، وفي هذه المرة أيضًا بدأت الديوك الأخرى في المصارعة أولاً. كانت الديوك تهجم على بعضها البعض بمجرد أن تنزل الحلبة التي يلتف حولها المشجعون، كانوا ينزلون

على بعضهم البعض ضربات كثيرة لمدة طويلة، ويرتمي كل منهم في اتجاه، ثم ينهضون بسرعة، ويثب كل منهم على الآخر مرة أخرى. وكان الديك الذي ييأس ولا يتحمل هذه الضربات يفر من ساحة الصراع، ويهرب بكل سرعته من بين أقدام المتفرجين، ويبتعد. وأحيانًا لا يستطيع الديك المهزوم الفرار، آنذاك يتدخل صاحب الديك المنتصر، وينتزع ديكه ويأخذه، ولا يدعه يقتل الديك المهزوم.

في يوم السبت هذا، في النهاية، وصل الدور إلى "قاشي"، ودخل حلبة الصراع رافعًا عنقه كالمعتاد، ورفرف بجناحيه بقوة، وأخذ جولة في الحلبة وهو يصيح بصوته الجهوري الواضح. لم يُعلمه أحد مطلقًا ولا حتى "زربالا" أن يأخذ جولة في حلبة المصارعة هكذا، ولكنه فطن بعقله أن هذا السلوك يتسبب في إعجاب المشجعين وتصفيقهم وإثارتهم.

كانت هذه المرة الأولى لمنافس "قاشي" في هذه الحلبة، وكان لا يبدو هذا الديك الضخم مخيفًا، ولكن كان يخرج من عينيه حقد وغضب على الدنيا كلها. كثيرًا ما رأى "قاشي" منافسين له يشع من عيونهم هذا الحقد بل أكثر من الحقد والغضب، وكثيرًا ما رأى المشجعون مثل هذه الديوك الضخمة الواثقة من نفسها تفر من أمام "قاشي" وتفلت بجلدها منه بصعوبة.

جمع الخال "عباد" النقود من المراهنين الذين وضع أكثرهم نقودهم لصالح فوز "قاشي"، وبعد ذلك بدأت المصارعة، وقف "قاشي" والديك الضخم وجهًا لوجه في ركنين متقابلين بالحلبة وهما يصيحان، ثم قفزا على بعضهما البعض. كان "زربالا" يجلس كالمعتاد القرفصاء في مقدمة حلبة الصراع يدخن السيجارة وينظر إلى الحيل التي يستخدمها "قاشي". بالطبع، كان هذا الجمع من مشجعي "قاشي" لا يخطر ببالهم مطلقًا ما الذي يفكر فيه "زربالا" الآن وهو يشاهد الديوك المتصارعة، لم يكن "زربالا" نفسه يتوقع أن مثل هذه الأفكار تخطر بباله. حقًا، كان "زربالا" ينظر إلى الديوك التي بدأت صراع حياة أو موت، ولكن في تلك اللحظة، جاءت

صورة "جولبالا" أمام عيني "زربالا"، وخطرت بباله فكرة فبالرغم من أن مصارعة الديوك شيء جميل، إلا أنه يوجد بداخلها نوع من الوحشية، ماذا يحدث للديوك؟ تُراق الدماء!! ... يوجد شيء ما لا يتلاءم مع نظافة "جولبالا" في الأطعمة المستوردة المملوءة بالفيتامينات التي تم شراؤها له، ربما يرتبط هذا بكون "جولبالا" طفلًا مريضًا؟

عادة، كان بعد أن يبدأ "قاشي" الصراع بخمس أو ست عشرة دقيقة على الأكثر، يفر الديك المنافس من حلبة المصارعة مهزومًا ويتصبب الدم من وجهه ومنقاره وعُرفه، وأحيانًا تخرج عينه التي ضربها "قاشي" بمنقاره. وعندما لا يستطيع ذلك الديك الفرار يمسك "زربالا" "قاشي" الذي -خرج عن وعيه وتوحش - من جناحيه، ويحمله، ويُبعده بصعوبة عن منافسه، ويأخذه في حضنه. وبعد أن يهدأ قليلاً، كان يتركه في الحلبة ثانية، وكان "قاشي" يرفع رأسه ويلف لفة في الحلبة، ولكن هذه المرة، كأن "قاشي" بسبب الأفكار التي خطرت ببال "زربالا" لم يتمكن حتى الآن من هذا الديك العظيم، أما الوقت فكان يمضي.

لقد تحشرج صوتا "قاشي" والديك الضخم من الصياح، وكانا يهجمان على بعضهما البعض وهما غارقان في دمائهما وعرقهما، كانا ينزلان على بعضهما البعض ضربات بمنقاريهما الحادين والمدببين، وكان على ما الديكين أن يستخدم مخالبهم، ثم يرجع كل منهما إلى الوراء، وكأن الطاقة تأتي إليهما من جديد، ثم يقفزان على بعضهما البعض بغضب وحرص.

لم يبق أي أثر لتلك الأفكار التي كانت تخطر ببال "زربالا" وبدأ يغمره هياج مملوء بالقلق. لقد اعتاد على الفوز السريع المعتاد لـ "قاشي"، أما المشجعون الذين ينتظرون هذا الفوز فكانوا يتابعون هجوم الديكين على بعضهما البعض بشغف زائد بعدما رأوا هذه المهارة غير المتوقعة للديك الضخم، حتى أن بعضهم كان يشجع مهارة الديك الضخم.

بعد أن تجاوزت هجمات "قاشي" والديك الضخم المتبادلة والغاضبة خمس عشرة دقيقة، رفع صاحب الديك الضخم قبعته ومسح بيده جبينه الذي علاه العرق بسبب الحر والقلق قائلاً:

-هذا وقت الماء!

ثم انتزع ديكه، وضمه إلى صدره، فقفز "زربالا" من مكانه بسرعة وضم "قاشي" إلى صدره.

جلس "زربالا" وكذلك صاحب الديك الضخم القرفصاء على الأرض في ركنين متقابلين، فمسح كل منهما على رأس ديكه وصدره، وكان كل من الديكين ينهج ويأخذ نفسًا عميقًا. وكانا يلتفتان يمنة ويسرة بعينيهما البارقتين محركين عرفيهما ورأسيهما الداميين. كان "زربالا" يشعر في كفيه بضربات قلب "قاشي".

أحضر الخال "عباد" وعاءين حديديين مملوءين بالماء البارد. أعطى أحدهما بسرعة إلى "زربالا"، والآخر إلى صاحب الديك الضخم، بمجرد أن أخذ "زربالا" الوعاء منه، أخذ شربة في فمه، ونثرها على وجه "قاشي". وبعد أن فعل هذا عدة مرات، شعر بأن قلب "قاشي" أخذ يهدأ رويدًا رويدًا، ووضع "زربالا" الفنجان الحديدي جانبًا، وبدأ يُهوي بالمنديل الذي أخرجه من جيبه على "قاشي".

وقد أخذ صاحب الديك الضخم الماء هو الآخر بفمه ونثره على وجه ديكه، وكان يُهوي بمنديله، وكان يلتفت باستمرار وينظر إلى "قاشي" بنظرات مملوءة بالقلق.

تُرك الديكان مرة أخرى في حلبة المصارعة، وفي تلك الآونة وقع ذلك الحادث التاريخي في مصارعات الديوك بقرى "آبشرون".

كانت أعظم حيلة لـ "قاشي" هي أن يلف ويطوف حول منافسه وفجأة يقفز عليه ويأخذ رأسه بين مخالبه وينزلها لأسفل، وينزل بمخالبه ضربات متتالية على

عينيه وحنجرته وصدره. وفي النهاية عندما يستطيع المنافس سيئ الحظ أن ينـزع رأسه. ويخرجها من بين مخالب "قاشي"، يفر بسرعة الصاروخ من الحلبة ويتساقط الدم من منقاره وأحيانًا من عينه المفقوءة أو عرفه. ولكن هذه المرة، انقلب كل شيء تمامًا فجأة؛ حيث انقض الديك الضخم على رأس "قاشي"، وأخذها بين مخالبه، وفي لمح البصر، حنى عنق "قاشي" وغرس رأسه في الأرض. وبدأ ينهش بمخالبه عنقه وصدره.

صاح المتفرجون الذين أفاقوا من التنويم المغناطيسي الحادث مذهل:

-آه، لقد قتل هذا "قاشي"!

-آه، قتله!

-آه، ألا ترون، لا تدعوه يقتله!

قفز صاحب الديك الضخم وأمسك الديك من جناحه، وعندما رفعه لأعلى، ظل "قاشي" يترنح ورأسه في منقار منافسه لعدة لحظات، وفي النهاية نجا من منقار الديك الضخم وسقط على الأرض محدثًا صوت ارتطام، وفر من حلبة المصارعة مصدرًا صيحة النجدة التي لا تليق بصيته وشهرته وسط حالة من الذعر الرهيب، وتسلل من وسط أقدام المتفرجين، وغاب عن الأنظار نحو شجرة اللوز.

خيم الصمت على المتفرجين، ولكن كان يُسمع فقط وسط هذا الصمت صوت صياح غاضب للديك الضخم.

(٥)

كان هناك أمر غريب أيضًا وهو أنه يوجد وسيلة اتصال خاصة بأهل القرية دون أسلاك أو تليفون أو كمبيوتر، فبمجرد حدوث أي شيء في أحد أطراف القرية، يُذاع الخبر فورًا في الطرف الآخر. وفي ذلك السبت التاريخي اختبأ "قاشي"

الملطخ ريش عنقه وصدره بالدماء خلف شجرة اللوز، وكأنه ينتظر في هذه الـدنيا "زربالا" فقط، وعندما وضعه "زربالا" في الصندوق وذهب به إلى المنزل، كانـت "أمينة" على علم بهذا الحادث.

ربما لم ينتب "أمينة" هذا القدر من القلق مطلقًا، أما "زربالا" فكان يشعر بأنه هو الذي سقط مرتطمًا بالأرض من مخالب الديك الضخم ولـيس "قاشـي"، ودون مبالغة، كان يشعر بتكسير في جسمه كله، وكان ما يحزن "زربالا" من أعماق قلبه هو هرب "قاشي" من حلبة المصارعة بشكل مخز، أكثر من هزيمته نفسها.

وعندما أرادت "أمينة" مساعدة زوجها، أخرجت "قاشي" الذي كان منكمـشًا في ركن الصندوق الكرتوني صامت دون حراك وقالت:

-يا إلهي! ... ما هذا اليوم؟!...

وبعد مساء ذلك السبت، بمجرد أن وجدت أمينة التي كانت تهتم فقط بصحة "جولبالا" قبل ذلك وقتًا اعتنت بـ "قاشي" عناية بالغة، وذلك بجانب اهتمام "زربالا" به، وربطوا الشاش لمدة ثلاثة أو أربعة أيام على جروح "قاشي" الـذي بـدأ فـي التعافي.

ربما سرعان ما نسي "قاشي" الذي هُزم لأول مرة في تـاريخ مـصارعاته المشرفة، تلك الهزيمة وذلك الخزي، وكان يهز المكان كسابق عهده فـي الـصياح الباكر بصياحه، ويرفع رأسه ويتجول في حديقة المنزل.

لقد كان المشجعون ينتظرون بفارغ الصبر مجيء "قاشـي"، وكـان الخـال "عباد" يأتي عدة مرات إلى منزل أسرة "زربالا" وينظر إلى "قاشـي" الـذي كـان يتجول في حديقة المنزل مصدرًا صياحه ويقول:

-ما شاء الله، يا "زربالا"، والله، أصبح هذا أفضل من سابق عهده!

وبالرغم من أن الخال "عباد" كان يقول هذا ليشجع "زربالا"، فإن "زربالا" لم يذهب بـــ "قاشي" إلى حلبة المصارعة في يوم السبت التالي، وقال:

-دعه، لتمر فترة ما...

بالفعل، انتهى الأسبوع، ولم يبق في المنزل أي نقود للإنفــاق، ولكــن لــم تعترض "أمينة" على قرار "زربالا" هذا، وقضوا الأسبوع بشكل مـــا، واصـــطحب "زربالا" "قاشي" الأسبوع التالي في يوم السبت كالعادة إلى حلبة المصارعة.

كان مزاج الخال "عباد" عالياً للغاية، لأن الجو كان شديد الحـــرارة فـــشرب كثير من المتفرجين الشاي بالليمون بسعر ٥٠ قرشًا للكوب، وذلك تحت ظل شجرة اللوز قبل أن تبدأ مصارعة الديوك، كما أن عودة "قاشي" لحلبة المـــصارعة مـــن جديد رفعت الروح المعنوية لدى المتفرجين، وهذا بدوره ضاعف من طاقة الخـــال "عباد"، وكانت هذه الحماسة التي أدت إليها هـــذه الـــروح المعنويـــة فـــي حلبـــة المصارعة تنقل الخال "عباد" إلى آفاق مشمسة جميلة للمستقبل.

تصارع ديكان قبل "قاشي"، وقابل المتفرجون هذه المصارعة باهتمام عادي، ولكن عندما جاء الدور على "قاشي"، ملس "زربالا" علـــى رأس وعنـــق وخـــصر "قاشي" الذي يحمله في حضنه، وتركه على الأرض في ركن مـــن أركـــان حلبـــة المصارعة، فرفع "قاشي" عنقه ونفخ صدره للأمام، ورفرف جناحيه، وكأن موجـــة عبرت من حلبة المصارعة فأبهجت المشجعين. وقام "قاشي" بلفة في الحلبة كعادته ورأسه شامخة، وصدره منتفخ مرفرفًا بجناحيه، حيث إن قيام "قاشي بهـــذا التقليـــد الشهير الخاص به بعد تلك الهزيمة التي حدثت منذ أسبوعين أدى إلى سريان الأمل والتفاؤل بين المشجعين ولاسيما مشجعي "قاشي".

وضع صاحب الديك المنافس ديكه على الأرض في الركن المقابل. كان يبدو أن هذا الديك العجوز الذي يفتح إحدى عينيه بالكاد قد صارع مصارعات كثيرة؛ إذ

إن منقاره وعرفه بهما ثقوب كثيرة من كثرة ضربات المناقير فيه، وقد نُتفت ريش صدره، فبدا منه جلده، وكان منظر هذا الديك مقارنة بـ "قاشي" يدل على أنه سوف يهزم لا محالة.

حرك الديك العجوز جناحيه مرة أو اثنتين دون أن يتحرك من مكانه، وصاح صيحة قوية.

وآنذاك وقع ذلك الحادث الذي لا يصدق؛ فبمجرد أن سمع "قاشي" تلك الصيحة التي أصدرها الديك العجوز، فزع من مكانه، وفر من الحلبة في حالة من الذعر البين، ومر من بين أقدام المتفرجين، وغاب عن الأنظار مرة أخرى ناحية شجرة اللوز.

كان هذا الأمر غير متوقع لدرجة أن الجميع أصابهم الذهول وتسمروا في أماكنهم، فقطع صوت الأستاذ "مظفر" هذا الصمت اللحظي الذي حل على المكان:

-آه، يا "زربالا"، ماذا حدث؟

لقد أضاع هذا الهرب المخزي لـ "قاشي" في لحظة واحدة ذلك الاحترام والهيبة الكبيرة اللذين اكتسبهما "قاشي".

-آه، هذا أصبح مخزيًا!

-خسئت!

-ما هذا الأمر؟

-لقد أصبح "قاشي" جبانًا.

منذ أن عاد طبيب الأسنان "فيضي" بك من إسطنبول وبدأ يشتغل في منتجع "جنة مكان"، كان يجتهد دائمًا في أن يتكلم بلهجة أذربيجان، ولكن هزت هذه الحادثة طبيب الأسنان لدرجة أنه قال بلهجة الأناضول:

-لم يستطع "قاشي" الخالد أن يتمالك قلبه!

وأضاف بأسف كبير ناظرًا إلى "زربالا" الذي تسمر في مكانه وعلاه الذهول:

-أخي، لا يوجد في الدنيا شيء أبدي ... كان الله في عونك!

كانت "آنتا فيكتوروفنا" التي فقدت قبل ذلك في عام واحد والدها، وأمها، ثم أختها تُصدق تلك الأفكار وتقول في نفسها: حقًّا الأمر كذلك، عندما تحل التعاسة تأتي متتالية، ومن المعلوم أن "زربالا" لم يكن على علم بما تفكر فيه "آنتا فيكتوروفنا"، ولكن لا نظن أن التعاسة لدى "زربالا" انتهت بمجرد هروب "قاشي" المخزي من حلبة المصارعة في ذلك السبت، بل التعاسة ستبدأ بعد.

وهكذا فر "قاشي" بهذه الطريقة من حلبة المصارعة أمام أعين الناس، وقفزت الديوك التي كان عليها الدور في الحلبة، ولم يبق "زربالا" بعد ذلك في الحلبة، أخذ الصندوق، وبخطى تهتز من الغضب والحزن، اتجه نحو شجرة اللوز، ورفع "قاشي" الذي اختبأ من جديد خلف جذع الشجرة من أحد جناحيه، وألقى به في الصندوق. أغمض "قاشي" عينيه، ولم يصدر صوتًا، وكأنه هو نفسه كان يخجل من فضيحته، ولكن كان "زربالا" لا يشعر بهذا بعد. من الطبيعي أن "أمينة كانت على علم بالفضيحة التي حدثت في المصارعة، وعندما دخل "زربالا" إلى فناء المنزل وفي يده الصندوق، لم تقل شيئًا. ولم يقل "زربالا" هو الآخر شيئًا، وألقى بالصندوق عند باب عش الدجاج دون أن يُخرج "قاشي" من داخله، وعندما اتجه من جديد نحو الباب الخارجي، سألته "أمينة بقلق عادي:

-إلى أين يا "زربالا"؟

قال "زربالا" وهو خارج من الباب:

-إلى هناك!

(٧)

كان الجزار "ميرزا آغا" وهو من عائلة جزارين أنحف جزار ربما بين جزاري أذربيجان، كان نحيفًا للغاية، لدرجة أن عظم جمجمته ظاهر، وعندما كان يأكل شيئًا ما، كانت عملية المضغ تبدو أمام عين الرائي كصورة للأشعة، ولكن هذا القدر من النحافة كان لا يعوقه عن الإمساك بالساطور ورفعه على رأس الثور، وقطعه.

كان الجزار "ميرزا آغا" يهتم اهتمامًا خاصًا بالثقافة، ويشجع الاحتفالات الثقافية، فبالرغم من أنه لا يقرأ الكتب، فإنه يحترم بشدة المثقفين، وكان يصطحب، مرة كل شهر على الأقل، أيام الأحد زوجته وأولاده، وزوجات وأزواج أبنائه، أي كل أسرته الكبيرة، لمشاهدة المسرحيات الجديدة التي تعرض على مسارح "باكو"، ولاسيما مسرح الكوميديا الموسيقية. لقد كان بعض فناني مسارح "باكو" أحيانًا يستغلون محبته هذه للمسرح، فيأتون إلى المقهى في أشهر الصيف يأكلون ويشربون دون مقابل، ولكن بالرغم من تضرر الجزار "ميرزا آغا" من هذا ماديًّا، فإنه كان يُسر معنويًّا.

ذات مرة -قبل حوالي ثلاث أو أربع سنوات – أحضروا معهم إلى مقهى الجزار "ميرزا آغا" فنانًا قادمًا من أحد مسارح روسيا في جولة إلى "باكو"، وبعد قليل من تناول الطعام والشراب، قال له ذلك الفنان الروسي ناظرًا إلى أصابعه الطويلة والنحيفة:

-أصابعك تشبه أصابع عازفي البيانو!

منذ تلك اللحظة، ازدادت محبة "ميرزا آغا" للثقافة. ومن حين لآخر عندما تقع عيناه على أصابعه، يشعر بإحساس جميل وظريف.

وبسبب كل هذا، كان مثقفو القرية يرون في شخصية الجزار "ميرزا آغا" شخصًا يليق بهم، حيث كانوا من حين لآخر يقيمون مجلس أُنس مع ضيوفه القادمين من "باكو" في مقهاه، وكانوا يدفعون حسابهم خلافًا لهؤلاء الفنانين القادمين من "باكو".

بعد أن انهار الاتحاد السوفيتي، اشترى محل الجزارة، وافتتح فيه مقهى، حيث حول جزءًا منه إلى مقهى، وأعد فيه طاولة للعمل مصنوعة من الرخام، وكان مكان بيع اللحم هناك أيضًا. كان يعمل في المقهى اثنان فقط، أحدهما الجزار "ميرزا آغا" نفسه، والآخر حماته. كانت حماته تطهو الأطعمة المصنوعة من العجين، مثل الفطائر والمعجنات بأنواعها المختلفة. وقد اكتسبت هذه الأطعمة شهرة كبيرة بين السياح الأجانب بصفة خاصة. كان أطفال الحي، ولاسيما أطفال الأسر الفقيرة، يدخلون المقهى ويأخذون فطيرة ساخنة ويهربون.

في تلك اللحظة يعلو وجه الجزار "ميرزا آغا" النحيف ابتسامة، وعندما تنظر إليه حماته بعدم رضا، كان يقول:

–سوف يعوض الله عليك، لا تقلقي...

أما في أشهر الشتاء، فكان "ميرزا آغا" يطهو "الكوارع" بنفسه، وكان عشاق "الكوارع"، ليس في قريته فحسب بل في القرى المجاورة، يُشيدون بالكوارع التي يطهوها.

كان الجزار "ميرزا آغا" يبيع لحم الضأن والعجول الصغيرة من الساعة السابعة صباحًا في أشهر الصيف، أما بعد بداية موسم "الكوارع" فيكون من الساعة التاسعة (يبدأ إعداد الكوارع من السابعة صباحًا حتى التاسعة)، ويظل حتى الساعة الثانية عشرة ظهرًا خلف منضدة العمل يبيع لحم الضأن والعجول المذبوحة. وبعد أن قام بتجديد الجزء الباقي من المحل، كان يستخدمه كمقهى، وكان يستقبل الزبائن من الساعة الثانية ظهرًا حتى الساعة العاشرة مساء.

في يوم السبت هذا، بعد الساعة العاشرة وخمس دقائق، ذهبت حماته إلى المنزل، ولكن الجزار "ميرزا آغا" لم يغلق المحل بعد، لأنه قبل عشر أو خمس عشرة دقيقة، دخل الشرطي "صَفرَ" وسأله أن يبقى قليلاً حتى عودته للمقهى.

كان الشرطي "صَفرَ" لا يشرب المشروبات الكحولية وهو يرتدي الزي الرسمي، كان أحياناً عندما ينتهي عمله في المساء، يخلع الزي الرسمي في منزله المجاور للمقهى، ويرتدي الزي المدني، ويدخل المقهى. كان عادة يشرب ١٥٠ جرامًا من الخمر مع الجبن والخبز وواحدة من الطماطم وقليل من الخُضرة، وفي أحيان كثيرة يكون صديقه في الشرب هو الجزار "ميرزا آغا" نفسه، كانا يجلسان وجهًا لوجه يتبادلان أطراف الحديث من هنا وهناك. كان "ميرزا آغا" يخدم الزبائن طيلة اليوم، ولا يذوق الخمر بلسانه، وعندما تحل الساعة العاشرة، يغلق المحل، وبعد مراجعة الحساب، يشرب ١٠٠ جرام من الخمر وبطنه فارغة، ولا يأكل بعدها شيئًا (بصفة عامة، كان "ميرزا آغا" لا يأكل في المقهى شيئًا، كانت زوجته تحضر له طعام الغداء بالمنزل وترسله له)، ثم يذهب مباشرة إلى المنزل، ويأكل الطعام الذي ينتظره فوق منضدة المطبخ، كان يأكل ما تطهوه له زوجته بكل حب.

كان الجزار "ميرزا آغا" في بداية الأمر يشرب ١٠٠ جرام من الخمر ولكن بعد أن قال "فيضي" بك إن نبيذ "التكيلا" أقل أنواع الخمور ضررًا، كان يشرب ١٠٠ جرام من هذا النبيذ بدلاً من الخمر، والآن كان ينتظر الشرطي "صَفرَ" حتى يشربا معاً ١٠٠ جرام من هذا النبيذ.

عندما دخل الشرطي "صَفرَ" وهو يرتدي الملابس العادية، وقف في وضع الاستعداد بجوار المنضدة التي عليها ١٥٠ جرامًا من الخمر، والجبن، وشريحة من الخبز، وحبة طماطم مقطعة شرائح بشكل منمق، وقليل من الخضرة، وكذلك ١٠٠ جرام من نبيذ الجزار "ميرزا آغا".

كان الشرطي "صَفر" منذ شبابه يشرب الخمر بقدر، ولا يتجاوز الحد مطلقًا، ولعل هذا هو السبب في أنه يعلم قدر الخمر. نظر الشرطي "صَفر". إلى الـ "١٥٠" جرامًا من الخمر والأطعمة، وبعد ذلك جلس وجهًا لوجه أمام "ميرزا آغا":

تناول الجزار "ميرزا آغا" كأسه بأصابعه النحيفة والطويلة:

-ارفع كأسك، فلنر!

بعد أن رفع الشرطي "صَفر" كأسه، أشار على الكؤوس بعينه قائلاً:

-فلا يذهب هذا هدرًا! في صحتك!

جعل هذا المجلس الحميمي الشرطي "صَفر" يشعر بالنشوة، لهذا قال وهو يتلجلج في الكلام:

-فـ ... في ... صحـ ... حـ ... تك، يا أخـ.. خـ.. ي!

ولكن قبل أن يضرب كأسيهما في بعضهما البعض ويتناول الخمر، دق الباب، ودخل "زربالا":

أقلق هذا المجيء المفاجئ لـ"زربالا" بشكل واضح كلا من الشرطي "صَفر" والجزار "ميرزا آغا"، رفع الشرطي "صَفر" عينيه عن "زربالا" ونظر إلى الجزار "ميرزا آغا"، وبرغم أن صاحب المكان هو "ميرزا آغا"، فإنه لم يتكلم بكلمة. قال "زربالا" متلعثمًا:

-أخي... أعطني كأسًا من النبيذ البارد... كأسًا واحدًا... هل ستعطيني النبيذ؟!

كان الجزار "ميرزا آغا" رجلاً منظمًا، كان لا يخدم أحدًا مطلقًا بعد الساعة العاشرة. ولكن هذه الليلة لم يتفوه بكلمة بعد أن شاهد فضيحة "قاشي" من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يشعر باحتراق قلب "زربالا". وضع الكأس الموجود بيده

على المنضدة، ونهض، مع أنه كان متأكدا بشدة من أن "زربالا" ليس لديـه قـرش واحد في جيبه، وعلى الرغم من أنه لا يعلم هل سيسترد ثمـن هـذا النبيـذ أم لا، فإنه أخرج زجاجة نبيذ ماركة "أفيس" موضوعة في إناء حديـدي مـن الثلاجـة، وأعطاها له:

-خذ ...

ولكن – على رأي طبيب الأسنان "فيضي" – لم يستطع الـشرطي "صَـفر" الذي اعتل مزاجه أن يتمالك نفسه، وقال بشكل تهديدي واضح مثل أيـام الاتحـاد السوفيتي:

-آه، يا "ز ... ز ... ربالا"، آه، ه ، عدتَ من جديد... د .. د؟

في الحقيقة، ألقى "زربالا" "قاشي" بالصندوق أمام الحظيرة، وخرج من فنـاء المنزل، كما كان يفعل في السابق، أخذته قدماه بشكل آلي ولا إرادي نحو الخمـر، وأخذ نصف لتر خمر من المحل، وذهب إلى المكان الـصخري الموجـود علـى شاطئ البحر.

كانت الرياح عادة تهب بشكل خفيف في هذا المكـان الـصخري، فكانـت الأمواج ترتطم بالصخور، وكان هذا الارتطام فقط هو الذي يفسد هدوء هذا الساحل الخالي تمامًا ليلاً.

في ليلة ذلك السبت لم تهب أي رياح، وكأن ذلك الهدوء الذي خيم على ذلك المكان الصخري كان ينبئ عن الأمور الحزينة في الدنيا من خلال هذا الجو الحار.

كان "زربالا" الذي جلس مسندًا ظهره على صخرة ضخمة يحتـسي الخمـر رشفة رشفة من الزجاجة، وكان لا يفكر في أي شيء. كان ينصت فقط إلى هـدوء ذلك الشاطئ الخالي تمامًا. كان من حين لآخر يبدو من ناحية منتجع "جنة المكـان" زوج من السياح، فتاة وشاب، كانا يقتربان نحو هذه الناحية بشكل رومانسي تحـت

ضوء القمر بغرض البحث عن مكان خال في هذا المكان الصخري، ولكن فجأة وبمجرد أن شاهدا "زربالا"، سرعان ما ابتعدا عن المكان.

لم يكن "زربالا" يدري بهذا الأمر مطلقًا، كان ينظر وهو يشرب الخمر إلى البحر الذي كان نادرًا ما يكون ساكنًا على هذا النحو من الليل، كان أحيانًا يُخيل إليه أن رائحة ذلك الخمر تشبه حقيبة المبيدات الخاصة به.

كان "زربالا" الذي كان يعتدل مزاجه قبل ذلك بشرب ١٥٠ جرامًا من الخمر هذه المرة بالرغم من أنه أنهى زجاجة نصف لتر من الخمر رشفة رشفة، لم يعتدل مزاجه. ولكنه أصبح ثملاً، وكأن خيم على عقله ضباب كثيف، وثقيل، كان كل ما حدث وكل ما حوله يتمثل له بداخل ذلك الضباب الكثيف والثقيل. وكانت أيضًا تُسمع من داخل ذلك الضباب الكلمات التي قالها الشرطي "صفَر" عندما ساقته قدماه إلى مقهى الجزار "ميرزا آغا" رغبة في الخمر البارد، ولكن لم يكن معنى هذه الكلمات واضحًا.

بدأ "زربالا" في شرب الخمر واقفًا، وكلما شرب كان يشعر بانتشار راحة بداخله، وكانت قطرات الخمر المتساقطة من جوانب فمه تسيل على ذقنه، وعنقه، وكأنها كانت تحميه من ليلة ذلك السبت.

آنذاك دخل الخال "عباد" مسرعًا، فرأى "زربالا" الذي كان يشرب الخمر واقفًا:

-آه، أيها التعيس، هل أنت هنا؟ آه، لم يبق مكان لم أبحث عنك فيه! آه "جولبالا" يموت، أيها التعيس!

دخل "زربالا" بلهفة، وكان "جولبالا" ممددًا على السرير، وكانت "أمينة" والخالة "تسا" التي جاءت لمساعدتها جالستين بجوار السرير، أخرجت الخالة "تسا" مقياس الحرارة من تحت إبط الطفل ونظرت إليه صارخة:

-آه! درجة الحرارة تجاوزت ٤١ درجة، يا إلهي! الطفل يضيع منا!

صرخت أمينة في وجه "زربالا" الذي كان مغبيًا لا يفهم أي شيء:

-الطبيب! ... الطبيب! ...

(٨)

كان "زربالا" يجلس القرفصاء تحت شجرة التين الضخمة الموجودة في فناء المنزل، وكان يشرب السيجارة التي في يده بشراهة، مستنشقًا ذلك الدخان الكثيف، وكان ينظر إلى عربة الموتى الصغيرة التي لم يستطع أن يصرفها من أمام عينيه بأي وسيلة من الوسائل. كان يغمض عينيه ويفتحهما، ويهز رأسه، ولكن صورة تلك العربة كانت لا تنصرف من أمام عينيه، كان "زربالا" كلما خطرت بباله فكرة من تلك الأفكار المخيفة، يرتجف بدنه، حيث فكر في أنه سوف يحمل "جولبالا" غدًا في عربة الموتى الصغيرة ويذهب به إلى مقابر القرية ويدفنه.

انتفض "زربالا" من مكانه وأسرع إلى منزل الطبيب "جعفروف" بعد تلك الصرخة التي صرختها فيه أمينة. كان منزل الطبيب "جعفروف" يبتعد عنهم بثلاثة أحياء، ناحية شاطئ البحر.

كان الطبيب "جعفروف" ينام مبكرًا ويستيقظ مبكرًا عندما يخلع ملابسه ويرغب في النوم، كانت دائمًا السيدة "أننا فيكتوروفنا" التي تعامل بلطف من يأتي لطلب زوجها لمريض عنده -وأحيانًا كان يحدث ذلك في منتصف الليل - تفتح باب حجرة النوم وتقول:

-يا "آغا كريم أوغلو"، يطلبونك ...

عندما ارتدى الطبيب "جعفروف" سروال البيجامة التي غسلتها وكوتها السيدة "أننا فيكتوروفنا"، وخرج إلى باب الحديقة في الطابق الأول وقف "زربالا" عند عمود الإنارة بالحديقة، رأى الطبيب "جعفروف" عيني هذا المواطن من أهل القرية الذي يعرفه من وجهه فقط، وكانت عيناه تلمعان في ضوء المصباح وتكادان تخرجان من حدقتيهما. سأله:

-ما الأمر؟

قال "زربالا" وصوته يرتعد:

-ابني يموت.

على الرغم من أن السيدة "آننا فيكتوروفنا" لا تعرف اللغة الأذربيجانية، فقد تأثرت تأثرًا شديدًا من صوت "زربالا" وهيئته وقالت:

-ساعده يا "آغا كريموفيتش"!

كان الاسم الحقيقي للطبيب جعفروف هو "آغا كريم"، ولكن عندما كان يعيش في روسيا، كان الجميع، وكذلك "آننا فيكتوروفنا"، ينادونه "آغا كريموفيتش". وكان مكتوبًا في جواز سفره السوفيتي "آغا كريموفيتش جعفروف". وبعد أن حصلت أذربيجان على استقلالها، تم إلغاء جوازات السفر الحمراء السوفيتية، وعندما حصل على بطاقة تحقيق الهوية كتب هكذا أيضًا، ولكن لم يُكتب اسم والده المرحوم "حسين قولو" في جواز سفره القديم ولا حتى في بطاقة تحقيق الهوية الجديدة.

ارتدى الطبيب "جعفروف" ملابسه بسرعة، ورفع الحقيبة التي تساعده منذ أكثر من أربعين عامًا، والتي كان يضع فيها جميع أدوات الإسعافات الأولية، وخرج مع "زربالا" من فناء المنزل.

شعر "زربالا" بهذيان شديد، ولم يجرؤ على الوقوف بجوار "جولبالا" الذي يحترق في حرارته، لم يستطع أن يفعل ذلك، جلس القرفصاء تحت شجرة التين

أكثر من نصف ساعة، يدخن السجائر ويتخيل عربة الموتى الصغيرة تلك التـــي لا تفارق مخيلته.

في النهاية خرج الطبيب "جعفروف" من الحجرة وفي يده حقيبتـــه الـــشهيرة تلك. انتفض "زربالا" من مكانه، وأسرع نحوه، آنذاك ابتسم الطبيـــب "جعفـــروف" ابتسامة بسيطة من وجه الذي يحلقه يوميًا قائلاً:

-ليس هناك شيء خطير، اللوزتان ملتهبتان سوف تنخفض درجة الحـــرارة بعد الحقنة. وسوف تمضي الحرارة....

تلاشى ذلك الضباب الكثيف والثقيل الذي كان يُخيم على ذهن "زربالا"، بـــل بالعكس أصبح ذهنه الآن كأنه ساعة تدق دقاتها وتعمل بسرعة، في البداية عـــانق "زربالا" الطبيب "جعفروف" وأراد أن يحتضنه ويقبله من خديه، ولكنه تمالك نفسه.

صدق ظنه ... لم يكن في جيب "زربالا" قرشًا واحدًا، بل لا يوجد في منزله كله، ولكن لحظة انصراف الطبيب "جعفروف" خالي الوفاض جعلت "زربالا" فـــي قمة الخجل.

آنذاك سُمع صوت صياح ضعيف لـــ "قاشي" الذي أُلقي به أمام الحظيرة منذ المساء داخل الصندوق، وفي لحظة، جرى "زربالا" ورفع ذلـــك الـــصندوق مـــن الأرض، وعاد إلى الطبيب "جعفروف" وقال:

-ربنا يعطي الصحة لأولادك دائمًا.

ثم سار خلف الطبيب جعفـــروف وهـــو يحتـــضن الـــصندوق، وصـــاحبه حتى منزله.

عندما وصل إلى منزل الطبيب "جعفروف"، وضع "زربالا" الصندوق علـــى الأرض بجوار عمود الإنارة الموجود في حديقة المنزل قائلاً:

-هذا لكم، أشكركم جزيلاً. جزاك الله خير الجزاء! لا حرمنا الله منكم!

عندما خرج "زربالا" من باب فناء منزل الطبيب "جعفروف"، كأنه سمع صوت صياح ضعيف لـ "قاشي" الذي لم يصدر صوتًا طيلة الطريق، ربما خُيل لـ "زربالا" هذا، ولكن ليس لهذا معنى، بعد ذلك خرجت "آننا فيكتوروفنا" إلى باب الحجرة بملابس النوم من أجل استقبال زوجها، قال لها الطبيب "جعفروف" مشيرًا إلى الصندوق الكرتوني الضخم الموجود تحت العمود:

-تفضلي، يا "آننا فيكتوروفنا"، وهذا دجاج من أجل أرز الصباح! ...

بعد ذلك غسل الطبيب "جعفروف" يديه بالصابون وفكر وهو يُدلكها بقوة كالمعتاد أنه يبدو من حجم الصندوق أن به طائراً كبيراً، ربما يدعو جارهم المقابل لهم الأستاذ "مظفر" إلى الطعام غدًا؟!

الأمر وما فيه أن الطبيب "جعفروف" لم يصوّت لصالح الأستاذ "مظفر" في الانتخابات البرلمانية، لأنه رجل صاحب مبدأ في مثل هذه الأمور، كان يعتقد أن الأستاذ "مظفر" ليس هو الشخصية المثقفة التي ستستطيع المحافظة على مصالح جمهورية أذربيجان، لذلك لم يُضح بمصالح جمهورية أذربيجان من أجل مصالح الجوار. ولكن في الآونة الأخيرة، كان "الطبيب جعفروف" يعتقد أنه من المحتمل أن الأستاذ "مظفر" يرتاب فيه، لهذا السبب فإن دعوته إلى الطعام، ليست أمرًا سيئًا؛ فهو جار لهم على أية حال...

لم يحسم الطبيب "جعفروف" أمره في هذا الشأن، كان يفكر في تأجيل قراره إلى الغد. (كما يقول المثل "شر الصباح أفضل من خير الليل"). ربما يدعو أيضًا طبيب الأسنان "فيضي" بك لطعام الأرز، لأن "فيضي" بك كلما تقابل معه، يقول له لا يوجد في الدنيا أفضل من الأطعمة الأذربيجانية، سيدعوه ليرى كيف أن "آننا فيكتوروفنا" تطهو الأرز.

أجل الطبيب "جعفروف" حسم هذا الأمر للصباح، وخلع ملابسه، ودخل سريره.

كان الطبيب جعفروف ينام بمجرد أن يدخل سريره، وهذا ما حدث في هذه المرة أيضًا.

(٩)

حضر "المولا زيد الله" أمس سرادق عزاء في القرية المجاورة ليلاً، وعاد إلى المنزل متأخرًا، ونام متأخرًا أيضًا، وعندما استيقظ في حوالي الساعة الخامسة صباحًا انتظر بشكل لا إرادي صياح ذلك الديك الخبيث متقلبًا في مكانه، ولكنه لم يسمع صياح الديك، فتح المولا "زيد الله" إحدى عينيه، وأنصت بدقة: لم يكن هناك صوت سوى زقزقة الطيور المستيقظة في أعشاشها، وتلاطم أمواج البحر بالصخور الموجودة على الشاطئ، وبدأت الرياح التي تشتد تدريجيًا في الهبوب.

أراد المولا أن يغمض عينيه ثانية وينام، ولكن مهما حاول وتقلب على هذا الجانب وفي تلك الناحية، لم يستطع أن ينام، وآنذاك، كأنه سمع صوتًا من بعيد يقول له: يا "زيد الله" انظر إلى حديقة فناء "زربالا"، لماذا لا يصيح ذلك الديك الخبيث؟

نهض "المولا زيد الله" من مكانه، واقترب نحو النافذة المفتوحة بالحجرة بملابسه الداخلية كما اعتاد أن ينام بها صيفًا وشتاء، والتفت نحو حديقة منزل "زربالا".

كان "زربالا" يجلس تحت شجرة التين الضخمة ويدخن سيجارة.

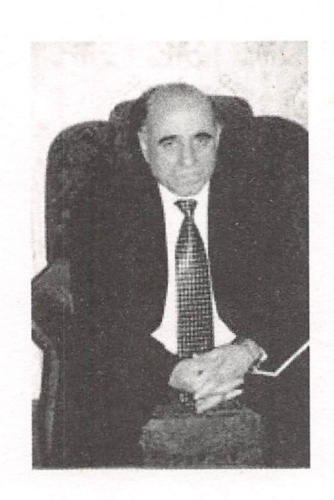
صاح "المولا زيد الله" من النافذة:

-آه، يا "زربالا"، أين "قاشي"؟

لم يرد "زربالا"، وكأنه كان ينتظر هذه الكلمات من "المولا زيد الله"، فانتحب، وبدأ في البكاء بهدوء.

(١٠)

قصة "عبرة الكلب"



الكاتب/ مولود سليمانلي

(١٩٤٣م)

حاصل على لقب "كاتب الشعب الأذربيجاني"، و"خادم الفن القدير"، كما فاز بجائزة "القلم الذهبي". قام بتأليف روايات وقصص طويلة مثل "الصوت"، و"الهجرة"، و"الطاحونة"، و"الشيطان". عضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام ١٩٧٤م. عرضت له مسرحية باسم "الطاحونة"، وكذلك مسرحية "الوقح" على خشبة مسرح "يوغ". فاز بجائزة "أناصام" من تركيا عام (٢٠٠١م)، وجائزة "القدير" من اجتماع "أدب الأناضول". كما حصل على الجائزة الأدبية الرفيعة (آراز) تكريمًا له على النجاحات التي حققها في مجال الصحافة الإبداعية الوثائقية، وكذلك حصل على جائزة "أفضل عمل أدبي للعام" عن رواية "الهجرة".

قصة "عبرة الكلب"

للكاتب / مولود سليمانلي

كان لون الثلج يميل للزرقة، وكان الغضب والضيق مسيطرًا على الجميع لما حلّ بالتلال الخضراء الجميلة التي كانت تبعث جوًا من الراحة والبرودة على الأرض في الصيف ... انقسم أهل القرية إلى مجموعات من الرجال وأوقدوا المواقد عند مداخل القرية السبعة ينتظرون. كانت النار المشتعلة عند بداية الطريق الرئيسي عبارة عن موقد من المطاط، فقد أضرموا النار في إطار من المطاط.

قال الراعي:

-مستحيل أن يكون الاتساخ سبب زرقة الثلج، بل شدة البرودة.

التف بعباءته، وكان تحته إطار، بعد قليل سوف يُضرمون النار فيه هو الآخر. كانت الأرض والسماء مملوءة بالثلوج، لذلك حل السواد في كل مكان ...

-ربما من دخان الإطارات؟

قدم "عثمان" توًا من وسط القرية، وفهم بمجرد وصوله عن أي شيء يدور الحديث، أشار بيده إلى الدخان المتصاعد والملتف كطريق حالك الظلمة في الجو شديد البرودة – انظر إلى الدخان، انظر كم هو أسود!

-تعال انظر من هذه الناحية.

كانت عباءة الراعي قد تجمدت من شدة البرد والصقيع، وأصبحت كالشجرة، كانت تشبه الغرفة الصغيرة، وكان الراعي أيضًا يتحدث كأنه عند الباب.

-ليس من الدخان، لو كان من الدخان، لكان السواد قد علانا أولاً. لا يوجد ثلج...

-نحن أيضًا حل علينا السواد، ألا تعرف ماذا يحدث ...

مر "عثمان" إلى الناحية الأخرى من الموقد.

-لو كنا ناصعي البياض مثل الثلج، لكان الاتساخ ظهر علينا أيضًا.

نهض على أطراف قدميه ونظر إلى الطريق، وجلس فوق الصخرة الموجودة بجواره.

وضعوا على مسافة من الموقد علفًا وأعشابًا وتبْنًا، كانت العصافير تحط عليه من حين لآخر، وتأكل منه. كان يسمع صوت أقدام فرس، كان الصوت يتباعد ويخفت، ويخرج من القرية وينتشر في السهول التي غطاها الثلج: وكأنهم كانوا يكسرون أغصانًا. كان الجو يُثرثر ذاتيًا.

نظر الراعي إلى الموقد متبسمًا وقال:

-"مرسل" قادم.

-صوت أقدام فرسه.

-أي "مرسل"؟

-"مرسل" من أهل الصقارين.

كأن صوت أقدام الفرس يخرج من الجبل، ويقترب متسارعًا. أخرج الراعي رأسه من عباءته والتفت حتى يرى الفارس، ولكن لم يظهر أحد حتى الآن. بدت فوهة البندقية من بين العباءة.

-ما هذا؟ ربما شيء قديم؟!

-بندقية جدي.

-حسناً إنها ظلت حتى يومنا هذا؟

ابتسم الراعي ووضع يده على البندقية:

-احتفظتُ بها ليوم الشدة.

-هل تعمل؟

قال الراعي:

-لا، صدأت، لا تعمل.

-ألقها في النار، تسخن.

رفع الرجل المسن الذي كان يمسك العصا صامتاً بجوار الموقد رأسه وقال:

-البندقية لا تُلقى في النار، يمكن أن تطلق رصاصًا وهي في يدك. أنت لا تنظفها لذلك لا تعمل. يجب أن تستعمل البندقية، ويجب أن يعوي الكلب...

-هز العصا فوق رأسه ورطمها بالأرض المملوءة بالثلوج.

-يجب أن تصيب العصا أحدًا ما.

اقترب جدًا صوت أقدام الفرس، وبمجرد أن أنهى العجوز حديثه، ظهر فارس من وسط البيوت. كان البياض الناصع في كل مكان، لكن بسبب أن الطريق الذي قدم منه الفارس كان يبدو أسود، بدا المكان وكأنهم ربطوا القرية بالفرس، وكأن القرية معقودة خلف الحصان. أشار الرجل المسن بعصاه نحو الفارس:

-يجب أن يجري الفرس ...

التفتوا ونظروا إلى الفارس:

-فرس "مرسل" بطيء لدرجة أنه كان يبدو كإنسان يمشي.

هز الرجل المسن عصاه التي احترق طرفها وتفحم في النار رافعًا إياها بمحاذاة رأسه مصدرًا صوتًا:

-إيه هـ

أصدر الهواء البارد الذي خرقته ضربة العصا صوتًا كصوت رجل يزمجر. فزع الحصان من هذا الصوت، وانزلقت إحدى قدميه على حافة الطريق، فانهمر السوط فوق رأسه كطلقات البندقية.

قال الراعي:

-أصدر صوت "مرسل" صوتًا مثل البندقية تمامًا. وأخذ ينظر إلى جانبي بندقيته.

صعد الفارس على الركاب، ومد نظره نحو الأماكن البعيدة:

-ألا يأتي؟!

-ماذا حدث، هل تقلق؟

قال الرجل المسن ناظرًا إلى نفس الاتجاه هذا هو الحال.

-يقال، إنهم استولوا على دبابة من مكان ما، وإنهم سوف يأتون إلينا بالدبابة!

كان "مرسل" رجلاً نحيفًا طويل الوجه، نظر ثانية على الطريق وابتلع ريقه وقال:

-لا تراجع ولا استسلام.

ارتدي معطفًا سميكًا طويلاً، وفتح ياقته، فظهر المقبض الفضي للسيف الذي ربطه على خصره، ووضع يده على مقبض السيف قائلاً:

-فليأتوا!

نزل من على الحصان، واتجه نحو الموقد. مد عثمان يده على السيف:

-ما أجمل هذا الشيء؟

رفع "مرسل" ذيل معطفه، كان السيف "مستريح" في غمده، وكاد أن يلمس طرفه الأرض.

-جميل والله!

وضع الرجل المسن مرة أخرى عصاه في النار، وكان يُقلبها على هذه الناحية وتلك.

-لا يقال على السيف "جميل".

أطال عثمان رأسه ونظر إلى الرجل قائلاً:

-لماذا؟

-ما، لماذا؟ كأنك تقول على الرجل "جميل". أي رجل يقبل أن تقول له أنت جميل.

-لماذا لا يقبل؟

-أنت تقبل؟

نظر الراعي إلى جانبي البندقية، ووضعها أمامه، وسحب مغلاق البندقية... لا شيء، حتى يذهب عنه خجله، قال:

-خيال البندقية يكفي، كأنك لا تعرف الأرمن، هم جبناء.

مد عثمان أفطس الأنف ضخم الفم يده مرة أخرى على السيف:

-أخرجه، فلنر، كيف حال شفرته؟

انتصب الرجل المسن وهز عصاه مرة أخرى بمحاذاة رأسه:

-شفرة السيف تنتظر العناية من صاحبه.

-ماذا تنتظر من صاحبه؟

قال "مرسل" هذا، وألقى المعطف السميك فوق الثلج. قال الرجل المسن مبتسمًا:

-مثل، ليس كلامي، حسنًا، أخرجه، لننظر ما فيه.

قال "مرسل":

-أحاول إخراجه من غمده منذ فترة، ولا يخرج.

ثم أمسك السيف من مقبضه، وشده مرة أخرى ... ضحك الراعي بشدة، وفجأة صمت، يبدو أنه تذكر بندقيته، والتفت حوله خجلًا... وكانت كلاب القرية تنبح منذ وقت على شيء تشعر به.

خلع عثمان رداءه الفرو، وشمر عن ساعديه:

-قف، الآن سوف تُخرجه. ارفعه عن خصرك.

-مهما حاولت، لا يخرج مطلقًا... وكذلك هذه البندقية، أيضًا لا تفتح. أمسكوه بقوة من غمده.

قال "مرسل":

-ربما تخرج فجأة، وتسقط أنت في الموقد، نُسخنها، ونضعها في النار.

قال الرجل المسن وهو يجلس بعيدًا بعض الشيء:

-لن يخرج، ربما وضعوه في غمده وهو ملطخ بالدم، وصدأ.

نظر "مرسل" للرجل الدموي قائلًا:

-أنت الآخر تتكلم بما يخطر ببالك. أتعرف، منذ متى هذا السيف؟! منذ زمن "تيمورلنك".

غاص الراعي في التفكير ربما يتذكره:

-أي تيمور؟

شَهر "مرسل" السيف في ضوء الموقد:

-ها هو، انظر، مكتوبًا عليه "تيمور".

حاولا معًا وقرأ حرفًا حرفًا من اليمين إلى اليسار كلمة "تيمور". هز الرجل المسن رأسه:

-من أين تعرف أنه "تيمور لنك"، لم تكتب كلمة "لنك"... لا يمكن أن يكـــون "تيمور لنك".

-أي تيمور يمكن كتابة اسمه على السيف؟ أهو كتاب حتى يكون "تيمـــور" آخر؟!

غاص "عثمان" في التفكير... وتخيل أن فارسًا بدأ في القدوم رابطًا سيفه في خصره، ويرتدي شيئًا يشبه معطف "مرسل" الطويل، وكان حصانه هـــو الحـــصان نفسه الذي كان يأكل من العشب المنثور على الثلج والذي كان يفزع من أقل صوت ويبتعد مرتعدًا عن مكان الموقد ... وبسبب أن عثمان أصلاً لا يدرك جيدًا ما معنى التاريخ، لم تكن صورة "تيمور لنك" التي حاول تجسيدها في خياله مثـــل الـــصورة المعروفة في التاريخ، كان يشبه "مُرسل"، ويأتي، ولكن كان يبتعد أكثر كلما اقترب.

-قادمون! قادمون!

لم يستطع الملتفون حول الموقد أن يتمالكوا أنفسهم وفر كل منهم إلى ناحية.

-إلى أين؟

شهر "مرسل" السيف أمام عينيه وهو في غمده، والتفت وهو على هذه الهيئة ونظر إلى الطريق. كان هناك موكب سيارات قادم من وسط التلال. أرخى "مرسل" سيفه مشيرًا نحو التلال:

-إلى أين؟ ألسنا ننتظر هؤلاء؟

تجمعوا حول الموقد ثانية. وبدأ الناس يتوافدون من كل ناحية. صعد "مرسل" أعلى التل الموجود على حافة الطريق:

-كم بندقية عندكم أيها الناس؟

بدأت القرية في الهياج مثل البحر. وكانت الأبواب تُفتح وتغلـق، ويحـدث صوت ارتطام شيء ما مثل تنفيض السجاد، وكانت أصوات الأقدام خارجـة مـن القرية مثل الرصاص.

-كم بندقية لديكم؟

رفع غلام أشقر البندقية الموجودة في يده لأعلى وقال:

-ثلاث بنادق، إحداها هذه، والأخرى مع الراعي، والثالثـة لـم يخرجهـا صاحبها من المنزل.

اتجه "مرسل" نحو الحصان:

-لماذا؟

-قال: أنا أستطيع فقط أن أحمي منزلي.

-هل بندقيتك ترمي؟

-عندما تضرب ماسورتها في الأرض، سوف تطلق الرصاص.

قال مرسل:

-على الأقل، أصدر بها صوتًا، أنا سوف أقود الحصان نحوهم، وأنت تصدر بها صوتًا من الخلف، أضرب ماسورتها على الأرض، وأطلق النار وفوهتها نحو السماء. فهم قوم جبناء، يكفي أن يروا البندقية.

كانت قافلة السيارات تقترب، وفي المقدمة سيارة ماركة "زابوروجست"، وتليها سيارة كأنها نظمت عمدًا في حجم واحد، وكانت السيارة النقل الموجودة في المؤخرة مملوءة بالناس، كانوا واقفين بداخلها بجوار بعضهم البعض...

هرول "مرسل" نحو الحصان، وتفرق الآخرون واختبئوا خلف الأسوار. صوب الفتى الأشقر بندقيته من خلف السور نحو قافلة السيارات...

تم ما كان يفكر فيه "مرسل" منذ عدة أيام، حيث فر نحو حصانه من وسط الناس الذين كانوا في دهشة، ووثب على السرج .. حدث كل شيء كما كان يتوقع، فقط لم يخرج سيفه من غمده، لهذا السبب شهر سيفه أمام عينيه وهو بغمده، وكما فكر، كان يريد أن يقول للناس:

"أيها الأخوة، إلى الأمام في سبيل أرضنا ووطننا".

قال هذا الكلام وهو على هذه الهيئة أي فوق صهوة جواده، واضعًا قدمه في الركاب، ومنتصبًا بعض الشيء، شاهرًا سيفه أمامه. وفي لحظة خيم صمتٌ عميق على جميع الأرجاء، ولم يكن في القرية سوى صوت نبح الكلاب فقط.

أخرج كلبٌ رأسه من النافذة الأمامية للسيارة ماركة "زابوروجست"، وكان يلهث باسترخاء. وأخرج سائق السيارة من النافذة الأخرى علمًا صغيرًا أبيض، ملوحًا به. وأخرج شخص ما رأسه من هناك بروية. خرج الرجل المسن من خلف كومة من الروث قائلاً:

-لا تصدق هؤلاء، يخدعونك ثانية!

أخرج الكلب نفسه من نافذة السيارة مزمجرًا. نزل أحدهم من السيارة التي يرفرف منها العلم. وقال ملوحًا بعلمه من جديد:

-أحضرنا الكلب للعراك!

اتجه الراعي بضع خطوات نحو السيارة وبندقيته على صدره، ووقف وأمعن النظر في الكلب، وفجأة ودون أن يشعر بما حدث وبما سيحدث ناسيًا كل شيء حتى البندقية التي في يده، ابتسم:

-الأخ "آغا جان"، أهذا كلبُك؟

تقدم "آغا جان" قليلًا:

-ألنت أيضًا تحمل بندقية أيها الأخ "دمير"؟

-لماذا أنت تحمل البندقية أما أنا فلا؟

نزل من بالسيارة، وتجمعوا عند حافة الطريق، وكانوا يقتربون خطوة خطوة... تحرك الكلب وأراد أن يخرج. عوى وارتطم بالزجاج. عاد "آغاجان" وأمسك الكلب من طوقه، وأخرجه من السيارة، وأحضره نحو مجموعة "دمير":

-احضرْ كلابك واحدًا، واحدًا، فلنجعلهم يتصارعون، أيها الأخ "دمير". لقد ربيتُ هذا من أجل كلابك، كلب إنجليزي.

نظر "دمير" إلى الناس التي بدأت تتجمع:

-ما رأيكم، أيها الناس، أليس هذا عملاً أيضًا؟

-آه، أحضروهم، فلنجعلهم يتصارعون، نحن أنفسنا نتصارع، دع كلابنا تتصارع هي الأخرى.

قال الرجل المسن هذا الكلام، ومد عصاه نحو الكلب. أمسك الكلب العصا بأسنانه وبدأ في قضمها.

سرعان ما وضع بعض الأرمن الموجودين بجوار السيارة أيديهم في جيوبهم، وتقدموا للأمام ونظروا بحقدٍ للرجل المسن:

-أبعد عصاك، تكسر أسنان الكلاب. لا أحد يقترب من كلبنا، إذا كنتم ستجعلون الكلاب تتصارع، أحضروها، فلنجعلها تتصارع.

ذاع هذا الكلام وتعنت الأرمن في جميع أرجاء القرية نادى الراعي على ابنه من بين الناس:

-أحضر الكلب، يا "آيخان"!

وضع البندقية فوق السور، وخرج للعراء. لم يكسُ الثلج هذا المكان. وكلما ابتعد عن الموقد أو حافة الطريق أو القرية، يغطي بياض الثلج الإنسان. كانت الناس لا تتحرك من مكانها بعد. وقف النازلون من السيارة بجوارها، وأهل القرية بجوار السور.

كان الكلب الإنجليزي كلبًا ضخمًا أسود الفم، يميل إلى الحمرة، كان ممددًا فوق الثلج ينظر من أين سيأتي كلب الراعي...

كان هناك صوت ضجيج يأتي من داخل القرية مرة أخرى. وكان هذا الضجيج يتجه نحو حلبة المصارعة هذه المرة...

انتصب "الكلب الإنجليزي" فجأة مثل الثعبان، والتفت ونظر إلى ذويه، ونبح بصوت خافت متحشرج. كان كلب الراعي يأتي مخترقًا الثلج، كانت قوة "آيخان" لا تصل لقوة الكلب، حيث هرول خلف الكلب مقتلعًا الثلج خلفه.

قال الراعي:

-لا تتركه بعد، يا "آيخان"، فلا يهدأ غضبه!

كان معظم الناس الذين ينتظرون إشارة أو إيماءة من قبل، قد توافدوا خلف الكلب ملقين الحجارة التي جمعوها خلفه. بقيت بندقيتان فوق السور، وكان قد رُصّ بجوار السور فؤوس، وآلات حديدية تشبه الحربَة، وكذلك بلطة ومجرفة. شاهد "مرسل" هؤلاء وهو فوق حصانه صارخًا:

-لا تبرحوا أماكنكم أيها الناس!

هجم كلب الراعي على الكلب الآخر بشراسة، ولكن ما أن وصل إليه كأنهما يعرفان بعضهم البعض، والتف كل منهما حول رأس الآخر، وتمددا فوق الثلج بجوار بعضهما البعض. من ناحية الراعي، ومن الناحية الأخرى "آغاجان" أمسك كل منهما كلبه من طوقه، وألقى لجام الطوق على كلبه. صاح الراعي صيحة قوية:

-ماذا تفعل، فلنكسر ظهرك!

ضرب "آغاجان" كلبه على ظهره ودفعه للأمام، فالتفت الكلب ونبح على صاحبه، وتمدد الاثنان ثانية.

-لقد كانا صديقين!!

ألقى الرجل المسن عصاه نحو الكلبين، فأمسك الكلبان على الفور بالعصا. كان "مرسل" لا يزال على ظهر الحصان:

-آه، باعنا هذا الأرميني!

ثم التفت نحو القرية:

-ألا يوجد كلب في القرية، أحضروا واحدًا غيره.

فأسرع الجميع على الفور، وأحضروا ثلاثة كلاب معًا. أمسك "آغاجان" كلبه من طوقه ورفعه:

-لا يجوز هذا، اتركوا واحدًا واحدًا. ولكن تفقد الكلبُ الكلبَ القادم من بعيد.

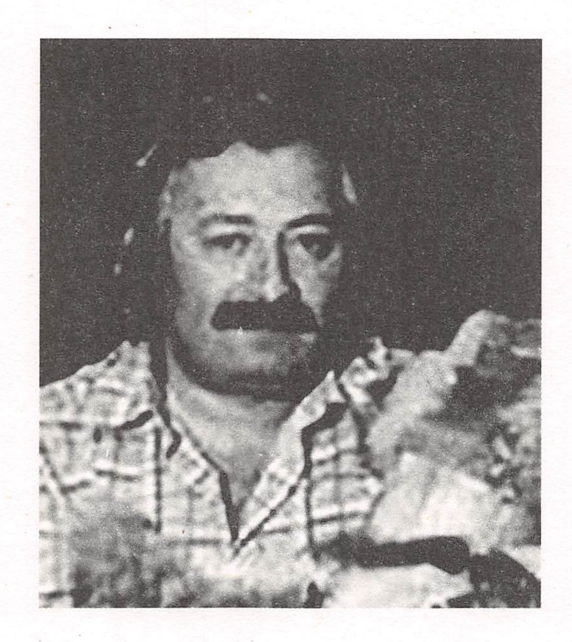
اقترب "مرسل" نحو الكلب وهو فوق الحصان وبصق عليه:

-تُوف، على وجهك!

سار صاحب الكلب الجديد للأمام، وأمسك الكلب من قدميه الخلفيـــة، وألقـــاه على كلب "آغاجان"، فحدث هرج ومرج، وبدلاً من أن تتصارع الكـــلاب، نبحـــت على الناس. لمس أحد ما بندقية الغلام الأشقر، فسقطت البندقية من فـــوق الـــسور، وارتطمت ماسورتها بحجرٍ، فأطلقت رصاصة، وصدر صوت ضخم، لدرجـــة أن الجميع تجمد مكانه، وفجأة نظر الجميعُ بعضهم لبعض في رعب. سقط العلم الـــذي أحضره الأرميني على الأرض، فأخذ الراعي العلم وعلقه في طوق الكلب...

(١١)

قصة "الفقير"



الكاتب/ شهمار حسينوف

(١٩٤٥ - ١٩٨٩م)

كاتب أذربيجاني وصحفي. عضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام (١٩٧٥م). رائد من رواد القصة القصيرة. صدر في حياته مجموعتين قصصيتين هما "محمد الرائق"، و"الفقيد".

قصة "الفقيد"

للكاتب / شهمار حسينوف

منذ متى لم نلتق مع "أكبر"؟ عشر سنوات، خمس عشرة سنة؟ ربما أكثر من ذلك، أو ربما أقل ... لا أدري. لو قال لي أحد، الآن في هذه اللحظة في زحام هذا السوق، سوف ترى "أكبر" الذي يبيع الكريز خلف طاولة البيع على بعد عشرة أمتار، وسوف تلتقي معه، كنت لا أصدق هذا.

رأيتُ الكريز من مسافة يبدو حجمه كبيرًا وشكله غريبًا، ما أجمل نوعية الأبيض والأحمر، كنتُ لا أعرف أن هذا الكريز الذي آراه أمامي غالي الثمن، ولن أستطيع شراؤه، ولن أسأل حتى عن سعره. ومع ذلك ذهبتُ إلى المكان الذي يُباع فيه، توجهت إليه بمجرد رؤيته.

النظر إلى الجمال ثواب... أووو، يا ترى رأيتُ من؟ "أكبر" تعانقنا. "آه، كيف حالك؟"، "أنا بخير"، "ما الذي جاء بك هنا" (أشار إلى الكريز ضاحكًا) "حسنًا، كنتُ أريد أن أقول إنك تستطيع أن تأتي إلى السوق بالمدينة، ألا نستطيع أن تأتي إلينا؟"، "لقد جئتُ"، "إلينا؟"، "إلى مكان عملك، قالوا إنك في مدينة "لا نكران". "نعم، كنتُ في جولة مسرحية هناك العام الماضي" قلتُ ذلك كأنني مذنب. كأنني كنتُ مذنبًا لأنه عندما جاء كنتُ في "لا نكران".

كان المارة يسألونه عن ثمن الكريز، وينتظرون صاحبه – "أكبر"

هل لديك شنطة؟

لم يكن في صوته كذب أو تصنع، بل على العكس كان به طلب وحسم، وعشم. "ماذا تفعل؟" "كريز للأطفال ..."، "لا، لا، لا..."، و"نعم، نعم، نعم..."

عندما كنتُ أخرج من السوق، كنتُ أهز الشنطة فرحًا، وأفكر ربما بها حوالي أربعة كيلو جرامات من الكريز، وربما أكثر، ربما خمسة، مكسب عشرين منات غير متوقع. استغفر الله.

كنتُ أعرف، وأفهم أن التفكير بهذا الشكل شيء سيئ، ليس جيدًا، وقاحة. ماذا علي أن أفعل؟ لا أستطيع منذ زمن التغلب على أفكاري.

يحب ابني النحيف جاحظ العينين (يشبه أمه في النحافة) المكسرات أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. ربما كنتُ أنا أيضًا في طفولتي مثله، ربما ذلك لا أعرف.

وضعتُ الشنطة المملوءة بالكريز فوق المنضدة. وقلتُ تفضلوا بالهناء والشفاء، فإنني لم أجدكم في الشارع!

عندما رأيتُ عيني زوجتي مملوءة بالدهشة والقلق، قلتُ:

-لا تخافي، لستُ ثملًا، لم أنفق النقود، ولم أبذر.

الكريز؟ أعطاني الكريز أخي "أكبر". أي "أكبر"؟ طويل القامة، عريض المنكبين، (مازحًا) "أكبر" الأصفر. لقد قلتُ لك عنه مائة مرة. صديق الطفولة، وأخي. استعدي، غدًا أو بعد غد، دعوته ليحل علينا ضيفًا.

يقول الأصدقاء والجيران: إنك تطهين كبابًا جيدًا. وأنا أيضًا مقتنع بهذا.

اشتريت اثنين كيلو من لحم الضأن؛ لحم فخذ، وريش، وقطعة أو اثنين من الصدر. الجزار صديقي. عندما انتشرت رائحة الكباب، ودعا الجيران أبناءهم وملأوا المنزل، وفي اللحظة التي شعرتُ بغضب في قلبي، وعقلي تجاه نفسي، وزوجتي والحياة، حضر "أكبر". كان ضاحكًا ومُقبلاً وتشع من عينيه السعادة

والنقاء والصفاء. دائمًا تبدو مثل هذه العلامات في عين من تكون أعمالهم على ما يرام. أشار إلى ابني الخجول الذي بلغ إحدى عشرة سنة قائلاً:

-هل هذا "جنكيز"؟

-نعم.

طبع قبلة على وجه أكبر

-كيف حالك أيها الرجل الصغير؟

بعد أن سأله عن حاله، وسنه، وفي أي صف يدرس، أعطاه الهدية التي أحضرها قائلاً:

-خذ هذه، وضعها في المنزل.

لم يكن لديه علم حتى الآن عن ابني الثاني. كان ابني الصغير يغط في نوم عميق على سريره الصغير، لا يعرف أي شيء عن العالم، أو حتى اسمه، أو مدى محبة جده وأمه له.

نظر "أكبر" إلى انهماكي في تجهيز الكباب، ومدى سعادتي، فقال:

-لماذا تُتعب نفسك. لقد أكلتُ قبل المجيء.

غضبتُ بعض الشيء. وقلتُ في نفسي "لماذا أكلت وأنت تعرف أنك ستأتي إلينا"، وبصوت عالٍ قلتُ "لا مشكلة، لو أكلتُ مرة أخرى في بيت أخيك، لا تعب عليك ولا علينا".

ضحك، وقال إذًا نجلس في الخارج.

قالت زوجتي:

-مائدة الطعام جاهزة في الداخل.

أنا معجب جدًا ببعض طباع زوجتي. كان يجب عليها الترحيب والخدمة بكل سرور في أي وقت من ليل أو نهار بأي أحد يدق بابنا سواء قريبًا أو غريبًا أو ضيفًا. لا أقول "كان يجب عليها"، بل "كانت تفعل ذلك". كنتُ أفكر بلذة وسعادة غامرة أن هذا نتيجة تربيتي مائة وخمسون بالمائة. ولكن من أجل عدم الضيق أمام ضمير ي الذي يستيقظ من حين لآخر، ومن أجل عدم رؤيتي لنفسي أنني ظالمٌ، ومن أجل رفع مقام زوجتي أمام عيني، من أجل كل هذا، كنتُ أفكر أنه غير التربية والنصح يجب أن يكون في جيب الإنسان شيء ما من النقود.

عندما جلس "أكبر" على السفرة التي أعدتها زوجتي، رأى ابني الصغير. أو بالأصح، عندما أراد أن يجلس، ضحك بشدة على شيء ما، فنظر إلى الطفل متوجسًا أن يتحرك فجأة. (في الحقيقة لم أنظر متعمدًا)، لمحني "أكبر" آنذاك ورأى الطفل:

-يا الله، الطفل الثاني؟

انحنى فوق مهد الطفل حتى يرى وجهه جيدًا.

-عمره كم شهر؟

-عشرون يومًا.

التفت قائلاً:

-آه، لماذا لم تقل لي؟ "قبل أن يتم الطفل أربعين يومًا، لا يأتون لزيارته. لعل العين تصيبه، ويجب عدم السماح للضيوف بالزيارة، ومثل هذا الكلام..."

-لا، أنا لا أعتقد في مثل هذه الأفكار.

-لا، لا تقل هذا.

وضع "أكبر" يده في جيبه بسرعة، وأخرج كومه من النقود، وأخذ منها عملة فئة الخمسين الزرقاء، ووضعها فوق لحاف الطفل.

"آه، لا حاجة لهذا، ماذا تفعل، كفى، لا تُحرجنا، لا أستطيع أن أنظـر إليـك خجلاً..."

كنتُ أعرف أنه لا يخطر مطلقًا ببال "أكبر"، أو زوجتـي، أو ابنـي الـذي التحق بالصف الخامس الابتدائي أنني دعوت "أكبر" على العشاء مـن أجـل هـذه الخمسين منات التي وضعها بجوار الطفل الذي لم يمر أربعون يومًا على ولادتـه. كان لا يرد هذا بخاطري أو في فؤادي، لم يرد هذا الأمر قط، ولكن... هذا السؤال وهذا الفكر الذي بداخلي، أم في عيني، أم في يدي، أم في نفسي، أم بعيد عنـي (لا أعرف، لا أعرف) "أنت دعوتَ "أكبر" من أجل هذه الخمسين منـات"! كـان هـذا السؤال حاضرًا بشكل رهيب".

لم يكن هذا الفكر وهذا السؤال شيئًا جيدًا. كان يلزم شرب الخمر من أجـل نسيان هذا الفكر وهذا السؤال، وإلغائه.

قال "أكبر"، صب لي قليلاً من الخمر، لقد شربتُ قبل قليل كـأس "مرحبًـا بمجيئك يا أخي"، وكأس آخر "فلتأت دائمًا"...

كنا في ذلك الوقت سندخل في مرحلة التأثر، ونـذرف دموعنـا، وننـسج أحاديث حول ذكريات الزمن البعيد.

فهمتُ فجأة أني لن أستطيع أن أسلط نظري على "أكبر" وأتحـدث. وربمـا "أكبر" فهم ذلك قبل مني. وربما لهذا السبب وجه حديثه لزوجتي:

-أختاه، أترين منذ متى وأنا صديق وأخ لـ "إسماعيل"؟

التفت لي وغير نبرة صوته:

-أيها الأخ، منذ متى ونحن أخوان؟

كان في سؤاله هذا، وفي نبرة السؤال شيء ما غير الود والألفة. يمكن أن أقول هل هو كبر، أم تعال...،

"نعم، خمسة كيلو جرامات كريز، وخمسون منات، فالآن لا يلقون السلام على الإنسان مجانًا"

هكذا فكرتُ بمرارة.

فقلتُ له:

-صدقًا ليس في ذهني بالضبط. أعتقد أننا تعرفنا عندما كنا ندرس في الصف الثاني أو الثالث الإعدادي.

بدا تعالٍ في بريق عينيه وفي هزة رأسه للخلف دليل على الاعتراض، وفي قوله "لا، لا". كان يبدو هذا كله.

كان لا يجب أن يبدو على "أكبر" مثل هذا التعالي في حضرة ابني الذي سرعان ما يميز بين الغث والسمين، وزوجتي شديدة الحساسية تجاه زوجها (لم ينبع هذا من محبتها فقط). كنتُ سوف أرد عليه آنذاك.

-أختاه، لقد أتممتُ الصف السادس الابتدائي وكنت سوف أنتقل للصف الأول الإعدادي. كنتُ في المرعى، كنتُ أرعى الحيوانات في أرض مستوية. فجأة رأيتُ أمام الحمار فتى في سني وفي حجمي يقترب. ويبدو من تلفته أنه كان يخاف ويخشى شيئًا ما. كان في يدي عصاة ضخمة "وحق سيدنا العباس"، كان طولها أطول من طولي مرتين. قلتُ في نفسي، سوف أضرب هذا الفتى على ظهره ضربة، فيترك حماره، ويهرب. اقتربتُ ووقفتُ مستعدًا بجوار الطريق. بمجرد أن قدم إلى الفتى، قلتُ بصوتٍ عالٍ:

-من أنت؟

تعمدت أن أرفع صوتي حتى يغضب مني هذا الطفل، هذا الفتى، ويرد علي ردًا سيئًا، فأنزل عليه ضربًا بالعصاة. لم يكن للغضب مكان آنذاك. التفت الفتى، وقال بأسف أنا قادم من منطقة "بالتيشلي" ونحن نسكن منطقة "بالتيشلي". أنا من تلك المنطقة. فسألته:

-هل حمارك أيضًا من "بالتيشلي"؟

-قال "نعم".

ثم بعد ذلك بدت عليه علامات الحزن، وبدأ يتوسل ويقول لي "أنت تشبه ابن عمي، هيا فلنكن أصدقاء. فرق قلبي، وأنزلت ذراعي بجواري، وقلتُ "هيا فلنكن أصدقاء. كان ذلك الفتى هو "إسماعيل" هذا.

ضحك "أكبر". كانت ضحكته الصافية والنقية مثل الطفل تعجب المرء. ففكرتُ: "أيها الصديق، لن تستطيع هذه الضحكة أن تُنقذك من يدي".

قلتُ: "هل تكلمتَ وانتهيتَ من الكلام، فلأتكلم أنا الآن".

حاشية صغيرة: كنتُ لا أستطيع النظر إلى عيني "أكبر" وأنا أتكلم. كانت بيننا مسافة زمنية شاسعة. وكذلك كنتُ لا أستطيع النظر إلى زوجتي وأنا أتكلم. كنا قد تحدثنا دائمًا على الملأ وليس بين بعضنا البعض عن جميع الأمور، بداية من المستقبل والحظ وصولاً إلى أدق تفاصيل الحياة.

لذلك نظرتُ إلى الطبق الموجود أمامي، وبدأت الحديث.

-آنذاك كان مرعانا أعلى من مرعاكم، كان في منطقة "صيوجبولاق". كنتُ لا آتي من منطقة "بالتيشلي" ذلك اليوم. أنت تكذب ... تختلق هذا من عندك. كنتُ قد قطعتُ سرًا من الغابة عشر أو خمس عشرة سقيفة، كنتُ سوف أحملها للوادي

عند طلوع الفجر، كنتُ أذهب إلى كوخنا وأنا في غاية الرضى من عملي وتعبي. لسبب ما كنتُ أعتبر نفسي في ذلك الصيف قويًا مثل المصارع الذي كان يأتي إلى قريتنا. كنتُ أشفق على الجميع، على كل شيء، على جدتي المسنة، وعلى الأشجار التي جفت، وعلى عين الماء التي تعكرت بسبب الخراف والماشية، وعلى حصاننا الأعرج، وعلى السحب التي ضلت طريقها في كبد السماء. في تلك الأيام كان قلبي يخفق وسط حزن واضطراب لا أعرف أنا نفسي سببه، انظر، في تلك اللحظة، رأيتك. وكلمة "رأيتُك" لا تعطي المعنى الحقيقي. غمرتني فجأة هالة من الضوء الذي تولد من عقلي وقلبي، وظل زيك ومظهرك عالقين في ذهني إلى الأبد. وتولدت آنذاك فكرة جديدة لدي عنك وعن مظهرك. ويمكن أن نطلق على هذه الفكرة "اكتشاف" والله (ضاحكًا). كيف كان زيك آنذاك؟ أقول، أم لا أقول؟ كنتَ تقف بجوار نبات الزعرور الشائك (لو لم يجف، ولو لم يقطعوه، لكنتُ أظهر الآن ذلك نبات الزعرور الشائك). كنت تنظر بإمعان، وكان على رأسك قبعة قديمة وضخمة نزلت على عينيك. وكانت سترتك وكان بنطالك رمادي اللون قديم لدرجة أنه لا أحد يصدق أنهما كانا جديدين. وفي قدميك حذاء طويل. كان هذا هو مظهرك العام. وعند الحديث عن مظهرك الخاص، فيمكن تقسيمه إلى قسمين، كما يقسمون بلد ما إلى قسمين طبقًا إلى الظروف المناخية، وإلى أرضها هكذا التقسيم. واكتشافي (إن جاز التعبير هكذا) يرتبط بهذا التقسيم (أضحك، لماذا لا تضحك؟) كان طرفاك الأيمن والأيسر (أي شقاك) متباينين. لاحظتُ هذا التباين في الحال، وكان من الممكن أيضا ألا أراه. كما أننا أحيانًا، بل في أحايين كثيرة لا نلحظ أشياء عدة، أو نتظاهر بعدم ملاحظتها. ولكن كان يلزم أن يصاب الإنسان بالعمى حتى لا يرى هذا التباين. وقد أصبتُ بالدهشة ما إن رأيتُ هذا التباين، وربما ارتجفتُ بعض الشيء. لا، لا، لا تظن هكذا، لا تعتقد أن أحد كتفيك أعلى من الآخر، والآخر أقل من الأول ... أقول، لا قدر الله، كانت إحدى عينيك تنظر إلى اليمين، والأخرى إلى اليسار، إحداهما إلى الجبل، والأخرى إلى السهل ربما كانت تنظر

إلى السهل، ربما). لا، لا، التباين كان في شيء آخر. كان جانبك الأيمن – أي شقك الأيمن، كتفك الأيمن، ذراعك الأيمن، الجانب الأيمن من وجهك (كان يجب علي أيضًا أن أقول وأُذنك اليمنى أيضًا) أكثر شجاعة من جانبك الأيسر – شقك الأيسر، كانت عينك اليمنى تنظر مستوية مقارنة بالعينِ اليسرى، ثابتة، حدقتها لا تتحرك. كان جانبك الأيسر بداية من عينك اليسرى حتى قدمك اليسرى خاملة، عاجزة. لا تقوم بعمل شيء، كانت سوف تتلاشى. الذي كان يسندها، ويمنعها من التلاشي هو شقك الأيمن (واسفاه على الشق الأيمن).

لا أعرف هل لاحظت أن الإنسان عندما يذهب للقتال أو العراك، دائمًا كتفه الأيمن يكون مرتفعًا، يبرز كتفه الأيمن، أما عندما يخاف ويتقهقر ويهرب يكون شقه الأيسر أعلى. وكذلك كان شقك الأيسر – ناحيتك اليسرى فقيرة، وكانت الرُقع الموجودة في الجانب الأيسر من ملابسك أكبر، وكذلك الجانب الأيسر من بنطالك، والناحية اليسرى من سترتك أقصر نسبيًا مقارنة بالجانب الأيمن، كان متهالكا تمامًا. كانت عيناك اليسرى جاحظة (ولازلت جاحظة) لقد تجمع الخوف والرعب الموجود بالدنيا في عينك هذه. منذ ذلك الحين، وهناك سؤال يؤرقني ويشغلني. لماذا؟ لأي سبب الشق الأيسر من الإنسان يكون جبانًا وخائفًا هكذا، ربما نحن نحمي قلبنا بشكل فطري، ربما الفص الأيسر من مُخنا أكثر حساسية تجاه البيئة والظروف المحيطة؟ ولكن حينئذ يقع صراع حاد بين شقك الأيمن وشقك الأيسر – حرب حياة أم موت. وكان شقك الأيسر يقول "فلنهرب"، وشقك الأيمن يقول "انتظر". وكان تحديد الفائز في هذه المعركة يرتبط بي. إذا أشفقتُ على جانبك الأيسر، وكذلك تملكني غضب شديد منه. ووبختُه بشدة في قلبي، قلت، ما هذه الحياة، ما هذا الخلل، أيها الشق الأيسر، إليك أنظر، والله، تسمرتُ مكاني، أكاد أن أذهب، وأشنق نفسي... (تذمر "أكبر"، وكان هذا التذمر حقيقيا جدًا دون مبالغة... كان هكذا!) لم أشفق على شقك الأيمن، لا، تأسفتُ عليه، مثل الفتى الذي يقع في مشكلة لا حل لها. ولكن يتأسفون، انظر، هكذا لأن الشق الأيسر – الجانب الأيسر

(أيها الشق الأيسر الخسيس) لن يدع الشق الأيمن يتنفس مستريحًا، سوف يــضايقه، ويقضي عليه. شعرتُ أنه ليس من الرجولة عدم مساعدة الشق الأيمــن فــي هــذا الوضع. لهذا السبب، آنذاك انفطر قلبي على جانبك الأيمن، وأردت التربيت عليــه، وشجعته مثل الأخ الأصغر الذي ضُرب وسُب ظلمًا. فقلتُ، ما هذا الأمر، وقلــتُ، هيا فلنكن أصدقاء، أيها الشق الغريب، الضعيف.

ضحك "أكبر"، ولا أستطيع أن أقول كيف، أو بــأي شــكل ضــحك، لأن... نصف الذي قلته حقيقة، ونصفه الآخر مُصطنع، قد حرك شيئًا ما في نفسي أو فــي خيالي، أو في فكري. وكأنني تذكرتُ من جديد بمعجزة ما، الحلــم الــذي رأيتُــه (وكذلك خفتُ منه) منذ سنوات طوال.

سمعتُ صوت "أكبر" في اللحظة التي انتهى فيها هذا الإحساس.

قال:

-آه، أنت شاعر.

مسح بالمنشفة شفتيه بسرعة:

-أختاه، سوف أحكي لك شيئًا. كل ما سبق لا شيء، مزاح. لن أنسه مطلقًا. قبل عشرين عامًا، مرض ابن خالتي قرة عينها مرضًا شديدًا، أصيب بداء عضال. عندما ذهبتُ لزيارته ذات يوم، اشتكى وهو يبكي قائلاً: "لم يذهبوا بي إلــى بــاكو، وإلا كنتُ سوف أُشفى". تأثرتُ، وقلتُ له، "استعد، سوف أذهب بك غدًا إلى بــاكو. لامني الجميع – أمي، أخوتي، وأقاربي (ما عدا خالتي)، قالوا، لا تتعب نفسك، ولا ذلك المسكين، لا فائدة من هذا. قلتُ، على الأقل، حتى لا يكون متعلقًا بهذا الأمــل الأخير. سافرنا في اليوم التالي. كان منظر المسكين في شكل يخاف منه الإنــسان. تظنَ أن جلده الأصفر الذي يعْلو عظام خده المنتصب سوف يحترق مثل الــسيجارة في الحال. كانت عيناه اللتان غاصتا في حدقتيهما تلمعان في خوف. لم يجلس أحــد

مطلقًا بجوارنا في عربة القطار حتى وصلنا إلى باكو، أبسبب أن القطار لم يكن مزدحمًا، أم بسبب المنظر المخيف للمرحوم؟ حتى المحصل سألنا من بعيد بشكل جاف "هل معكم تذاكر؟". استأجرتُ سيارة، وعندما طفتُ به في المستشفيات، فهمتُ أنني لم أوفق عندما أحضرتُ ابن خالتي إلى هنا، كانوا يقولون "موعد الكشف انتهى، غدًا، غدًا، ..." كانوا يريدون "شهادة طبية". وكان حال الفنادق أسوأ حالاً. كانوا يقولون "ليس لدينا مكان". ساءت حالة ابن خالتي، وبدأ يرتعد وترتفع حرارته وأصيب بسعال شديد. وأنا فيما أفعل، تذكرتُ عمي فجأة. قلتُ للسائق، أذهب بنا إلى المكان الفلاني. ذهب بنا بالفعل. أعطيته أجرته، وأمسكتُ بذراع ابن خالتي، وذهبتُ إلى بيت عمي. كان عمي يعمل آنذاك في مكان مرموق (الآن؟ – ضحك "أكبر" – مدير عمال النظافة). كان لديه زوجة اسمها السيدة "زينات". كان عمي ينادي عليها "أيتها المرأة"، ولا يقول لها "يا حبيبتي". فتحت السيدة "زينات" لنا الباب بنفسها، وما أن رأت ابن خالتي حتى أغلقت الباب، وبدأت الحديث معنا من خلف الباب. "عمك ليس بالمنزل، وعندنا أولاد أختي، أنا مريضة، عندي تضخم في الغدة الدرقية، والتلفاز لا يعمل، سوف يذهبون بابن أختي إلى الخدمة العسكرية، وهذا الوقت من الليل... وإلخ..."

كنا ننزل من السلالم بهدوء، وكنت ألوم نفسي في قلبي، "لقد أخطأتُ أنني تركت السيارة تنصرف". ما إن خرجتُ من العمارة رأيتُ السيارة تقف مكانها. فتحتُ الباب، وأجلستُ ابن خالتي وسأل السائق إلى أين أذهب الآن؟ قلتُ لا أعرف يا ابن الأخت، طرقتُ آخر باب يخطر ببالي في هذه المدينة. لا يوجد مكان آخر، ربما أنت تعرف مكانًا لنا؟ فقال: "لا، لا أعرف". انظر، في تلك اللحظة خطر ببالي "إسماعيل"، والله يا أختاه، لو كنتُ وجدتُ مليون منات في تلك اللحظة، لما سعدت كل هذه السعادة. قلتُ للسائق، قد السيارة إلى هذا العنوان. وصلنا، ورأينا "إسماعيل" لم ينم بعد، يجلس ويقرأ كتابًا. كان "إسماعيل" آنذاك يعيش في شارع "واقف"، في حجرة بالإيجار ضيقة ثلاثية الأركان مثل خطابات الجنود القديمة. كان

بها منضدة صغيرة وكنبة قديمة مهلهلة. أحضرنا ابن الخالة وجعلته يتمدد على الكنبة (بعيدًا عن السامعين الآن)، ووضعنا فوقه لحافًا وبطانية. أحضر "إسماعيل" نصف لتر من اللبن من مكان ما، وسخّنه، وسقيناه لابن الخالة، فعلاه العرق بعض الشيء. ومجرد أن عرق، نام في الحال. لم ننم نحن الاثنين حتى الصباح. كلما تقلب المريض واستيقظ، كنا نعطيه أحيانًا لبنًا، وأحيانًا أخرى شايًا أو ماءً ساخناً بالعسل الأسود (رحمك الله أيتها الجدة "أورجويا"، أنار الله قبرك. لقد أكلنا كثيرًا من العسل الأسود الذي كنت تعدينه بيدك وترسلينه لنا أيام الدراسة) كان عند "إسماعيل" صباح تلك الليلة امتحان ما يجب أن يؤديه. أهذا صحيح؟ (حركتُ رأسي). كان فوق المنضدة جزء من مرآة مكسورة، كان سطحها مغطى بالجريدة. سألتُك حينها، لماذا غطيتَ المرآة؟ خجلتَ وقلتَ، لا شيء. ففكرتُ أنها ربما تشغلك عن المذاكرة وقراءة الدرس، لهذا السبب غطيتَ المرآة. أليس كذلك؟ (حركتُ رأسي مرة أخرى).

ذهبنا بابن الخالة صباحًا، وأودعناه مستشفى "الجمهورية". وبعد أسبوع (متأوهًا)، أخرجتُه من المستشفى. قال الأطباء، هذا هو النفس الأخير للمسكين، خذه، وعلى الأقل، فليمت في مكان بين أهله. وفاضت روحه بعد يومين. كنتُ بجواره وهو يمت. قال لي: "ابن الخالة، أنا أموت، وسأرحل من هذه الدنيا. الملائكة تنادي عليّ. ولكن سأرحل وأنا مدين. تقول لصديقك الذي في باكو أن يسامحني... "إسماعيل" هو "إسماعيل"، يا أختاه. أتمنى أن أولاده يشبهون أباهم.

أثرت هذه الكلمات في قلبي وقلب زوجتي، وقلب ابني.

وبعد أن ودعنا "أكبر" وذهب، قالت زوجتي:

–صديقك رجل طيب.

كان الضوء والمودة الموجودة في عينيها تقول لي إنك في الأصل شخص طيب، صديقك أيضًا طيب.

قلتُ ناظرًا لابني:

-بالطبع.

كان الليل قد انتصف، رأيتني لا أستطيع النوم، فنهضتُ وخرجت إلى الخارج. لماذا يا ترى أصطنع "أكبر" هذه القصة وحكاها، هل كان يستهزأ بي؟ لا، لم أر في صوته أو في عينيه معنى خفيًا أو استهزاء. ربما؟ ربما؟ أي جاء اليوم الذي يريد أن يرفعني أمام عيني زوجتي وابني؟

ألم تحدث هذه القصة؟ لم تحدث، لم تحدث بالقطع.

ضربتُ يدي على ركبتي حتى أهدأ من نفسي وقلتُ لنفسي:

-انتظر، انتظر.

ربما "أكبر" اختلط به الأمر بيني وبين شخص آخر؛ فكيف عرف إذًا دون أن يعاصر فترة دراستي عنواني، وشكل منزلي، والكنبة المهلهلة (عندما أتذكر تلك الكنبة، أشعر بالألم في جانبي)، واللبن (كنتُ أشتري نصف كيلو من اللبن يوميًا)، والعسلِ الأسود؟ وكما قال بالفعل كنتُ أذاكر الدروس استعدادًا للامتحانات دائمًا بالليل. ومن أين إذًا عرف بالمرآة المكسورة، ألم أكن أغطي المرآة بالجريدة؟ لماذا كنتُ أغطي المرآة؟ كنتُ أغطي المرآة حتى لا أرى الاتساع الغريب في حدقة العين اليسرى، وحول عيني اليمنى (كأني كنتُ أنظر إلى هدف). أليس هذا صحيحًا؟ ولكن الحكاية التي حكاها "أكبر" وقالها لم تحدث. أقسم بكل المقدسات الموجودة في الدنيا أنها لم تحدث. ذاكرتنا، وذكرياتنا ليست بعيدة عن ذهننا وإدراكنا. هذه تحت سيطرتنا حتى يخمد وعينا. أليس كذلك؟ كذلك. ولكن (الصدفة، والمصادفات) هل من الممكن أن حلمًا رأيناه في وقت ما وحادثة حلت بنا تتمحى من ذاكرتنا، وتمسح من ذاكرتنا؟ ثم بعد ذلك، مهما قلّبنا في ذهننا وعصرناه، ألا نستطيع أن نتذكر ذلك الحلم، وتلك الحادثة؛ فلو تذكرناها (كيف يمكن تذكر حادثة

لم تقع؟ فأين الصدفة؟ وأين المصادفات؟)، فلنعلم آنذاك ولنظن أن هذا الحادث لم يحدث لنا، بل حدث لشخص آخر.

أنا لم أر هذا الحلم، لم أراه، ربما رأيتُه؛ حينئذ فهذا ليس حلمي.

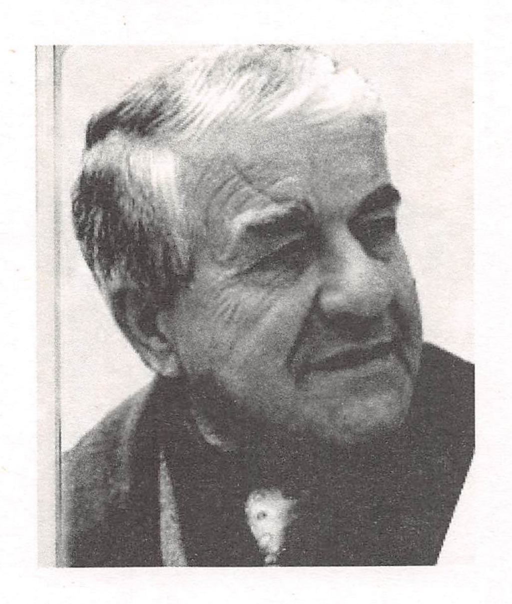
لماذا؟

ولكن كنت أرى "إسماعيل" الحالي البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا، وأرى أن ذلك الحادث الذي حكاه "أكبر" حدث مع "إسماعيل" ذاك الفتى الذي كان قبل عشرين عامًا، ذلك الفتى الذي كان سليم البنية ومصارعًا (هل كان مصارعًا؟). كان يجب أيضًا على "إسماعيل" الذي كان قبل عشرين عامًا (آه) فأين أنت أيها الرجل) ألا ينسى هذا الحادث حتى نهاية عمره (أي أنا – "إسماعيل" الحالي)، وإلا ينمحي من ذاكرته مطلقًا (حتى ولو حل به ألف شيء).

ماذا؟

(١٢)

قصة "دوّامة الخيل"



الكاتب/ سيران سخاوات

(١٩٤٦)

شاعر، ومترجم، وكاتب مسرحي. عضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ ١٩٨٠م. حصل على لقب "خادم الفن القدير". له العديد من المؤلفات الأدبية مثل "الجزر"، و"كوبي"، "الجميع يعرفه هكذا"، و"المنازل الحجرية، "القميص الضيق"، "النعي"، و"رجل المائة عام". ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات. عرضت له العديد من المسرحيات على خشبة المسرح مثل "الطشت الذهبي"، و"النصب التذكاري"، و"الدنيا الموجودة خلف ذلك الأبيض". فازت روايته "النعي" بجائزة "أفضل رواية في العام" لعام ٢٠٠٢م من اتحاد الكتاب الأذربيجانيين.

قصة "دوّامة الخيل"

للكاتب / سيران سخاوات

مرة واحدة فلتت من لسان "فاطمة" هذه الكلمات عن النّادل صابر: " يا أختي... إنه إنسان غريب جدًّا، لا يعرف معنى الشبع..."

ومرة أيضًا قالت المرأة التي أخبرتها فاطمة بهذا السر: إن النّادل "صابر" إنسان غريب، ولا يعرف معنى الشبع.

وكان هذا كافيًا كي يجعل النّادل "صابر" محط اهتمام بعض النساء.

كانت فاطمة في الثلاثين من عمرها، لطيفة، وجميلة، وذات دلال؛ في الظاهر كان يبدو عليها علامات الأنوثة واضحة، وعندما تختلط علامات أنوثتها بطريقة كلامها، يتذكر أضعف الرجال فحولته آنذاك. وكان جمال صدرها يلفت نظر الرجال، كالصياد الذي يلفت نظره الطائر. وبالرغم من أن فاطمة كانت تُعجب بهذا، فإنها كانت لا تتعمد إغرائهم. فقد خُلقت هكذا، ومن حق فاطمة أيضًا أن تخرج للتسوق كسائر النساء الأخريات بهذه المدينة. ذات مرة رأوها عندما كانت تخرج من المكتبة المركزية بالمدينة. ورغم أن فاطمة كانت متزوجة منذ عشر سنوات إلا أنها لم تنجب. كان زوجها حدادًا ماهرًا ومحترفًا بين أهالي هذه المدينة الصغيرة، أما هي فكانت تعمل ممرضة في المستشفى المركزي. فاطمة أرملة الآن فقد مات زوجها العام الماضي في حادث سيارة عندما كان عائدًا إلى المنزل من محطة السكة الحديد.

أما النّادل "صابر" فكان يعمل في مطعم صغير بجوار النهر، يطهي الكباب، كان أيضًا مسئولاً عن ترتيب وتنظيف مكان العمل، ويخدم الزبائن، ويُعد الشاي، كان يستطيع المزاح مع الجميع بأي شكل من الأشكال، وكما يبدو من اسمه فهو على الحقيقة "صابر" يقوم بعمل كل شيء.

كان النّادل "صابر" يبلغ من العمر أربعين عامًا وكان لديه بنت واحدة، زوجها العام الماضي قبل وفاة زوج فاطمة بثلاثة أو أربعة أيام. كان زوج ابنته يعمل كهربائيًا. وكان اسمه أيضًا صابر – صابر الكهربائي. عندما كانت ابنته في الخامسة عشرة من عمرها، مرضت زوجته فجأة، ولم يجدوا لها علاجًا، وفي غضون ثلاثة أو أربعة أيام أصابتها نحافة شديدة وأصبحت مثل العود، ورغم أنها حاولت أن تقول شيئًا عند احتضارها، فإنها لم تتمكن من قوله. وأصبح هذا اليوم سرًّا من أسرار أهل القرية... ماذا حدث فجأة للمرأة كالتي كانت كالفرس!!

أصبح النّادل "صابر" أرملاً، ويعيش وحيدًا. كانت ابنته تزوره باستمرار وترتب له المنزل، ثم تعود إلى بيتها. مات زوج "فاطمة"، وكذلك زوجة النّادل "صابر". وفي هذا المقام يمكن تذكر فقط الشاعر الشعبي الأذربيجاني "عاشق ألسجار"، وهو يقول:

فليمت زوجك، ولتمت زوجتي ولنبق نحن الاثنين في غم وحزن...

الحياة تستمر: فلا ذكرى زوج فاطمة، أو زوجة النّادل "صابر" الغالية تستطيع أن توقف عجلة الزمن، أو تغيرها – ما حدث، قد حدث وانتهى... ألا تظنوا في هذا المقام أن الشاعر الشعبي "عاشق ألسجار" عندما قال البيت السابق، وعندما عزفه وتغنى به في المجالس المختلفة، كان يقصد فاطمة والنّادل "صابر"، أليس كذلك؟! أعتقد أنا شخصيًا أن الشاعر الشعبي "عاشق ألسجار" قد كرّس هذا البيت لهما. ويمكن قبول هذا على سبيل دعاء الشاعر بالخير لفاطمة والنّادل "صابر".

ركن النّادل "صابر" سيارته ماركة "موسكوفيتش ٤١٢" رمادية اللون، التي اشتراها جديدة وكانت منتشرة آنذاك تحت المظلة التي كانت موجودة خلف المطعم، أي "أنا غير موجود، والمطعم مغلق. بعد ذلك وضع قفلاً ضخمًا يزن كيلو جرامًا على الباب الموجود في مدخل المطعم، ووضع المفتاح في جيبه. ولف خلف المطعم ودخل من الباب الخلفي. نظر إلى ساعته. كانت الساعة الواحدة إلا ثلث ليلاً. أي بقي ثلث ساعة على مجيء فاطمة وكان عندما ينتظر "فاطمة" كل مرة، يقوم بهذه الأمور الوقائية، كان يخاف بشدة من الفضيحة. ربما سوف يصبح قريبًا أصغر جد في المدينة، وكان يسعد كثيرًا بهذا...

كان أحد المصابيح مضاء. وكان النّادل "صابر" كل مرة عندما يعود من العمل إلى المنزل يُطفئ جميع المصابيح، ويُشعل هذا المصباح فقط. وكان يُعتقد أنه يقوم بهذا الأمر على سبيل التأمين للمكان. بالرغم من أن المصباح كان موضوعًا في مقدمة المطعم من الخارج، فإنه عندما يُوقد، تنبعث إضاءة خافتة للداخل، ويُخيم على المكان مشهد رومانسي. وكانت فاطمة تُعجب بهذا – رومانسية المدينة...

كان لا يمكن تخيل مثل هذه الرومانسية حتى في الفنادق العالمية مثل "هيلتون"، و"بلاس"....

أخرج النّادل "صابر" "اللحم المشوي" الذي طهاه قبيل المساء من الثلاجة، ووضعه على الموقد. وضع فوق المنضدة الصغيرة المخصصة لفردين فقط، الخضرة والجبن والعيش. ولم ينس وضع كوبين خشبيين وكأسين سعة ١٠٠ جرام. كانت السفرة مُعدة وكذلك النادل "صابر". كان جميع أهالي المدينة البالغ عددهم عشرة آلاف ينامون نومًا عميقًا، نام الجميع، إلا زوج من الأقزام مستيقظين[١]...

(١) يقصد هنا بالقزم، إحدى الحكايات الأذربيجانية الشعبية التي كان بطلها عبارة عن قزم لا ينام مطلقًا، لذلك شبه الكاتب البطلين بالقزمين. (المترجم)

كان يظهر شبح على بعد خمسين أو ستين مترًا داخل مـــن البـــاب الخلفـــي للمطعم. كان هذا الشبح هو فاطمة. كان دائمًا يحدث هذا، يأتي شبح فاطمـــة، ثـــم تتبعه هي نفسها.

رغم أن النّادل "صابر" أغلق الباب من الخلف محدثًا صـــوتًا للقفـــل، فلـــم يتضايقا من هذا الصوت لأنهما اعتّادا عليه، بعد هذا الصوت ينـــساقان وراء مـــا يرغبان فيه في الدنيا، ويذهب بهما كالنهر الجاري – فمـــن يتـــضايق مـــن هـــذا الصوت؟ ...

لو كتبتُ "أن فاطمة بمجرد أن دخلت احتضنا بعضهما البعض وأخذ النـــادل "صابر" يقبلها وخلافه" لكنتُ كاذبًا، وربما جعلتكم تصدّقون هذا، ولكن أنـــا نفـــسي كنتُ لا أصدق هذا.

بمجرد أن دخلت فاطمة، جلست في مكانها المعتاد، أحضر النّادل "صـــابر" الطعام في وعاء ووضعه على حامل وسط المنضدة.

لو كنتُ أعرف "فاطمة" وكذلك النّادل "صابر" شخصيًّا في الواقـــع، لكنـــتُ أكتب ذلك البيت الذي قاله الشاعر الشعبي "عاشق ألسجار" ووضعته في ظرف، ثم أرسلتُه إلى عنوانهما. أنا على ثقة تامة أنهما ليس لديهما علـــم بهـــذا الـــشعر، لا يقرأون أولاد الظلمة، عندما يرون الكتاب، كأنهم رأوا ثعبانًا لادغًا.

-فاطمة.

-نعم يا روحي...

-أتشربي معي ١٠٠ جرام كونياك؟

-فداك نفسي، يا "صابر"، أنا على استعداد أن أشرب معك السم، ولكن أنا لا أعرف طعم مثل هذه الأشياء.

-لا تعرفين، تعلمي.

-أخاف يا "صابر".

-مم تخافين؟

-أخاف أن أشعر بدوخة... وأسقط على الأرض.

-لا تخافي، لو سقطي، سوف أمسكك.

-يا "صابر" لو شربت، ألن تكرهني بعد ذلك؟

-أنا أشرب... وكم مرة رأيتني أشرب هنا: أتكرهيني!

-لا ... لا قدر الله... ولكن أنت شيء، وأنا شيء آخر...

-لماذا أنت شيء آخر؟

-أنا امرأة...

-وليكن؟

-يقال إن ...

-ماذا يُقال؟

-يقال لو المرأة شربت الخمر، تكون امرأة فاحشة.

اندهش النادل "صابر" من هذه الكلمة، وكأنه لم يستحسنها لفاطمة، ولم يرضاها لها.

قال:

-حسنًا، سوف أشرب أنا... دائمًا أشرب وحيدًا وحيدًا.

ولم يشعر بحاجة للنظر إلى وجه فاطمة.

تدللت فاطمة:

-أغضبت مني؟

-إن كنت لا تشربين، فلا تشربي، ماذا عليّ أن أقول لك...

نهض النّادل "صابر" وأحضر زجاجة الكونياك المُركز المخبـأة فـي أحـد أركان المطعم، ووضعها فوق المنضدة:

-يا تُرى ماذا كُتب على هذه؟

-"شيروان"

قرأت فاطمة المكتوب فوق الزجاجة بسرعة.

-حسنًا... يشرب علية القوم هذا الكونياك، وكبار المسئولين... ولا يعـرف حتى المحافظون طعم هذا. اشتريتُها عندما ذهبتُ إلى باكو... إذًا آخذ كأسك وأُعيده إلى مكانه أيضًا...

اعترضت "فاطمة" متدللة:

-لا، لا تقم من على الطعام لأجل هذا، فليبق الكوب هنا.

فتح النّادل "صابر" فوهة زجاجة الكونياك "شيروان" وملأ ١٠٠ جـرام فـي الكأس قائلاً:

-يا فاطمة، حفظك الله لي.

فتح فمه هذه المرة أيضًا وصب فيه الكونياك.

كانت فاطمة تسمع منه هذه الجملة ثلاث أو أربع مرات في كل لقاء معـه. كان النادل "صابر" لا يحب الإطالة في المقدمات قبل الشرب. وكان تكـرار هـذه الجملة لا يضايقها ولا يسبب لها الملل، لأنها كانت تنتظر هذه الجملة التي تحفظها

بفارغ الصبر، وكأنها كانت تسمعها لأول مرة. أما النادل "صابر" فكــان يــشرب ١٠٠ جرام من الخمر بعد هذه الجملة كل مرة – كان يشرب الكونيــاك فـــي أول كأس فقط.

أشار برأسه إلى زجاجة الكونياك قائلاً:

–يقولون إن أصحاب الخبرة في الشرب يعرفون طعم هذا جيدًا، يــشربونه بسهولة. يؤثر في الدم مباشرة، ويصل إلى مكانه بــسهولة بمجــرد أن تــشربه – سحب يده على بطنه بسهولة.

كانت "فاطمة" لا تأكل، أما النّادل "صابر" فكأنه خرج من مجاعــة، وكــان يتلذذ بالطعام. وكان طعامه على هذا النحو يُسعد "فاطمة"؛ كانت تعتقد أنه كلما أكل جيدًا كان خيرًا له...

لم يكن النادل "صابر" ممن يشربون الخمر مع زبائنه. عندما كــان الزبــائن يدعونه للشرب في بداية الأمر، كان يقول لهم:

–أين تعمل؟

–ألا تعرف، في البنك ...

–هل تشرب الخمر في العمل؟

–لا ...

–لماذا؟

–ممنوع في العمل.

–ممنوع على أنا أيضًا، إن لم أكن الآن في العمل، فأين أنا الآن؟ ..

في أفراح أقاربه يكون عالي المزاج، ويأكل ويشرب الخمر جيدًا، ثم يعـود إلى منزله وهو يدندن وفي كامل نشوته.

كان يكسر النظام الذي اعتاد عليه ثلاثة أيام فـي الأسـبوع، فـي الأيـام الزوجية[1]، ويتبع نظام "فاطمة". كان مستحيل أن يحدث هذا خلال النهار، أيفـضح الرجل نفسه! فقط يقوم بهذا في جنح الليل. والآن هذه إحدى تلك الليالي.

عندما مسح آثار الطعام براحة يده، رأى أنا فاطمة مسلطة النظر عليه، فلـم يهتم بذلك، ومسح يده بمنديل ورقي وقال لفاطمة ضاحكًا:

-لماذا تنظرين إلي؟

-هل جئتُ هنا للنظر إلي...

ابتسمت "فاطمة" بدلال انتقل إلى النادل "صابر". وانتهت عملية الدلال غيـر العادي هذا بأن وضعا يديهما على بعضهما البعض.

كان النادل "صابر" آنذاك بيد واحدة. ولم يكن للحرب العالمية الثانية علاقـة بكونه بيد واحدة في تلك اللحظة...

بمجرد أن ابتسم في وجه "فاطمة"، بادلته الابتسامة، كان يـضع فـي فمـه مجموعة من أعواد الخضرة التي كانت أمام "فاطمة"، ويأكل مصدرًا صوتًا كأنـه ماكينة فرم. وبسبب أن يده اليسرى مازالت مشغولة، صب لنفسه الكونيـاك بيـده اليمنى. أحمر وجهه قليلًا، وكان هذا يجعل منظره أفضل، وكأنه تناول هذا الكـأس من أجل أن تعلوه الحمرة ويحلو أكثر. فقال:

-فاطمة، حفظك الله لي.

كانت "فاطمة" لا تتحدث، كانت فقط عيناه تتحدثان، فبادلته الحديث بعينيها...

---

(١) يقصد بالأيام الزوجية في أذربيجان أيام الثلاثاء والخميس والسبت. (المترجم).

ما إن بدأت المرحلة الثانية من عملية أكل النادل "صابر" دون أي مقدمات، يُخيل للإنسان أنه بعد خمس أو ست دقائق سوف يمسح قاع الإناء، وسوف يجعله يلمع كالمرآة. بصفة عامة، كان نظام الأكل والشرب الخاص به يشبه حلقات المسلسل، وكانت "فاطمة" هي المشاهدة الوحيدة لهذا المسلسل. لا يمكن معرفة أحوال الدنيا. فلو ظهرت مشاهدة أخرى في وقت ما - بغض النظر عن خبرتها أو بما لها، سوف تموت "فاطمة"، لأن هذا المسلسل والبطل الرئيسي لشخص واحد، هو "فاطمة".

استغل النّادل "صابر" النظرة الخاطفة السابقة لـ "فاطمة"، ومسح بمنديل ورقي شفتيه اللامعتين قائلاً:

-فاطمة.

-نعم يا حبيبي.

لو لم ترد عليه "فاطمة" بقولها "نعم يا حبيبي"، لكان دخل في الموضوع مباشرة. ولكن كلاً منهما يعرف عمله.

-فاطمة، ألم يفلت لسانك بكلمة أو شيء من هذا القبيل عما يحدث بيننا؟

رغم مفاجأة هذا السؤال الذي يُسأل لأول مرة خلال الفترة الطويلة التي يلتقيان فيها سويًا، وإصابة فاطمة بالدهشة فقد تخلصت من هذا الموقف بمهارة ودلال.

-أنت ماذا تقول يا "صابر"، أيمكن مثل هذا الأمر يحدث... هذا الأمر سري للغاية...

-أنا أثق فيك، يا فاطمة، وإلا...

-وإلا ماذا؟

-أنت تعرفين أني أحبك كثيرًا جدًّا. ولكن لو نما إلى علمي شيئًا - اجتهد أن تعلو وجهه الابتسامة - سوف أقطع لسانك من جذره.

أخرجت "فاطمة" لسانها وأظهرته له. فأمسكها النادل "صابر" من كتفها، واحتضنها.

كانت "فاطمة" تسعد أنها بجوار رجل يمكن أن يقطع لسانها - هذا الكلام تسرب نحو قلبها كالزيت، وجلب لها ما يشبه الراحة الأبدية.

-فاطمة ...

-نعم يا حبيبي ...

أعاقت "فاطمة" مرة أخرى "صابر" أن يدخل في الموضوع الأساسي.

أشار إلى زجاجة الكونياك:

-فاطمة، خذي هذه الزجاجة، حسنًا... الآن صبي لي الكونياك...

أمسكت "فاطمة" بقوة بين يديها زجاجة الكونياك المركّز، وصبت الكونياك، كانت تبدو مضحكة للغاية، لدرجة أن "صابر" ابتسم. هذا ليس مزاحًا. فهذه أول "مرة" تصب "فاطمة" الخمر. رأى "صابر" مؤخرًا في أحد الأفلام كيف أن امرأة فرنسية تصب (الويسكي) في كأس الرجل الذي تناول معها العشاء بناءً على طلبه؟ تذكر هذا فجأة. وهذا نموذج لك حول الاندماج مع أوروبا أيام الاتحاد السوفيتي...

-لماذا أمسكت الزجاجة بيديك الاثنتين؟

-لأنها مُركزة جدًّا.

-المُركزة! جيدة جدًّا...

ابتسمت وأمسكت بطرف أنفه الضخم الذي يليق بوجهه قائلةً:

-إيه ها...

وهددته بإصبع السبابة.

لو رأى أي رجل هذا التهديد، لسال لعابه، ولتمني، لو يحدث مثل هذا التهديد أو على الأقل ثلاث أو أربع مرات في العام. لو رأيتم تهديد هذه المرأة الجميلة التي لا يمكن تصوير دلالها، سوف تعلمون بعد ذلك ما هذا الأمر – ولكن لنرى هل "صابر" يوافق على هذا؟ أبدًا ...

-أريد أن أقول لك شيئًا يا "صابر"، ولكن أخجل...

-أخربت رأسك؟

-لا... لماذا؟

كأنما غضبت بعض الشيء.

-لماذا إذًا تخجلين مني؟ لا يوجد خجل بيننا.

كان صابر يتفحصها بعينه.

فهمت "فاطمة" ما يقصده فقالت:

-حسنًا، حسنًا... أليس عندك كلام آخر؟ ..

ضحكت وخجلت....

كان الكل هنا يقوم بعمله – فاطمة، وصابر، كونياك "شيروان". ومن الممكن القول بأن عمل ثلاثتهم لم ينته بعد. حتى الآن "كونياك شيروان" يبدو أنه يقوم بعمله أكثر من "صابر"، وكذلك من "فاطمة"؛ فترتيبهم على النحو التالي، كونياك "شيروان" في المركز الأول، و"صابر" في المركز الثاني، و"فاطمة" في المركز الثالث. لو استمر الوضع على هذا النحو، كان يمكن أن يتغير الوضع في أي لحظة.

سأل "صابر":

-حسنًا، قولي ما الأمر؟

نظرت فاطمة إلى وجهه قائلة:

-هل سيبقى سرًا بيننا؟

-لا... سأنشره في الجريدة.

-صابر، أريد أنا أيضًا من ذلك.

-الكونياك؟

-نعم...

-فداك قلبي، لقد اشتريته من أجلك...

ربما الكونياك زاد نشاطه.

-هل هو مُر كثيرًا؟

-أقول لك، له مرارة بعض الشيء في الفم، ولكن عندما يصل إلى الداخل يصبح مثل العسل.

صدقته "فاطمة":

-حقًا؟

-نعم... سوف ترين بنفسك الآن...

-هل تذكر؟

-ماذا؟

-عندما أردتُ في مثل هذا الوقت من العام الماضي أن أقول "في صحتك" وأنت تشرب الخمر، لم توافق...

-لماذا؟

-قلتَ لا يجوز أن يقول من لا يشرب الخمر "في صحتك" أيجوز لي الآن؟

-يجوز ... فلتشربي.

أمسكتْ "فاطمة" الكأس الصغيرة براحة يدها، وعندما أردتْ أن تقول شيئًا، لم يدعها "صابر":

-أنتِ مبتدئة أيتها المرأة. أمسكي الكأس من منتصفه... هكذا، مثلي هكذا...

-أخاف أن يسقط على الأرض...

-لو سقط على الأرض، سوف أملأه من جديد، فداكِ... كيف تمسكين كوب الشاي، هكذا أمسكه، كأنه كوب شاي، ولونه كذلك يشبه الشاي.

فعلت "فاطمة" ما قاله "صابر" بحماسة، ولم يكن بالأمر السيئ، فقالت:

-"صابر"، حفظك الله ... - دمعت عيناها- لولا وجودك، لكنتُ ألقي بنفسي في البحيرة.

ضغطت على أنفها بأصابع يدها اليسرى، ورغم أنها ألقت "بمهارة" الكونياك الموجود في الكأس في فمها بسبب الخوف مثل المرضى الذين يشربون دواءً مرًا، أُصيب "صابر" بدهشة، ثم ضحك، واشتد ضحكه حتى اشتدت حمرة وجهه المحمر.

سأل "صابر":

-لماذا فعلت هذا؟

-هذه هي المرة الأولى... فعلتُ كذلك من خوفي حتى أتخلص من هذا سريعًا.

-حسنًا، خذي قطعة خبز... ألم يكن مُرًا؟

-لا... لم يلمس لساني مطلقًا... ذهب مباشرة إلى حلقـي، ولكـن يحتـرق حلقي قليلاً.

-أشربي عصير ليمون... هل ذهبت هذه الحُرقة؟

-نعم...

كان "صابر" يعرف عددًا لا حصر له من النُكت، وكان لديه القـدرة علـى قص هذه النكت بشكل مضحك، لأنه كان رجلاً ظريفًا بطبيعته – لـو كـان لـدى القدرة، لكنتُ منعتُ الرجال الجامدين عن قول النُكت، لأنهـم يعرضـونها بـشكل جامد. وهذا بالفعل منهم. كان لدي صديق طفولة، كان أكاديميا من أكبـر علمـاء العالم، لو قال النكتة مرة واحدة التي سمعها مائة مرة، لا يتحرك لدى الإنـسان أي شيء يدل على الضحك. ولكن ما أن يفتح "صابر" فمه، يتملكك الـضحك. والآن، قال إحدى النُكت التي تعلمها وهو يؤدي الخدمة العـسكرية، وكانـت "فاطمـة" لا تستطيع أن تتمالك نفسها من الضحك. ولكن لا أستطيع أن أقص عليكم تلك النكتة، لأنها خاصة بهما فقط في هذا المقام – هما الاثنان...

-"صابر".

-روح "صابر".

أعاق "صابر" هذه المرة أيضًا – "فاطمة" أن تدخل للموضـوع الأساسـي، وحان الوقت.

-"صابر"...

-روح "صابر".

أعاقها مرة أخرى.

رغم أن صفو دلال فاطمة تعكر بعض الشيء، فإنها لم تتضايق بشكل كبير. وكان هذا الدلال شيء له طبيعة خاصة، ربنا يجعل لجميع الرجال نصيبًا من هـذا الدلال.

-هل ستتزوج؟

قبل "صابر" هذا السؤال بشكل شبه عادي.

-مطلقًا!

-لماذا؟

-يا "فاطمة"، فداكِ قلبي. عندي أربعين عامًا، أي زواج بعد ذلك؟ من يتزوج في الأربعين، ممكن يسعد في قبره... وربما لا.

-من في سنك يتزوج حاليًا، ومنهم من لم يتزوج بعد...

-فاطمة.

-نعم يا روحي.

-انظري، فرضًا أنني تزوجت اليوم أو غدًا. ورزقت حفيدًا في الوقت نفسه. وبعد عام أو ما شبه ذلك ذهبت زوجتي لمستشفى الولادة، ورُزقت ولـدًا. سـيكون حفيدي أكبر من ابني. ولكن ابني هو خال حفيدي.

وعندما يكبر حفيدي، كيف سيقول لشخص أصغر منه "يا خالي" أيتها المرأة. فضيحة – أنا لن أفعل مثل هذا الشيء. علاوة على ذلك رزقنـي الله بـك. هـذا يكفيني. أين سأجد مثلك.

-لقد وجدتُ...

-لا، قلتُ لك أيها المرأة، وشرحت لك الوضع.

-لو تزوجت بمن تتزوج؟

-ليس بأحد.

-لو وُضعتَ في موقف المضطر، كيف سيكون الأمر؟

-لماذا أوضَع في موقف المضطر، لدى عقل وأنا حُر نفسي...

-"صابر".

-نعم يا "روحي".

-"صابر"، فداك نفسي، تزوجني، ماذا بك؟

-حسنًا، لا تتكلمين كلامًا فارغًا، لقد قلتُ لـك آنفًا... لقد أغلقنا هذا الموضوع...

كأن أمرًا خطر ببال "صابر" فجأة، فقال:

-لماذا لا تتزوجين أنت؟

-لا أحب أحدًا غيرك، لا أرى غيرك... لماذا تقول هكذا؟ أتريدني أن أتزوج؟ أتضايقت مني؟ تأثرت "فاطمة"، وساءت حالتها...

-لا تتكلمين كلامًا فارغًا أيتها المرأة. لو أحد تزوجك، أقطعه إربًا إربًا...

فرحت "فاطمة" بهذه الكلمات، وتحسن حالها...

كان "صابر" رجلاً غريبًا نهمًا في طعامه لا يعرف الشبع، وقد قالت "فاطمة" مرة واحدة هذا الوصف عن "صابر". بعد أن أثبت "صابر" تلك الليلة أنه كذلك، ركب سيارته "موسكفيتشي" في الساعة الرابعة والنصف صباحًا، وبجواره "فاطمة". وعندما مر بجوار الحديقة قال:

-لو تريدين، ممكن أن نتجول في الحديقة قليلاً؟

-فلنتجول.

وكأن "فاطمة" كانت تنتظر هذا المقترح من زمن بعيد... ولكن نرجع إلى المنزل قبل طلوع النهار....

عندما أوقفا السيارة عند باب الحديقة، ودخلا فيها، كانت المدينة في نوم عميق...

كانت هذه المدينة تقع عند سفح سلسلة جبال القوقاز الصغرى منذ مئات السنين. وكانت الجبال التي تعلوها الغابات تتباعد عن بعضها البعض، كانت الشمس تبيت خلف تلك الجبال كل ليلة؛ وكانت في الشتاء ترفع حرارة سفح الجبال، وفي الصيف تلطف الجو. كانت أرضها السمراء التي هي دواء من كل داء تنعش الإنسان، وكانت شديدة الخصوبة. وكان كلما غشي الناس ذلك الجمال والخير والبركة، جعلهم أكثر ودًا فيما بينهم، وكانوا يعيشون في سعادة ووئام. كان جمال فصول العام الأربعة يحافظ على حيوية الإنسان – أربعة فصول جميلة.... لم يحرم الله هذه الأراضي من أي شيء – جمع فيها كل ما هو حسن...

مجرد أن دخل "صابر" الحديقة خافتة الإضاءة قال:

-تعلقي بذراعي.

تعلقت "فاطمة" بذراع "صابر" فرحة كالطفل:

-كأننا في العاصمة "باكو"....

-سوف أذهب بك مرة إلى باكو

فرحت "فاطمة" من هذا الأمر قائلة:

-يا تُرى لماذا أهل المدن الأخرى مثلنا عندما يتجولون في الحدائق لا يتعلق بعضهم بذراع بعض؟ ...

قال "صابر":

-أهنا العاصمة "باكو"؟ هنا مستحيل أن يحدث هذا، هنا مدينة من المدن المحاطة بالقرى، يرون الرجل، فتلوكه الألسنة.

وقفا بجوار نصب تذكاري لأم تحتضن طفلاً، رفع "صابر" رأسه وبعد أن أمعن النظر في وجه هذه المرأة قال:

-لماذا هذه المرأة معتلة المزاج؟

-....

-يمكن أنت تعرفي أنت... أنتما امرأتان...

-ربما قتلوا ابنها في الحرب، لذلك هي معتلة المزاج.

-فمن يكون إذًا الطفل الذي في حضنها، أليس ابنها؟

-لا... ربما حفيدها، ألا ترى أنها امرأة مسنة...

أكد "صابر" على كلامها:

-حقًا كما تقولين.

بعد أن قام بتحليل هذا النموذج الفني للنصب المنحوت كأنهما متخصصين في "الفن"، ذهب نحو لعبة "دوامة الخيل" التي تلف في الهواء والتي تم تركيبها في الحديقة منذ حوالي ثلاثة أو أربعة أشهر.

قالت "فاطمة":

-أقول لك يا "صابر"، إلى متى سوف نتجول سرًا هنا؟

-أليس لديك كلام آخر؟ الحمد لله حتى الآن.

قال "صابر" عندما وقف بجوار لعبة "دوامة الخيل":

-لو تريدين، أركبك لعبة "دوامة الخيل".

-أريد

كان هذا اليوم يوم الفرح والسعادة لـــ "فاطمة".

-هيا، فلننظر.

نظرت فاطمة إلى لعبة "دوامة الخيل" قائلة:

-أخاف أن أركب وحدي.

-حسنًا، فلنركب سويًا.

صعدا فوق اللعبة، وجلسا. وفجأة قال وهو يبدو عليه علامات التعجب:

-فمن إذًا سوف يضغط على زر التشغيل؟!

-بالفعل من! ...

قال "صابر" كأنه وجد علاج أمر صعب:

-حالاً، اركبي أنتِ، وسآتي حالاً.

نزل من لعبة "دوامة الخيل" وعاد وفي يده عصاه طويلة مستوية.

وقال:

-ربما كانت هذه العصاة يلعب بها أحد الأطفال هنا كحـــصان... ونـــسيها فذهب وتركها، وجلس مستريحًا بجوار فاطمة.

سألته "فاطمة" باهتمام:

-ماذا ستفعل الآن؟

قال "صابر":

-سوف ترين.

مدّ العصا الطويلة المستوية التي بيده نحو زر تشغيل لعبة "دوامة الخيــل". وبعد أن حاول مرة أو اثنتين استطاع أن يضغط على زر التشغيل.

بدأت اللعبة في الحركة. مدحت "فاطمة" هذا "الكنز" الذي عثر عليه صـــابر. كلما زادت سرعة لعبة "دوامة الخيل"، رفرف شعر "فاطمة" الجميل، وتداخل مـــع بعضه البعض! وهذا أيضًا يليق بها.

وهذا الجمال لم يغب عن نظر "صابر"، كان يلتفت بشكل مستمر نحوها...

بعد أن لفت اللعبة كثيرًا، قالت "فاطمة":

-"صابر"، حان الوقت، فلنذهب.

-حقًا، كما تقولين...

وجّه "صابر" العصاة الطويلة المستوية الموجودة في يده نحـــو زر إيقـــاف اللعبة، حتى إذا مر بجوارها يضغط على الزر، فتقف اللعبة، ولكن كان لا يستطيع أن يصل الزر من خلال العصا. ورغم أن "صابر" حاول ما يقرب مـــن عـــشر أو خمس عشرة مرة، فإنه لم يفلح مطلقًا؛ وكسر "صابر" العـــصا الطويلـــة المـــستوية الموجودة في يده، فألقى بها. غرق في العرق، وظلا يلفان في اللعبة.

لو ألقى الاثنان بنفسيهما من لعبة "دوامة الخيل" التي تلف في الهواء، يمكـــن أن يموتا. فكر "صابر" في نفسه قائلاً: "سوف تُفضح المرأة... وأنـــا فـــي ســـتين مصيبة..."

ألقت "فاطمة" نظرة خاطفة على وجهه الذي اســـود ســـوادًا حالكًـــا وعـــلاه العرق، وقالت وهي في حالة فقدان للوعي:

-لقد فضحت

كانت تقصد نفسها.

كانت "فاطمة" تقول الحق. عندما تحدث مثل هذه الفضائح بين الرجل والمرأة عندنا، يكون نصيب المرأة من الفضيحة أكثر، فماذا يُضير الرجل... أما بشأن "فاطمة" فسوف تقول كل النساء عنها:

-لقد انحرفت...

قبل قليل عندما شغل "صابر" اللعبة بهذه العصا الطويلة المستوية، مدحت "فاطمة" "الكنز" الذي عثر عليه. أما الآن، فكانت لا تستطيع أن تشعر بنفسها، وخرت قواها – وكانت تتصبب عرقًا.

نسي "صابر" نفسه، ولكن كان يفكر برأسه التي أصبحت مثل الثمل في فاطمة:

"سوف تفضح المسكينة..."

لم تكن هذه اللعبة مثل لعبة "دوامة الخيل" التي ركبها "صابر" ذات مرة على شاطئ البحر في باكو؛ كانوا يضغطون على زر التشغيل، وبعد عشر دقائق كانت تتوقف وحدها – كان منظم الوقت ينظم عملها – لم يأخذ هو بعين الاعتبار هذا الأمر.

ظلا يلفان ويلفان، وصار أمرهما في يد الله، لو الكهرباء تنقطع فجأة، يمكنهما آنذاك أن يتخلصا من هذه الفضيحة؛ وهذا أيضًا يشبه الغريق الذي يتعلق بقشة.

كان ذلك الوقت هو وقت جمع العنب. كان المقر الذي يجتمع فيه من يذهب لجمع العنب موجودًا بهذه الحديقة. بعد قليل، سوف يتدفق إلى هنا جميع مسئولي الزراعة ورئيس الشرطة ومسئولي المدينة وعلى رأسهم السكرتير الأول للمدينة

السيد "محمود زاده". كانت مصابيح المدينة تنطفأ رويدًا رويدًا مثل أمـل "فاطمـة" و"صابر" في النجاة.

كانت دموع عيني "فاطمة" التي تزرف بلا انقطاع تتـساقط فـوق أضـواء المدينة، وكانت كلما انطفأت الأنوار تقترب الفضيحة.

في تمام الساعة السادسة والربع، توقفت سيارة الخدمة ماركـة "قـاز ٢٤" الخاصة بالسيد "محمود زاده" عند مدخل الحديقة. التف مـسئولو الزراعـة الـذين قدموا معه حول السكرتير الأول مثل النمل. كان لا يقترب منه أحد مطلقًا للـسلام عليه، كانوا يلقون عليه التحية من بعيد بإماءة، وكان هو الآخر يرد عليهم جميعًـا مرة واحدة هذه التحية بطرف عينه، وليس بطرف لسانه. دخلوا الحديقة وهو علـى هذه الحالة.

كان الاثنان مستمرين في دورانهما...

والرغم أن رئيس المقر الذي يجتمع فيه الناس كان شخصًا آخـر، فكانـت الكلمة العليا للسيد "محمود زاده". سأله السكرتير الأول:

-هل السيارات جاهزة؟

-نعم، أيها السيد "محمود زاده".

تقدم رئيس جراج السيارات للأمام خطوة، ثم عاد إلى مكانه ثانيـة بعـد أن قال العبارة السابقة:

- يجب تقديم التقرير هذا المساء، يجب أن تنتهي الخطة اليوم.

-تعرف أيها السيد "محمود زاده".

-ما حال الوضع في مزرعة "أوكرانيا"؟

مازال الاثنان يلفان...

-هل رفعتم درجة السكر؟

مازال الاثنان يلفان ...

-هل شغلوا المصنع؟

كان الاثنان لا يزالان يلفان، وكانا ينظران إلى مسئولي الزراعة والمدينة وهما يلفان. أما المسئولون فكانوا ينظرون فقط إلى السيد "محمود زاده" – من كل ناحية.

كان "محمود زاده" أطول وأضخم شخص وسط المجتمعين. فجأة أشار بيده اليمني نحو لعبة "دوامة الخيل" قائلاً:

-ما هذا الأمر؟

-لعبة "دوامة الخيل"، أيها السيد "محمود زاده".

-لماذا تلف مبكرًا قبل بزوغ النهار؟ وتقريبًا عليها اثنان...

-بالضبط، أيها السيد "محمود زاده".

قال لرئيس الشرطة:

-أذهب، واحضرهما هنا.

في لمح البصر، وقفا الاثنان في حضرة السكرتير الأول وهما يتصببان عرقًا، وقد دلا رأسيهما لأسفل. كان كل منهما يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه.

سأل "محمود زاده" الحاضرين:

-من هذان؟

تقدم رئيس الشرطة خطوة للأمام قائلاً:

-هذا النَّادل "صابر"، أيها السيد "محمود زاده".

-أهذا هو الرجل الذي يُقال عنه إنه ماهر في الكلام؟

-نعم، أيها السيد "محمود زاده".

-أرسل المفتش إلى مطعمه، وليشمّعه بالشمع الأحمر.

-تحت أمركم، أيها السيد "محمود زاده".

-وخذوه هو الآخر، ليجمع العنب أيضًا.

-تحت أمركم، أيها السيد "محمود زاده".

-هل هذا وقت الدوران في لعبة "دوامة الخيل"... قبل طلوع النهار...

كان يجب على "صابر" أن يُنقذ "فاطمة" من هذه الفضيحة، رفع رأسه قليلاً قائلاً:

-أيها السيد "محمود زاده"... لقد اتفقنا أننا قبل زواجنا بيوم نأتي منتصف الليل إلى هنا... حتى لا يرانا أحد..: ولنركب لعبة "دوامة الخيل"، ونذهب في الصباح إلى المأذون... ركبناها، ولم يكن أحد هنا. كان هناك عصا، ضغطت بها على زر التشغيل، تحركت اللعبة من مكانها، وبعد ذلك لم أستطع أن أوقفها، نلف منذ ساعتين...

رغم أن الضحك تملك السكرتير الأول، فقد كتمه، واكتفى بالابتسامة. فكان لا يجوز أن يضحك وسط من يشتغلون تحت إمرته، وإلا سوف يحدث خلل في شخصيته الجادة أمامهم...

قال السكرتير الأول لرئيس الشرطة مبتسمًا:

-لا علاقة لك بهما، دعهما وشأنيهما.

-تحت أمركم، أيها السيد "محمود زاده".

-فمن إذا هذه السيدة؟

-المرأة التي سوف أتزوجها، أيها السيد "محمود زاده".

-لماذا تتزوجان في سن متأخرة هكذا؟

-لقد تزوجتُ قبل الجميع في المدينة... وبعد ذلك... ماتت زوجتي.

-الله يرحمها...

-أشكركم، أيها السيد "محمود زاده".

-ولماذا هذه المرأة تتزوج أيضًا في سن متأخرة؟

-هي أيضًا، تزوجت مثلي قبل الجميع، وبعد ذلك حدث لزوجها حادث، فمات.

وكأن "محمود زاده" لأول مرة خلال السنوات التي عمل فيها في المدينة نسى أنه "السكرتير الأول".

-أذهبوا، واحضروا رئيس إدارة توثيق عقود الزواج.

تقدم خطوة للأمام رجل يلبس بدلة في الخمسين من عمره:

-أنا هنا، أيها السيد "محمود زاده".

-أكتب عقد زواجهما، هنا.

-تحت أمركم أيها السيد "محمود زاده".

وفي لمح البصر، ذهب الرجل الذي كان يرتدي بدلة، وعاد وتحت إبطه ملفًا. عُقد القران فوق المنضدة التي عليها غطاء أحمر والخاصة بمقر جمع الناس لجمع العنب.

اقترب "محمود زاده" من المنضدة الحمراء، وما أن سلم باليد على "صـــابر"، وقال له "ألف مبروك"، قال الجميع في نفس واحد:

-ألف مبروك.

أنقذ "صابر" "فاطمة" من هذه الفضيحة، وكان لا يفكر في شيء بعد ذلك. من يستطيع أن يقول شيئًا الآن؟ رجل ركب مع زوجته الحلال لعبة "دوامة الخيل"، فما الغريب في هذا الأمر...

ما إن ركب السيارة، جمعت "فاطمة" قواها بعد زلزال مدمر حدث بـــداخلها، وهمست وهي تمسح عينيها الدامعتين:

-"صابر"...

-نعم يا حبيبتي...

-"صابر"، أضحي بنفسي من أجل...

-حسنًا، حسنًا... لا وقت لهذا الآن، بعد ذلك سوف تضحين بنفسك.

-"صابر"...

-حسنًا... نذهب إلى منزلي الآن، وتذهبين إلى العمل اليوم من منزلـــي... وإلى الأبد.

-الناس...

-انتهينا من موضوع الناس منذ قليل... في الحديقة. أنتِ الآن زوجتي، في يدي عقد الزواج، ومكتوب فيه اسمينا نحن الاثنين...

-ماذا كُتب؟

-مكتوب فيها، فليجلس الناس أماكنهم. "فاطمة" زوجة "صابر".

حدث ما قاله "صابر" قبل ذلك. وبعد فترة، رُزق بولدٍ من "فاطمة". والخال كان أصغر بعامين ونصف من ابن اخته – كما قال "صابر" قبل ذلك...

والآن كان الثلاثة يأتون باستمرار للحديقة ويركبون لعبة "دوامة الخيل"، دون أن يخشوا شيئًا أو أحدًا.

كانت النساء اللائي يأتين للتنزه في هذه الحديقة ما إن يرون لعبة "دوامة الخيل"، يضحكن قائلاًت:

-لعبة "دوامة خيل" "فاطمة"...

وكان الرجال يقولون أيضًا:

-لعبة "دوامة خيل" "صابر".

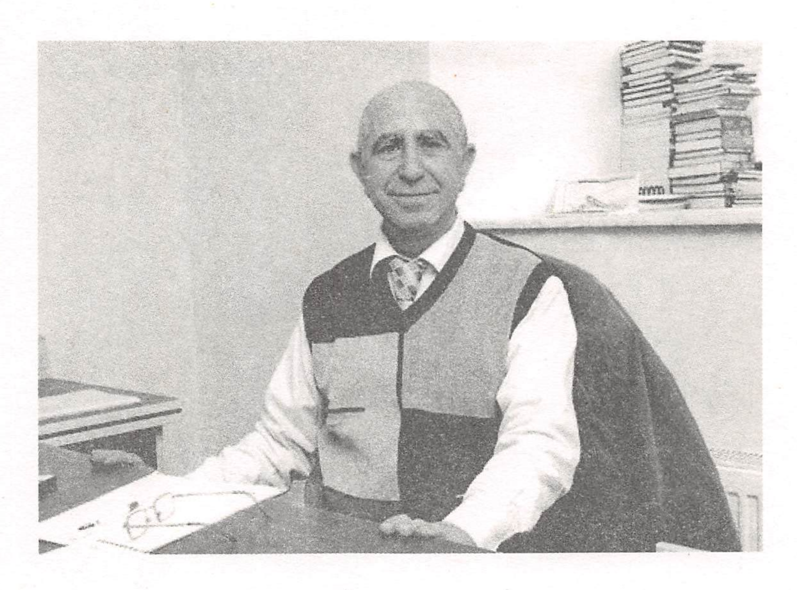
دون مزاح، ما لم يكن من نصيب أي أحد من عباقرة أو قدامى دولة في حجم أذربيجان أثناء حياتهم، كان من نصيب "فاطمة" و"صابر": لقد تخلد اسمهما للأبد في حديقة هذه المدينة، حتى ولو كانت مدينة صغيرة....

أما الآن... تعرفون أنه سقطت من السماء ثلاث تفاحات، أحدهما لفاطمة، والأخرى لـ "صابر"، والثالثة لسكرتير المدينة الأول السيد "محمود زاده"...

أنا لا أريد تفاحة...

(١٣)

قصة "ثلاثة أيام في تيغا"



الكاتب/ محمد أوروج

(١٩٤٧م)

كاتب وصحفي، ومترجم. له العديد من الأعمال النثرية المهمة مثل "حوار مع عزرائيل"، و"الترحيل"، و"جو اللعبة"، و"في يوم من الأيام"، وكتب مثل "سعادة العائلة"، و"الأغنية الغريبة"، و"خليج طائر اللقلق"، و"الترحيل"، ومسرحيات "تفاح تبريز"، و"لقاء مع الابن". ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات. عضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين، وحاصل على جائزة "ميرزا فتحعلي آخوندوف".

قصة "ثلاثة أيام في تيغا"

للكاتب / محمد أوروج

كان هناك سببان لسفري إلى مدينة "سورجوت" الروسية في أواخر شهر سبتمبر، السبب الأول: توصيل مائة نسخة من كتاب "العشاء" للشاعر السيبيري "ديمتري ميزقولي" -الذي ترجم إلى اللغة الأذربيجانية في باكو-إلى من تولى تكلفة طباعة الكتاب السيد "شهمير كريموف"، والسبب الآخر: المشاركة في حفل تقديم هذا الكتاب الذي سيعقد في "خانتي – مانسيسك". وبالطبع كانت لدى رغبة في رؤية هذه الديار التي قطنها في الخمسين أو الستين سنة الأخيرة مئات الآلاف من الأذربيجانيين، والتحدث مع أهالي هذه البلد، وكتابة بعض الخواطر. ولكن قبيل الرحلة، اتصل بي مساعد الشاعر "ديمتري ميزقولي" السيد "رومان إيفانوفيتش" وأخبرني أنه من الممكن أن تُصادر الجمارك الروسية نسخ الكتاب؛ فحسب القانون الروسي، يمكن السماح لدخول عشر نسخ فقط من الكتاب الواحد إلى الأراضي الروسية. كما أخبرني السيد "رومان" أن ما يهم مسئول الجمارك الروسي هو القانون وليس أهمية الكتاب. وفي الحال وضح لي الحل؛ حيث قال إن الأذربيجانيين المسافرين إلى "سورجوت" سوف يساعدونني.

وبالرغم من أن تعرضي فجأة لمشكلة كهذه عكر مزاجي، فإنني أخذت عشر نسخ إضافية من كتاب "العشاء"، حتى إذا وجدت أذربيجانيين من بين المسافرين إلى "سورجوت" تحدثت معهم. ولكن اتضح أن جميع المسافرين إلى "سورجوت" من "باكو" في ذلك اليوم – أي ١٧ سبتمبر – كانوا من الأذربيجانيين. وجدت على

متن الطائرة الشخص الذي يمكن أن يساعدني. عندما أخبرت تلك السيدة الشقراء الرقيقة بنيتي، أعربت عن موافقتها خلافًا لآخرين. وفي الحال قالت لي اسمها:

-إلهاما!

أيمكن ألا تتحدث حتى ولو ببضع كلمات مع الشخص الذي يجلس بجوارك أثناء رحلة تستغرق ست ساعات؛ اتضح أن السيدة "إلهاما" انتقلت وهي عروس قبل ثماني عشرة سنة، أي وهي في سن الثامنة عشرة من عمرها من مدينة "قوبا" الأذربيجانية إلى "سورجوت"، ولديها حاليًا ثلاث بنات في "سورجوت". وكان الهدف من مجيئها إلى "باكو" هو أن تعلق ابنتها الكبرى بأذربيجان وبالرياضة؛ إذ تهتم ابنتها بالرياضة، وحققت بعض النجاحات في هذا المجال.

التحقت ابنتها ذات الخمسة عشر عامًا بإحدى المدارس الرياضية دون أي وساطة، لذلك كانت فرحة بشدة.

عندما كنت أذكر النجاحات التي حققها الرياضيون بمنطقة "لزجي" الأذربيجانية، ابتسمت السيدة "إلهاما" قائلة:

-أنا لست من منطقة "لازجي" أنا مثلك تركية الأصل.

ولأن الجو كان مشمسًا والسماء صافية، كان سطح الأرض يبدو من زجاج الطائرة من حين لآخر مثل راحة اليد. وعندما أدركتُ أن النهر الذي نحلق فوقه هو نهر "أوبا"، عرفتُ أننا على وشك الوصول. وتم إعلان الحالة الجوية في "سورجوت": أربع درجات.

عندما أعطتني السيدة "إلهاما" -بعد أن عبرت من الجمارك -العشرة كتب التي أعطيتها إياها، قدمت لي رقم هاتفها، وقالت إنها تعمل في "كوافير للسيدات" في "تسور جوت"، وأنها تجلس مع سيدات علية القوم، وأنها تعرف شخصيات كبيرة، ولن تتوانى عن مساعدتي...

ولكن ما الذي يمكن أن تقابله من مشكلات بعد ذلك؟ وكما اتفقنا في الهاتف، استقبلني في المطار صديقي الكاتب "كنياز قوتشاق" عضو اتحاد الكتاب الروسي وكذلك الأذربيجاني، والذي يعيش في "نفتيوقانسكي"، ولم يكن بمفرده، بل كان بصحبته أخوه الأكبر "بالاشيزين".

بالمناسبة كانت أسرة "كنياز" مكونة من أحد عشر أخ. كان أخوه الأوسط "قروزين" صديقي في الفصل. لا أعرف عدد إخوانه، ولكن أعرف أن جميع أخوته باستثناء أخيه "واحد" يعيشون في مدن سيبيريا المختلفة. لماذا؟ من أجل كسرة خبز؛ لقد شغلني هذا السؤال بصفتي من أرباب الكتابة، ومازال يؤرقني.

كانت الساعة الواحدة ظهرًا عندما ركبتُ السيارة التي أرسلها "ديمتري الكسندروفيتش" لتذهب بي إلى مدينة "خانتي – مانسيسك". كنتُ أعتقد أنني سوف أستطيع أن أشاهد المناظر التي جسدتها في مخيلتي بسبب قراءاتي للكتب حول "سيبيريا" حتى وصولي إلى مدينة "خانتي – مانسيسك". كان علينا أن نسير هذا الطريق الذي يستغرق حوالي خمس ساعات، ولكن سرعان ما أضجرني هذا الطريق؛ كم يمكن للإنسان أن يشاهد غابات وأشجار تشبه بعضها البعض؛ أما "كنياز" فكان لا يكف عن الكلام. كانت أسئلته حول "باكو"، أو بالأصح حول الحياة الأدبية في أذربيجان. ومن حين لآخر كان يتناول في حديثه نجاحات المدينة التي ينتسب إليها. وكان يقول بفخر إن مدينة "يوجرا" التي ينتمي إليها تُنتج ٦٠ بالمائة من البترول الخام الروسي.

كنتُ أعرف من علامات الطريق، أننا على وشك الوصول إلى مقصدنا، ولكن لم تلمح عيني بريمة بترول واحدة. وعندما سألت عن سبب هذا، أخبرني "كنياز":

لازالت جميع آبار البترول تعمل من خلال مضخات البترول. ولا حاجة إلى البريمة.

وبالطبع كنتُ أعلم كم كانت سيبيريا ثرية بحقول البترول، وكنتُ أعلم أيضًا أن اكتشاف البترول في سيبيريا مرتبط باسم عالم الجيولوجيا الأذربيجاني "فرمان سلمانوف". لقد قرأت في ثمانينيات القرن الماضي كتاب صديقي الكاتب "سيافوش سرخانلي" حول هذا العالم الأسطوري. عندما ذكر اسم "فرمان سلمانوف"، قال "كنياز" بفخر:

-يوجد نصب تذكاري واحد فقط في مدينة "خانتي – مانسيسك" خاص بـ "فرمان سلمانوف".

وفي الحال أكد "كنياز" قائلاً:

-لقد تم مؤخرًا تشييد نصب تذكاري آخر في "سورجوت" لـ "فرمان سلمانوف"، وذلك بمبادرة من ليلي علييفا(١)...

عندما أخبرتُه بأنني على علم بهذا الموضوع، قال "كنياز" بثقة:

-الأمر لا يتعلق بالنصب التذكاري فقط، بل إن هذا يعكس الاهتمام بمئات الآلاف من الأذربيجانيين المقيمين في مقاطعة "يوجرا" ذات الحكم الذاتي.

إن منظر مدينة "خانتي – مانسيسك" من بعيد، تلك المدينة المقامة في المكان السهلي الذي هو نقطة التقاء نهر "إيرتش" بنهر "أوبا"، ذكرني بمدينة "منجتشافير" الأذربيجانية. ولكن عندما دخلت المدينة، وجدتها غاية في النظام، حتى إنني ظننتُ أنهم شيدوا هذه المدينة ليس فقط للماضي والحاضر، بل للمستقبل أيضًا بوصفها نموذجًا في هذه المنطقة السهلية المميزة.

عندما قلتُ لـ "كنياز" هذا الكلام، قال بفخر أيضًا:

---

(١) ليلى علييفا: هي كريمة رئيس جمهورية أذربيجان الحالي إلهام علييف، ونائب رئيس مؤسسة حيدر علييف الخيرية. (المترجم)

-أيها الرفيق، معظم هذه الأبنية، شيدها رجالنا.

-رجالنا من؟

-رجال الأعمال من مدينتنا... ربما سوف يأتون إلى الحفل.

كنتُ ألقي نظرة على المارين بالشارع والمسرعين إلى مكان ما، وكنتُ أشعر أن معظمهم من الأذربيجانيين، ومن حين لآخر، كنت ألمح أهل "خانتي" الذين يتميزون بوجوههم المستوية وأعينهم المائلة (المغولية).

استقبلنا الشاعر "ديمتري ميزقولي" بنفسه في فندق "يوجرا" الذي لا يقل بحال من الأحوال عن الفنادق الأوروبية ذات الثلاثة أو الخمسة نجوم. ولم يمر وقت طويل، حتى حضر الشعراء والكتاب المحليون إلى مأدبة العشاء استمرت إلى وقت متأخر من الليل بعد أن تحولت إلى أمسية شعرية، أي أنه قد بدأ حفل غير رسمي لتدشين كتاب "العشاء" بفندق "يوجرا".

عندما قدم الشاعر الأذربيجاني "جنكيز عبد اللاييف" والفنان الأذربيجاني القدير "سيافوش محمد زاده" كتبهم إلى الشاعر "ديمتري"، تأثر تأثيرًا كبيرًا وألقى كلمة للحضور، تبين منها أن هذا الشاعر الروسي الذي عاش بعض سنوات شبابه في أذربيجان على دراية كافية بالأدب الأذربيجاني المعاصر، وأنه يتابع إبداع عشرات الكتّاب الأذربيجانيين.

أما رجل الأعمال الأذربيجاني "تيفور هيبتوف" الذي انضم إلى المأدبة بعد ذلك وسيطر عليها بمزاحه، فوعدني بأنه سوف يصاحبني في جولة بمدينة "خانتي - مانسيسك" غدًا حتى موعد حفل تدشين كتاب "العشاء" في مكتبة المدينة المركزية.

أعطوني و"كنياز" حجرتين منفصلتين في فندق "يوجرا". ولكن "كنياز" طلب مني أن نبقى في الحجرة، لأنه يريد أن يتناقش معي حول الكتاب.

وبالرغم من أنني كنتُ متعبًا للغاية، فلم أكسر خاطره. فهو كان متأثرًا حقًا. كنتُ أعلم أنه منذ خمس سنوات لم يأت إلى أذربيجان. وكانت الأسباب معلومة لي بوصفي من أبناء جلدته. بالطبع، تقريبًا. فمن يستطيع أن يعرف ما بداخل الآخرين؟!

حقًا لم يكن لدى "كنياز" أزمة مادية. بسبب اجتهاده، فهو يتواصل مع جميع صحف "يوجرا"، ويتقاضى منهم مكافآت. بالإضافة إلى ذلك فإن رجال الأعمال الأذربيجانيين في هذه المدينة يحبون "كنياز" محبة خاصة؛ لأنه الكاتب الأذربيجاني الوحيد في هذه المدينة. وكنتُ أشعر بهذا في كل خطوة، وكنتُ أحس أن السبب الأساسي في هذا هو طريقة إبداعه، وليست قدرته على الإبداع باللغة الروسية فحسب.

أيقظنا من النوم اتصال "تيفور هيبتوف". وبدأنا الجولة بالمدينة بزيارة النصب التذكاري الخاص بـ "قرمان سلمانوف". لقد وضُعت حديثًا ورودًا عند النصب. يبدو أنهم زاروا النصب قبلنا بمدة قصيرة قال "تيفور":

-كل يوم هكذا. فلا يوجد يوم لا يأتي أحد لزيارة هذا النصب، الجميع يخلد ذكراه بغض النظر عن قوميته. فهذه المدينة أصلاً تعد نصبًا تذكاريًا له.

آنذاك تذكرتُ كتاب "خف الحياة" للكاتب الأذربيجاني "آنار" الذي يتناول فيه الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية في أذربيجان خلال القرن الماضي. واستقر في خاطري أن ذكر الكاتب "آنار" لـ "قرمان سلمانوف" في هذا الكتاب دون جميع الأذربيجانيين ممن لهم شهرة عالمية -لم يكن من قبيل المصادفة.

يبدو أن "تيفور" كان يقود السيارة ببطء كي أتخيل مناظر مدينته الحبيبة. أما "كنياز" فكان يُشير إلى بعض المباني ذات الواجهات الجديدة ويقول بفخر إن "تيفور" أنشأ تلك الأبنية.

كنتُ أعرف أنه تم العثور على عظام "الماموث" (إحـدى سـلالات الفيـل المنقرضة) في "يوجرا"، ولكن لم أكن أعلم أنه تم إنشاء محمية طبيعية تجسد حيـاة "الماموث" في هذه الأراضي بأحد أجمل المناطق في مدينة "خانتي – مانسيـسك". وقد صُورت حياة هذا الحيوان الذي يشبه الفيل الذي انقرض منذ زمن بعيد.

قبل أن نصل إلى المحمية، انحرف "تيفور" عن الطريق الأسفلتي بالـسيارة، وسار في الطريق الترابي. ومرة أخرى شاهدنا المباني الجديدة. لم يستخدم في بناء هذا المبنى أي مواد بناء مصنوعة مـن غيـر الأشـجار، حتـى ولـو مـسمار. قال "تيفور":

–هذا مشروعي الأخير، سوف يكون حمامًا...

سألتُ:

–حمام فنلندي؟

–لا، حمام روسي، وسوف توضع به أيضًا "براميل" في الهواء الطلق.

تدخل "كنياز" في الكلام:

–الجميع لديه في المنزل حمام، فما الفائدة من هذا؟

قال "تيفور":

–الموضوع ليس في الاستفادة، الحمام رمز للثقافة والصحة.

تذكرتُ أيضًا مصراعًا من إحدى الأغاني الشعبية وقلتُ بصوت مـنخفض: "لا أبني كي أعيش في هذا المبنى، أبني لكي يبقى أثريًا".

شاركني "كنياز" الرأي وقال:

-الأمر الأساسي هو أن تترك أثرًا، والأثر يتحول إلى طريق، وبعد ذلك إلى طريق متسع...

كانت القوارب المزينة متراصة عند ساحل نهر "أرتيش" بمحاذاة الطريق القادم من الغابة، فوصلنا إلى أحد السواحل الرملية البيضاء. نزل " تيفور" من السيارة "المرسيدس" التي كان يقودها وركب خلف عجلة القيادة لقارب ماركة "مرسيدس" أيضًا.

كانت الأحذية ذات الرقبة الطويلة، وشبكة الصياد، والأدوات الأخرى الموجودة على القارب تشير إلى أن "تيفور" مهتم بالصيد.

عندما أسرع القارب وابتعد عن الساحل وسار وسط أمواج نهر "أرتيش"، لفت انتباهي مدينة "خانتي – مانسيسك" كأنها بساط ملون مفروش على سفح الجبل. وكان الناس بالقوارب القادمة نحونا يلوحون بأيديهم لنا عندما يقتربون منا، ويعربون عن امتنانهم.

قال "تيفور":

-الجميع في هذه المدينة يعرف بعضه بعضًا، فتعداد سكانها لا يتجاوز مائة ألف.

وعندما اقتربنا من موقع التقاء مياه نهر "أرتيش" مع نهر "أوبا"، أوقف "تيفور" محرك القارب وقال:

-تمنى في قلبك ما تشاء، فإن الأماني التي تُطلب هنا تتحقق... لقد عشتُ أصعب لحظة في عمري وأنا أنظر إلى هذا النهر العظيم، وذلك في مكان التقاء نهري "أرتيش" و"أوبا"، فلم أجد أمنية لكي أتمناها في قلبي...

كان الجو باردًا. كان المؤشر الموجود بجهاز قياس درجة الحرارة بالقارب يهتز فوق درجة الصفر.

قال "تيفور":

-يجب التدفئة.

ثم أعطاني عجلة قيادة القارب.

بالطبع، لم يخطر ببالي قبل يوم، أنني سأقود قاربًا آليًا في نهر "أوبا".

صب "تيفور" خمرًا في ثلاثة كؤوس من زجاجة أحضرها من أحد أركان القارب وقال:

-خذ الخمر، أرسلوه من محافظة "قوصار" الأذربيجانية، ثم قطع لكل منا شريحة من الجبن، وقال: وهذه أيضًا أرسلوها من "قوصار". هذا جبن ماعز.

قال "كنياز" الذي رآني قد غصت في التفكير:

-الشراب هنا أسلوب حياة، ولكن الجميع يعرف قدره.

أهداني "تيفور" أيضًا كتابًا في القارب، هو كتاب "من الذي يبكي حين تموت؟" المترجم من الإنجليزية إلى الروسية للكاتب العالمي صاحب أكثر الكتب مبيعًا "روبين شارما". وقال إنه يريد أن يُطبع هذا الكتاب في أذربيجان". وعندما ألقيت نظرة على الكتاب في القارب، اعتقدتُ أنني أتصفح "الإنجيل". لم أستطع أن أعي جيدًا ما سر تعلق "تيفور" بهذا الكتاب الذي يبعث في الإنسان الثقة بالنفس وحب الحياة، ولكني شعرتُ بأن أكبر سند له في هذه المدينة هو شعوره بالثقة بالنفس.

كما ألقى "تيفور" كلمة رائعة أيضًا في حفل تدشين كتاب "العشاء" المهيب الذي أقيم في المكتبة المركزية بالمدينة. واقتبس عبارة من الكاتب "جنكيز عبد اللاييف" الذي كتب مقدمة لكتاب "العشاء"، وأشاد بالكتاب بوصفه وسيلة لإعادة الجسور المحطمة بين الشعوب.

أما "كنياز فونتشاق" الذي لم يقل تعبه عني في ترجمة كتاب "العشاء" إلى اللغة الأذربيجانية، فقد قرأ خلال كلمته بالحفل المقالة التي نشرها الكاتب الأذربيجاني "واقف يوسفلي" بجريدة "٥٢٥" حول كتاب "العشاء" بالكامل، وأخذ يترجم جملة جملة إلى اللغة الروسية ترجمة فورية.

وقد اعترف "شهمير كريموف" المسئول عن طباعة الكتاب في كلمته بأنه لا يزال حتى الآن لا يعرف مؤلف الكتاب على المستوى الشخصي. ولكن هذا الأمر لم يُقابل بالتعجب، بل بالتصفيق.

لقد كتب شاعر مدينة "خانتي – مانسيسك" "أندري طارخانوف" كتابًا حول "ديمتري ميزقولي"، كما ألقى كل من الدكتور "الكسندر سيميانوف"، والسيد "والله أديجوز البيوف" رئيس جمعية "الاتحاد" الأذربيجاني "يوجرا"، كلمات شيقة لاقت ترحابًا شديدًا من قبل الحضور حول هذا الحدث الأدبي المهم.

أما مراسلو الصحف والقنوات التليفزيونية القادمون من مختلف أنحاء "يوجرا" فقد وجهوا إليّ أسخف سؤال:

-يوجد آلاف الشعراء في روسيا الاتحادية. ما الميزة التي تميز بها "ديمتري ألكسندر وفيتش" حتى تقوم بترجمة إبداعه؟

ربما لو لم يتدخل "كنياز" على الفور في الأمر، لما استطعتُ أن أتخلص من هذا السؤال. بدأ الرد على هذا السؤال من بعيد بشكل دبلوماسي، حتى وصل إلى المطلوب بشكل جعل القاعة تضج بالتصفيق.

كما واجه "ديمتري ميز قولي" نفسه سؤالاً حادًا هو الأخر:

-لقبكم أحد ألقاب التتار، وأنت شاعر روسي، فكيف هذا الأمر؟

ولكن حول "ديمتري الكسندروفيتش" -الذي كان مستعدًا للإجابة-هذا السؤال إلى مزاح:

-لو اتبعتم ماضي أي روسي، سوف يرجع أصله في النهاية إلى الجيش الأحمر.

إن اهتمام الشاعرة "ماريا فولدينا" بي اهتمامًا خاصًا، والتقاطها معي صورًا متعددة، كان يتعلق باسم والدي "كاظم" وإن بدا الأمر غريبًا بعض الشيء. حيث إن أكبر منطقة يعيش فيها سكان "خانتي" في "توندورا" تسمى "كاظم". وكان مؤسس الأدب في "خانتي" هو الكاتب الكلاسيكي "يرماي آيبين" من منطقة "كاظم". بالمناسبة، قبل حفل التقديم، قمنا أنا و" كنياز" بزيارة لمدة خمس أو عشر دقائق لـ "يرماي آيبين" الذي يتولى منصبًا مرموقًا في الحكم الذاتي لـ "يوجرا". ولقد قمتُ قبل ذلك بترجمة قصتي "الشاي في شهر يناير"، وامرأة من باريس" القصيرتين للكاتب "يرماي" -الذي في نفس سني-إلى اللغة الأذربيجانية، آنذاك دعاني "يرماي" لزيارة "يوجرا".

وعندما كان يودعني سألني عن المدة التي أريد أن أبقى بها في "يوجرا"، فأخبرته بأنني لم أقرر بعد.

فابتسم، وقال:

-فلنجلس في مكان ما، لازلت أستطيع شرب الخمر.

بعد حفل تقديم كتاب "العشاء" الذي انتهى بعد وقت الغروب، كان جميع الأذربيجانيين الذين يعيشون بالمدينة يريدون استضافتنا. ولكن "ديمتري ميزفولي" سبق الجميع بمزاحه مرة أخرى قائلاً:

-أنا لا أثق في أحد حتى أعهد إليه بضيوفي.

انسلت السحب من كبد السماء، وأصبح الجو شديد البرودة، فقال "كنياز":

-الجو مملوء بالثلج، لو نزل الثلج، تكون قد رأيت ثلج "تبغا" أيضًا.

فقلتُ متعجبًا:

-هل هنا "تبغا"؟

أما "كنياز" فربما ظن أنني أمزح معه. ولكن بالفعل كان هذا المكـان هـو "تبغا". ولكن عندما خرجتُ من "باكو" كنتُ أعتقد أنني سوف أرى في "تبغا" أسراب الغزلان ورعاة "خانتي"، وسوف يعترض طريقي دب صغير... ولكن أينما ذهبتُ أقابل أناسًا يظهرون اهتمامًا كبيرًا بي وبشعبي وأمتي. وعندما أخبرتُ "كنياز" بأنني أرغب في السفر إلى "موسكو"، تأثر تأثيرًا شديدًا وقال:

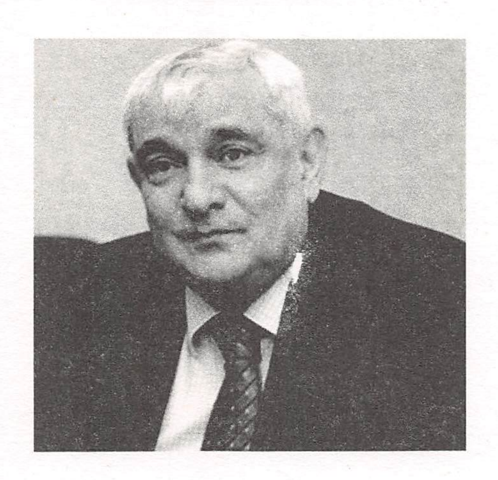
-أخي الحبيب، لم العجلة؟! ربما كنت تريد أن ترى "ببقال" أيضًا.

فقلتُ:

-فلنجعلها المرة القادمة. ربما سوف أتردد على هذه الأماكن كثيرًا.

(١٤)

قصة "مسرح الغرفة"



الكاتب/ كمال عبد الله
(١٩٥٠م)

كاتب، ومترجم، وأستاذ أكاديمي، حاصل على لقب "خادم العلم القدير"، وعضو مراسل بأكاديمية العلوم الوطنية الأذربيجانية. وله العديد من المؤلفات القيمة والروايات والمسرحيات مثل "لا يوجد أحد للنسيان"، و"الروح"، و"واحد، اثنان، وما لدينا"، و"المخطوط المبتور"، و"وادي السحرة"، و"التيه".

ترجمت أعماله إلى العديد من لغات العالم. حصل على ميدالية "بوشكين" من روسيا الاتحادية. وحصل عام ٢٠٠٧م على جائزة "هوماي" في أذربيجان، كما حصل على جائزة "رواية العام" من جريدة "٥٢٥"، وحصل على لقب "الشخصية الأدبية للعام" عام (٢٠٠٧م). كما حصل على ميدالية "كارل كراميج" التشيكية، ووسام "الصليب العظيم" من بولندا. وفي عام (٢٠١٠م) حصل على جائزة "آخر عمل أدبي خلال عشر سنوات" عن رواية "المخطوط المبتور" في مسابقة "نسيمي" الأدبية القومية الثالثة. كما حصل عام (٢٠١٥م) على جائزة (سكانو)، ووسام "الشهرة".

قصة "مسرح الغرفة"

للكاتب / كمال عبد الله

لم يعرف من أين قدم إلى تلك الأماكن - كان لا يعرف أحدًا! كان الجميع يعرفه بوصفه أقدم ساكن في هذه المناطق.

كان دائمًا يردد هذه العبارة: "حتى لو سألوا الشخص "ما اسمك؟" يجب أن يفكر أولًا، ثم يرد."

كان هذا هو شعار الأستاذ "أحمد" في الحياة.

فكما دفع "سيزيف"[1] صخرة ضخمة من أسفل الجبل ليرفعها إلى أعلاه، كان هو أيضًا بعد أن ظهر في هذه المنطقة يجتهد يومًا بعد يوم، حتى تحول إلى متخصص متميز يعرف عمله جيدًا في إحدى المؤسسات البحثية.

كان الكثير يعرفه على أنه شخص عاقل ورزين، وله رد على جميع الأسئلة. ولكن كان من المستحيل أن يرد الأستاذ "أحمد" مباشرة من دون تفكير على سؤال أي شخص، فقد كان دائمًا يمعن في التفكير.

كان يشعر بلذة خاصة حين يقوم بدور من يبحث عن إجابة لأي سؤال حتى ولو يعلم إجابته بدقة، فيغمض عينيه ويمعن في التفكير.

---

(١) سيزيف: هو شخصية إغريقية شهيرة عاقبته الآلهة بأن حكموا عليه بأن يدحرج بلا انقطاع إلى قمة الجبل صخرة تعود لتهوى إلى أسفل بسبب ثقلها، ويظل هكذا حتى الأبد. فأصبح رمزًا للعذاب الأبدي. (المترجم)

كان لا ينسى آنذاك أن هناك من ينظر إليه. ها هو؛ ذلك الشخص متوسط العمر قصير القامة، نحيف، طويل الأنف، يلفت الأنظار في الحال لدرجة أن قصر قامته ونحافته لا تهم الناظر إليه. لقد غاص في تفكير عميق وهو يلف نظارته ذات العدسات السميكة التي يمسكها في يده.

سألوه سؤالاً صعبًا للغاية. لقد كان السؤال في الغالب: "أين تقع عاصمة أذربيجان؟". لا ينظر الرجل إلى سائله، بل ينظر جانبًا. انكمشت ملامح وجهه. وأخفى بصعوبة قلقه الداخلي.

كان الجميع من حوله يأخذ نفسه وينتظر إجابة هذا السؤال الصعب. وكاد السائل أن يندم على سؤاله هذا.

بعد مرور فترة قصيرة، كان السائل يبحث عن صُحبة للذهاب. ولكن من في الحجرة لم يعطوه فرصة لذلك. ولا يمكن حجب الإجابة أكثر من ذلك في ظل قمة هذا الاضطراب.

وفي النهاية كان خروج كلمة "باكو" من فم الأستاذ "أحمد" الذي كان يشعر جيدًا بهذا الأمر ينطوي بداخله على أسرار كثيرة. وكأن هناك حملاً ثقيلاً رُفع من على عاتق السائل. وأخفى الحضور تأففهم وضجرهم بصعوبة، أما الأستاذ "أحمد" فقد بدت في عينيه سعادة خفية.

كان هذا هو مسرح صغير للأستاذ "أحمد". مسرح غرفة مكون من ممثل واحد. أو بمعنى أصح، يوجد بهذا المسرح ممثل واحد دائم، وممثل أو عدة ممثلين متغيرين. كان هو نفسه الممثل الدائم، أما السائلون أو المتجمعون والمنتظرون إجابة السؤال فهم بالطبع متغيرون.

تعلمنا الحياة أنه لا يوجد في الدنيا شيء خالد. وفي يوم من الأيام تحول الأستاذ "أحمد" عن مبدئه. كان لا أحد يتوقع مطلقًا هذا. كان يجب ألا يحدث هذا،

ولكنه حدث. ولو كانوا سألوه: لو عاد بك الأمر من جديد في ذلك اليــوم التعــيس، ماذا كنتَ فاعلاً؟، استحضر الأستاذ "أحمد" خشبة "مسرح الغرفة" في الحال وقــال: "كنتُ سأفعل الشيء نفسه الذي فعلته في المرة الأولى".

لا يدور الحديث عن مبدأ "الرجل كلمة واحدة"، بــل يــدور الحــديث عــن أن الأستاذ "أحمد" يعيش حاليًا ألم ومتعة ذلك اليوم نفسه، بغض النظر عــن مكــان ذلك الشعور.

لم ير أحد تلك المرأة لا قبل هذا الحدث أو بعده. وكأنها جاءت إلى هناك من أجل "فضح الأستاذ "أحمد" أمام أعين زملائه. إذ سرعان ما جاءت وذهبت. يتــذكر الجميع كيف أن الأستاذ "أحمد" فقد صوابه عندما رآها.

بدأ اليوم بداية طبيعية. لقد أصبح موضوع "السؤال والجواب" تقليــدًا يوميًّــا قبل بداية العمل. كانت الإجابة الجديدة على السؤال الأول في الصباح الباكر تلفــت انتباه الكثيرين. وكان هذا الرد "شيقًا" بشكل كاف.

كان هناك رجل يسمى "قانطورالي" السمين، يتألم الجميع من أجله بسبب حبه المشئوم لإحدى زميلاته التي تعمل معه في القسم نفسه، حيث بدأ يتساقط شعره قبل موعده.

سأل "قانطورالي" السمين الأستاذ "أحمد":

-كيف الحال، يا أستاذ أحمد؟

أضاءت الكشافات التي تضيء خشبة مسرح الغرفة. بعد أن فكــر الأســتاذ أحمد كثيرًا مرة أخرى، أغمض عينيه وقال:

-سقطت "V" .

بعد الذهول من الرد، فطن العاملون بالقسم الذين كانوا ينــصتون للأســتاذ "أحمد" معنى هذه الإجابة وتنفسوا الصعداء وأخذوا ينظرون إلى بعــضهم الــبعض وهم يحركون رءوسهم. "الرد هو كالتالي إذا سقط حرف "V" من كلمة "Vəziyyət" التي تعني بالأذربيجانية "الحال"، سوف تصبح كلمـــة "Əziyyət" أي "المــشقة" أي الحال هو "المشقة والتعب"!

"آه أيها الأستاذ أحمد، أدام الله عمرك!".

شمخت أنف الأستاذ "أحمد" وهو راضٍ عن نفسه هذه المرة، وترك ســاحة المسرح...

اتجهت تلك المرأة مباشرة نحو حافة باب الحجرة التي يجلس فيها الأســتاذ "أحمد" دون أن تسأل أحدًا شيئًا، مارة من الممر المتعرج شبه المظلم كأنهــا تــسير في طريق واحد منذ ألف سنة. دخلت الحجرة وأخذت تبحث بعينيها عــن الأســتاذ "أحمد" حتى وجدته، فاقتربت من المكتب الذي يجلس عليه. وعندما رآها الأســتاذ "أحمد"، تغير لون وجهه، أو هكذا خُيل لرفاق العمل. صــدرت الكلمــات الأولــى للضيفة المجهولة بشكل جهوري:

-لقد عثرتُ على هذا المكان بصعوبة. لا أفهم، لماذا تختبــئ منــي؟! هــل تستطيع أن تقول لي ما هدفك؟

كان يوجد بالحجرة أربعةِ أو خمسة أشخاص، وكانت تُحلق في الآفاق بشائر عراك، وبالرغم من أن بعض الحاضرين يتظاهر بأنه منشغل بعمله، فــإنهم بــدأوا الإنصات إلى هذه الضيفة الغريبة. ولاحظوا ارتباك الأستاذ "أحمــد" مــن خــلال سرعة رده على السؤال، وليس التأني في الرد كالمعتاد. ربما "مسرح الغرفة" كان في إجازة. لا، لقد نسوا المسرح. وضع الأستاذ "أحمــد" نظارتــه ذات العدســات

السميكة بصعوبة على عينيه، اللتين اتسعتا من فرط الذهول، ونظر إلى هذه الضيفة المسكينة التي لم تُدع، وأجابها في نفس واحد:

-ليس لدي أي هدف. لماذا أختبئ منك؟! أن لا أختبئ منك مطلقًا. لقد بحثتُ عنك كثيرًا آنذاك. ولكنك اختفيت، ولم أعثر على مكانك. ولكن كنتِ تـأتينيَ فـي المنام. حدث كل شيء فجأة. ما ذنبي أنا؟!

رفع "قانطورالي" الذي سمع عبارة "ولكن كنتِ تأتيني فـي المنـام" عينـه، ونظر نحو السيدة "سلجان" التي تجلس في الناحية الأخرى من الحجـرة. فانتفخـت أوداج السيدة "سلجان".

كانت المرأة ترد على عبارة "ما ذنبي أنا؟!" كالتالي:

-نعم، ماذا علي أن أقول؟! في غمضة عين... وليكن. ما الذي كان يمكـن عمله؟! كانت هذه الأمور تسير هكذا. متى يمكن أن نتقابل معك؟

رمقت المرأة بطرف عينها من حولها وخفضت صوتها بعض الشيء.

مع أن قلب الأستاذ "أحمد" كان يخفق بشدة، فإنه سألها هامسًا:

-فلنتقابل في المكان الذي تريدينه، وفي أي وقت؟ هل هو هنا أيضًا؟

أومأت المرأة برأسها: "نعم". بدت على الأستاذ "أحمد" علامـات الانكسـار، وتدلت رأسه، وبدأ يُحرك نظارته، كما كان يفعل في أوقات اضطرابه. ثم اتفقـت المرأة على أن تقابله في المقهى المجاور للعمل. وألقت نظرة مملوءة بالمعاني على الأستاذ "أحمد"، تعني هذه النظرة "انظر، أخرج من رأسك أي حركة طائـشة! لقـد رأيتَ أنني أجدك حتى ولو كنت تحت الأرض، لا تستطيع أن تختبئ مني فـي أي مكان". وبعد ذلك التفتت بكبرياء وخرجت من الحجرة. ثم لم ينبس الأستاذ "أحمـد" ببنت شفة مع أحد حتى نهاية العمل. وكذلك لم يسأله أحد من زملائـه عـن هـذه الضيفة الغريبة مقدرين حالته السيئة.

... خرجت المرأة من باب الإدارة متجهة نحو الحديقة الصغيرة الموجـودة في الناحية الأخرى. كانت تفكر وهي ذاهبة في أن العثور علـى الـشخص الـذي كانت تبحث عنه طيلة هذه المدة يعد مظهرًا من مظاهر العدالة العليا، وليس شـيئًا آخر. مهما تبحث سوف تجد ما تبحث عنه. لا يمكن غير ذلك. كان ينتظر المـرأة في الحديقة رجل متوسط العمر.

سألها الرجل:

-ماذا حدث؟ هل استطعتِ رؤيته؟

أجابت المرأة بصوت خافت:

-رأيته.

تنفس الرجل الصعداء. كان هناك مقهى تحت مكان تظله أشجار كثيفة وسط الحديقة، ذهبا معًا وجلسا حول منضدة في المقهى.

سألها الرجل بشغف:

-ماذا قال؟ هل تعجب؟

-لا ... مم يتعجب؟!

-أقصد لأننا عثرنا عليه ... ألم يتعجب؟!

أجابت المرأة على الرجل بثقة:

-لا، لم يتعجب. هو يعرف الوضع بنفسه...

التفت الرجل حوله باحثًا عن صاحب المقهى.

بالرغم من أن هذا الأمر يبدو غريبًا، فإن الخط الذي يجمع هذه المرأة وهذا الرجل بالأستاذ "أحمد" لا تحده الحدود الجغرافية للعالم الذي يعـيش فيـه الأسـتاذ

"أحمد" الآن. كان الخط يتصاعد لأعلى متجهًا لنقطة ما. ويمر في السماوات السبع. وبعد ذلك يتجه من هناك نحو كوكب لا تبدو فيه النجوم، ولا يُتصور بعده. وفي غمضة عين يصل إلى وجهته. وكأن هذا الخط أحضر وجلب إلى هذه الدنيا الرجل والمرأة اللذين يجلسان وجهًا لوجه في هذا المقهى الصغير. الآن ينتظران صاحب المقهى ذا الشعر المتعرج ليأتي إليهما بالشاي. كان وقتهما محددًا. يجب أن ينجزا أعمالهما هنا ويعودا في الحال بهذا الخط. ويجب أيضًا أن يعودا مع الأستاذ "أحمد". وإلا حُكم عليهما بالفناء خنقًا.

جاء الفتى ذو الشعر المتعرج وفي يده صينية الشاي. وبمهارة، وضع الأكواب والأطباق وإبريق الشاي الصغير والزبيب والمكسرات والشوكولاتة والليمون على المنضدة ورتبهم بشكل منظم. ولسبب ما، بدلًا من أن يضع كوبين من الشاي، وضع ثلاثة. وبدأ الضيفان في احتساء الشاي دون أي كلام.

وعندما ظهر الأستاذ "أحمد" عند مدخل الحديقة، أومأت المرأة إماءة خفيفة برأسها للرجل.

كاد الرجل أن يسأل بعينيه:

-أهو؟

أجابت المرأة بهدوء بنفس الشكل:

-هو بنفسه.

اقترب الأستاذ "أحمد" منهما وهو في ضيق، وجلس خلف المنضدة دون كلام أو سلام وهو شبه حزين ومنكسر. وما إن جلس، أخرج من الجيب الأمامي لسترته الرمادية المخططة بخطوط بنية نظارته ذات العدسات السميكة، وأخذ يحركها في يده متلفتًا هنا وهناك. وكان ينظر إلى النظارة باهتمام شديد، كأنه ليس لديه شيء أهم منها.

كان الضيفان يشعران من هذا "العبث بالنظارة" الذي يقوم به الأستاذ "أحمد" أنه يريد أن يُطيل الوقت. نظرت المرأة للرجل بأسف. "لا يرغب هذا أن يختفي مرة أخرى؟!"

-انظر، لو تنوي أن تلعب معنا ثانية "الغميضة"...

وجهت المرأة وجهها نحو الأستاذ "أحمد"، وعندما أرادت أن تواصل حديثها بشكل صارم، قاطعها الرجل فجأة بحدة، وقرر أن يُكمل هو الحديث:

-كم يجب علينا أن نكرر لك هذا الكلام؟ أتعبث معنا؟؟

ورغم أن طرح هذه الأسئلة كان حادًا، فإن "مسرح الغرفة" لم يفتح ستائره بعد. لقد نسي الأستاذ "أحمد" هذه المرة ذلك المسرح الصغير الذي اخترعه. ودون مراوغة، بدأ الإجابة بسرعة كالطفل الحافظ للإجابة دون أي تفكير في هذه الأسئلة التي كانت مثل الصفعة على وجهه.

-أنا لا أعبث. قولا ما تريدان قوله، لا دخل لي بهذا. لماذا تتعقباني؟ ماذا تريدان مني؟ لقد أخذت قراري. أنا لا أريد العودة إلى هناك، هل تفهمان؟ لا أريد!

في النهاية، أغلق الأستاذ "أحمد" نظارته ذات العدسات السميكة التي كان يلعب بها في يده، ووضعها على المنضدة. وتضايق من نفسه بسبب أنه رفع صوته.

-ألا تفهم أنك منذ فترة وأنت داخل حلم طويل؟ ألا تفهم أنك قد ضللت داخل هذا الحلم؟

كانت أسئلة الرجل تبدو كالصفعة على وجهه مرة أخرى.

جاء صوت المرأة كالنائم بعض الشيء:

-لقد أضللتنا أيضًا في هذا الحلم، يجب عليك أن تستيقظ من هذا الحلم. يجب أن تستيقظ وتخلصنا، فنحن لا نستطيع أن نخرج من حلمك بأنفسنا.

-أنا لست مدينًا لأحد بأي شيء. ولا يجب علي أن أفعل شيئًا. الذنب ذنبكم أنتم.

كان يجب عليكم ألا تدخلوا في منامي. ما شأنكما به؟! انظر، لا يوجد رد منكما على هذا السؤال.

بالفعل كانت المرأة والرجل في منام الأستاذ "أحمد". فالحقيقة لو نظرت، فستجد أن حياة الأستاذ "أحمد" كلها عبارة عن حلم كبير. وكذلك هذا المقهى الموجود تحت الأشجار في الحديقة الصغيرة الواقعة بجوار مكان العمل داخل الحلم أيضًا، والحوار الذي يدور بينهم أيضًا داخل الحلم. العمل والزملاء ومسرح الغرفة وكل شيء كان داخل الخلم. كان الأستاذ "أحمد" لا يريد أن يستيقظ من هذا الحلم. أمر غريب، ولكن الواقع هكذا. حاليًا لا يوجد شيء يربط الأستاذ "أحمد" بهذا العالم البعيد الذي تنتسب إليه هذه المرأة وهذا الرجل اللذان يشربان الشاي ويجلسان معه الآن، والذي وُلد وترعرع فيه بحفيف الأشجار وشدة حرارة الشمس، والرياح التي تُطير الناس كالطيور، وتساقط الثلج من السماء على الأرض أكوامًا، وأهم شيء علاقة المودة بينه وبين زملائه في العمل، وسؤالهم إياه الأسئلة التي لا يعرفونها، وانتظارهم الإجابة منه باحترام.... كل هذه الأمور ربطت الأستاذ "أحمد" بشدة بعالمه الجديد هذا الذي يأتي إليه في المنام منذ ثلاث سنوات. وعندما كان يتذكر فجأة العالم الآخر الذي وُلد فيه أثناء هذا الحلم الذي يراه، كان يغضب غضبًا شديدًا.

وأصبح الأستاذ "أحمد" بالفعل لا يحب تلك الدنيا، وأطلق عليها اسم "الدنيا التي لا حفيف لأشجارها". والآن يأتي هذان الشخصان من "الدنيا التي لا حفيف لأشجارها"، أي من داخل حلمه، وليس من تلك الدنيا، ويريدان أن يفصلاه عن عالمه الجديد الغالي الذي كان يتحسر عليه قبل ذلك.

كان الأستاذ "أحمد" يتحدث وهو يفكر:

-لو تركتكما، سوف يتلاشى هذا الحلم. أنا أحتفظ بكما في هذا الحلم رغمًا عني. فكرا بنفسيكما، لا حاجة لي بكما هنا. أنا لا أريد أن يضيع الحلم. أنتما تعرفان أن هنا: اثنان زائد اثنين... يساوي خمسة.

في العوالم الأخرى اثنان زائد اثنين يساوي أربعة. كان الأستاذ "أحمد" يعتقد أن الدليل الأخير يجب أن يكون مقنعًا وغير متوقع بشكل كبير للضيفين الغريبين.

لم يصدقه الضيفان.

رغم أن الحديث استمر طويلاً، فإنه لم يأت بنتيجة، واتفقوا على أن يلتقوا غدًا مبكرًا، ثم انصرفوا. عاد الأستاذ "أحمد" إلى العمل. وكان عذاب الضمير يسحق قلبه.

-جاء الأستاذ أحمد! يا أستاذ أحمد، يا أستاذ أحمد! ...

بمجرد أن رآه أصدقاؤه في القسم، فرحوا جميعًا وأخذوا ينادون عليه. يبدو أنهم كانوا قلقين من أجله. وهذا شيء جدير بالتقدير.

حلت على وجه الأستاذ "أحمد" ابتسامة حزينة. كان يقلب في ذهنه الحوار الذي دار منذ قليل في المقهى. كان يفكر ويمعن في التفكير. وبالرغم من ذلك، بعد أن عبر وجلس مكانه، تفقد الموجودين بالحجرة واحدًا واحدًا، وانتظر ما سوف يقولونه له، أو بمعنى أصح: انتظر الأسئلة التي سوف يُغدقونها عليه قائلاً: "تفضلوا، أنا مستعد لخدمتكم". وبدت في أعماق عينيه مرة أخرى علامات مملوءة بالرقة كالمعتاد. بدأت المسرحية. وبعد السؤال الأول، أضاء الأستاذ "أحمد" مصابيح مسرح الحجرة، وصعد خشبة المسرح. ألقى نظرة يمينًا ويسارًا، وانحنى للجمهور، ووقف منتظرًا.

كان السؤال الأول كالآتي:

-يا أستاذ أحمد، هل يستطيع الإنسان أن يحب شخصين في آن واحد؟

كان الجميع معتدل المزاج بسبب قرب نهاية العمل. ظنت السيدة "سلجان" التي سألت السؤال أن الأستاذ "أحمد" سوف يغوص في تفكير عميق هذه المرة للإجابة على السؤال، ويغمض عينيه ويغوص في الخيال ويصيب السهم الهدف، وألقت نظرة خلسة إلى زملائها الذين ينتظرون إجابة السؤال بشغف.

لقد اقترب وقت الانصراف من العمل بسبب خروج الأستاذ "أحمد" اليوم من العمل بشكل غامض مع تلك المرأة المجهولة. التي قدمت إليه، حيث رجع إلى العمل قرب انتهاء الوقت، لذلك فإن فرصة الاستمتاع كالمعتاد بالأسئلة والإجابة قليلة جدًا. لن يتسع الوقت لجميع الأسئلة. قبل قليل، حدد الموجودون بالحجرة فيما بينهم الأسئلة التي سوف يسألونها. سوف يُطرح أولاً السؤال الذي أعدته السيدة "سلجان". وبعد أن سألت السؤال أخفت عينيها عن النظرات الحادة لـ"قانطورالي" السمين الجالس أمامها.

صعد الأستاذ "أحمد" على خشبة "مسرح الغرفة"، وأخذ نفسًا عميقًا. وبعد ذلك كانت هناك فتاة تسمى "سميرة" ستقول: "لقد تأوه من أعماق قلبه قبل أن يرد على السؤال...". كانت ستقول هذا، وفجأة أجهشت بالبكاء بصوت عالٍ. وبالرغم من أن الجميع تبادل نظرات ذات معنى، لكن لم يستطع أحد أن يتكلم بكلمة.

صعد الأستاذ أحمد "مسرح الغرفة"، وتأوه من أعماق قلبه. وعقد حاجبيه. لقد جعلت إجابة سؤال اليوم الجميع يعترف أن الأستاذ "أحمد" يلعب الدور الرئيسي. ولا يمكن معرفة حقيقته. كأنه هرب من عالم آخر وقدم إلى هنا. ولا يريد العودة. كان يتحدث من خلال صوته، ونبرته وحركاته عن جاذبية العالم الذي تصدر فيه أوراق أشجاره حفيفًا. كأن الأستاذ "أحمد" كان يودعهم. كان لا يودعهم هم فقط، بل يودع هذه الدنيا، هذه الدنيا الغريبة التي بها اثنان زائد اثنين يساوي خمسة. في النهاية صمت الأستاذ "أحمد"، وبعد سكوت وقتي:

-شكرًا، يا أستاذ أحمد!

انتزعت هذه الكلمات من أعماق قلب أحدهم. بعد أن سألت "السيدة سلجان" هذا السؤال، خاب أمل من كان ينتظر ردًّا مضحكًا على هذا السؤال. كان الأستاذ "أحمد" يقف في منتصف خشبة المسرح تحت إضاءة الكشافات المسلطة عليه من كل مكان، وأنهى الإجابة التي قالها وهو يحني رأسه يمينًا ويسارًا. أما تلك الإجابة التي جعلت الجميع يفكر بشكل جاد، فكانت تقريبًا كما يلي:

-هل يمكن العيش في عالمين في نفس الوقت؟ ممكن، وغير ممكن. هل ممكن أن يخفق القلب في نفس الوقت داخل الحب، وكذلك بحزن شديد؟ يمكن أن يخفق ويمكن ألا يخفق. تسألين هل من الممكن أن يحب الإنسان شخصين في نفس الوقت، أم لا؟! لم لا؟ إن كان الأمر بالنسبة للحب، فيمكن ذلك. ولكن هناك أمرًا ما. ماذا نطلق على النساء اللاتي تلتقين في آن واحد مع شخصين أو أكثر؟

نطلق عليها "وقحة". ومن ناحية أخرى، هل يمكن أن نطلق "وقحة" على المرأة التي تلتقي مع رجل، ثم بعد ذلك مع آخر؟ لا يمكن! من الممكن أن تلتقي امرأة طيلة حياتها مع شخصين، ولكن في نفس الوقت. هذه تسمى "وقحة". ومن الممكن أن تلتقي طيلة حياتها مع مائة شخص، ولكن عقب بعضهم البعض أي ليس في الوقت ذاته. وهذا شيء آخر. ما القلب؟ القلب طائر. يحط من غصن إلى غصن. ولكن في البداية يكون فوق غصن، ثم يحط على آخر. ومستحيل أن يكون على غصنين في ذات الوقت. هل تعرفون ما الأمر الصعب؟ هو أن هناك قلوبًا تعتقد أنها كلما حطت فوق غصن تنسى الغصن الذي سبق، وبهذا تظن أنها تستريح في النهاية، ولكن ليس الأمر كذلك. هذه قلوب حائرة.

حل الصمت على الحجرة. ثم انتزعت عبارة "شكرًا، يا أستاذ "أحمد" من أعماق قلب أحدهم. وكأنها استُلت مع شوكة سوداء من ذلك القلب.

لم يكن الأمر على ما يرام هذه المرة. لم يُسعد الدور الذي يقوم به الأستاذ "أحمد" بشكل طبيعي، كالمعتاد، الموجودين بالحجرة. اتخذ الجميع ما قيل في

"مسرح الغرفة" مأخذ الجد، بدأوا يقلبون الأمر في أذهانهم. أما العجيب في الموضوع أن السيدة "سلجان" شعرت بخجل شديد، وذهبت في خيبة أمل دون أن تسلم على أحد. لقد لاحظ الجميع هذا، وأخذ بعضهم يرمق " قانطورالي" خلسة. أما هو فلم يستدر وينظر حتى وراء الفتاة. ذهبت "سميرة" ووضعت جبينها على النافذة الوحيدة الخالية من الستائر الموجودة بالحجرة، وتنفست، فغشي بخار نفسها الحار النافذة:

-الثلج يتساقط ...

في اليوم التالي، لم ير أحد الأستاذ "أحمد" في العمل. ذكر أحدهم أنه رآه في الصباح الباكر وهو يحتسي الشاي في الهواء الطلق مع رجل وامرأة في مقهى الحديقة الموجودة في الناحية الأخرى للعمل. لقد حولهم الثلج الذي ينزل بشدة إلى ثلاثة تماثيل ضخمة. بعد ذلك لم ير أحد الأستاذ "أحمد" بعد ذلك. فكما ظهر الأستاذ "أحمد" هنا فجأة، اختفى بالطريقة نفسها في يوم من الأيام.

كان الخط يبتعد بسرعة فائقة عن وجه الأرض كالبساط السحري. كان فوق هذا الخط امرأة ورجلان. كان أحد الرجلين والمرأة ينظران إلى نفس الاتجاه – الاتجاه الذي يسير نحوه الخط. أما الرجل الثاني فكان لا يستطيع أن يصرف نظره عن الاتجاه المعاكس. كان يسلط نظراته نحو المكان الذي جاء منه. كان هناك نجم يتحول إلى نقطة مضيئة منكمشًا كلما ذهبوا.

في النهاية، انكمش بشدة هذا النجم حتى أصبح في حجم نقطة الضوء التي كانت تسقط على خشبة "مسرح الغرفة" قبل ذلك. أصبحت نقطة الضوء بعيدة جدًا، وفجأة اختفت هذه النقطة، وصرف الرجل نظره عنها، وبدأ هو الآخر ينظر إلى الاتجاه الذي ينظر إليه رفيقا الطريق.

(١٥)

قصة " أجواء بلا مطر"



الكاتب/ صداي بوداقلى

(١٩٥٥)

كاتب ومترجم، وعضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام(١٩٨١م). له العديد من الكتب منها "الفوز" (١٩٨٤م)، و"الصدع" (١٩٩٠م) و"حديث وسط الطريق" (٢٠١٥م). حصل على جائزة الاتحاد السوفيتي التي تحمل اسم "ماكسيم جوركي" عن كتاب "النصر" في موسكو. حصل على جائزة مجلة "تداليا" الأسبوعية التي تصدر في موسكو. كما فاز بجائزة "أفضل قصة قصيرة للعام" بمجلة "دروجبا نارودوف" في عام (١٩٨١م). وفاز بجائزة "الكلمة الذهبية" بوزارة الثقافة الأذربيجانية عام (٢٠٠٩م).

قصة " أجواء بلا مطر"

للكاتب / صباحي بوحاقل

خرج أمس من المرحاض وفكر وهو يربط حزامه، ربما يقتل نفسه.

أصبح الجو باردًا فجأة، ناموا وأصبحوا، فلم يكن هناك أي أثر لجو الأمس الخانق؛ حيث يهطل المطر وتهب الرياح الباردة، ويرتدي الناس الملابس الثقيلة. ذكّرته زوجته وسط صوت الأواني وهي تغسلها أن اليوم هو الثاني والعشرون من سبتمبر أي إن الخريف قد حل. وأصابته الدهشة من حال الطبيعة وهو ينظر إلى المدينة وإلى الناس الذين تغير حالهم في يوم واحد فقط.

ولكن لم تستمر دهشته كثيرًا، حيث غشته بعض الهموم الصغيرة، فاعتل مزاجه، كان يجب عليه أن يرتدي حذاءه بسرعة، وينظف معطفه، كان عليه أن يشتري بعض الأشياء لزوجته وطفله.

لم يتحمل هذا القلق كثيرًا، ظل على عادته من خلال الخبرة التي اكتسبها على مر السنين بالتغلب على الصعاب. بالفعل لا يستحق أن يقلق أو أن يُعكر صفو مزاجه، سوف يقضي الخريف، وكذلك الشتاء بشكل ما، وسوف ينسى كل المتاعب والهموم التي عانى منها، بمجرد أن يأتي الربيع، والحمد لله هو ينسى هذا تدريجيًا.

تلاشى تمامًا الشعور بالحرارة عقب هطول المطر الذي أفقده الرغبة في الذهاب إلى الشاطئ الذي لم يذهب إليه بعد، وأخذ يؤجله طيلة العام من يوم إلى يوم. كان الجو خاليا من الأمطار، مشمسا، كما يقول الشعراء "الخريف الذهبي"،

هدأ الجو وكأنه أصبح نقيًا، والآن على الأقل كان يستطيع أن يستنشق الهواء بملء صدره. لسبب ما كانت مثل هذه الأيام الخريفية المشمسة تذكره دائمًا بالربيع.

كان يشعر برائحة دخان يأتيه من مكان ما، كان إحساسًا لا يعرف اسمه يختلط برائحة الدخان هذا، ويُذكره بعيد النيروز وبطفولته. ربما "التذكر" كلمة كاذبة أيضًا، لأنه كان يتذكر سحر الماضي للحظة واحدة فقط، ولا يجد الفرصة لتذكر أي شيء آخر، كانت سنوات الطفولة والأحاسيس التي يشعر بها، وفرحه وألمه يجتمعون في تلك اللحظة الواحدة. لهذا كان لا يستطيع أن يفهم في هذه اللحظة ماذا يحدث له، ولماذا يتأثر ويشعر بالرغبة في البكاء بهذا الشكل، هل الرغبة في البكاء من الألم، أم من الفرح؟

كانت الشقق الموجودة في هذا المبنى، المكون من طابقين والذي يترنح كالجسور المعلقة عندما يسير فيه شخص ما، بها فناء عام ومرحاض عام وشُرف ضيقة ملحقة بالطابق العلوي ومنفصلة عن بعضها البعض بحواجز خشبية. كانت هذه الشقق تشبه عش العصافير. كان أي صوت بسيط يزعج الجميع، كانت الأصوات والأحاديث تنتقل بين الشقق، وتلوكها الألسنة، وتنتقل بين الشقق وتتغير لدرجة أن صاحب الموضوع يكاد لا يعرفه.

لهذا السبب الجميع في هذا المنزل مجبر أن يعيش في ود، وأن يخفض صوته ويكتم غيظه، حتى إن الناظر من الخارج يعتقد أن جميع من في هذا المبنى يعيشون في سعادة. وعلى أية حال، كان يريد أن يكون الأمر هكذا، لأنه عندما يتعمق في الأمر يجد شيئًا ما، وبعد ذلك كان لا يستطيع أن يهرب مما وجد، ويفقد راحته. ولكن السيدة "خيري" لم تدع له مكانًا للهروب. كانت السيدة "خيري" تعيش في الناحية الأخرى من جدار حجرته، وقلبت عليه ليله ونهاره، فهي تحدث نفسها دائمًا.

وكانت عندما لا تتكلم، يُسمع نَفَسُها، وكأن مُنفاخًا يعمل، أو كــأن الريــاح تهب. كانت عبارة عن كومة لحم على عظم. نسيت نفسها، وحاضرها وماضــيها، واسم أطفالها الأحياء أو الأموات، وإحسان أو إساءة الناس إليهــا. كانــت تــضع الطعام أمامها وتسب وتلعن ابنتها، كانت تقول لها: إنهــا لا تقــدم لهــا الطعــام، ولا تعتني بها وكانت تتمنى لنفسها الموت. ولكن عندما كانوا يُحمونها، كانت تترنح ولا تستطيع أن تتمالك نفسها، وتبكي، تظن أنها في مكان الغُسل، وأنهم سيغسلونها ويكفنونها.

لم تكن لهذه السيدة أية علاقة به، لم تكن تمت له بصلة. وقد كــررت هــذا كثيرًا. خلاصة الأمر، أنها كانت لا تتصالح حتى مع نفسها، كان الأنين الموجــود في الناحية الأخرى من جدار حجرته يفسد عليه حياته. في الوقــت الــذي يخلــو منزلها من الناس، كان ينادي عليها ويسألها عن حالها أو يرسل لها زوجته أو أحد أولاده، وإذا لزم الأمر، يستدعي لها الطبيب ويحضر لها العلاج.

كان ينصت لشكواهم التي لا تنتهي بسعة صدر... وكان يفكر في كل هــذا. أحسن لكثير من الناس، وساعدهم في وقت الشدة. لذلك عندما يــرى مــن هــؤلاء الناس الجفاء أو عدم الاهتمام أو الفظاظة، يحترق ويتأثر كثيرًا.

بدأ في الآونة الأخيرة في النظر إلى المرآة باستمرار. ربمــا كــان عمــره يتناقص؛ شعره يتجعد، ويشتعل شيبًا هنا وهناك، وتكبر ملامح وجهــه، وتُــصاب الأسنان بالتسوس. ربما هناك بعض الأمراض التي لم يصب بها بعد، لا زالت هذه الأمراض قادمة، تنخر هذه الأمراض في مكان ما في جسده، فجأة سيستيقظ، يجده جاهزًا لاستقبال الروماتيزم، والسكر، والربو، ومرض القلب ....

كانت المشكلة أنه كلما رأى في المرآة ملامح وجهه المتغيرة يطير عقلــه، وبسبب هذه التغيرات كان يشعر بالخجل مما يعانيه. ماذا لو تــصالح مــع نفــسه وأحاسيسه. حقًا، لم تعد مشاعره تتحرك كسابق عهدها وتجعله يشعر بالحمية، فقــد

أصابها الوهن، وانطفأت حدتها بعض الشيء. كان يحاول أن يتمالك نفسه شيئًا فشيئًا. وكان بقدر الاستطاعة لا يزج بنفسه في خضم الصراعات والاضطرابات، كان يسير في مسارات مألوفة فقط.

اختبر في حياته أيضًا التهور والتسرع، وسهر الليالي، حدث كل هذا منذ فترة. كان يتعجل ليكبر بسرعة، وينطلق، ويكتسب أصدقاء، ويتعرف على امرأة، ويتزوج، ويُنجب، ويعرف كيفية خيانة المرأة، ويَغار ويُغار عليه، بسرعة... بسرعة .... مر عليه كل هذا، وفجأة عرف أنه من الممكن ألا يتسرع أو يتعجل، فالأحاسيس التي يشعر بها تتعاقب وتتكرر، ويستطيع أيضًا أن يتمدد في مكانه حالمًا، ويتخيل أشياءً أكثر وأكثر من هذا.

ربما أصبح الآن لا يهتم بالقدر الكافي باللقاء مع "سلفي" بسبب ما يتخيله.

عندما كانت تتاح له الفرصة أو يجد ذريعة للقائها يفرح. ولكن بعد ذلك، يسب نفسه، كان يسعد مدة الساعتين أو الثلاث التي يقضيها في الحجرة التي كان يأخذ مفتاحها من أحد أصدقائه بسيف الحياء. وكان يدعو الله أن يجعل له نصيبًا من "سلفي".

. كانت بداية معرفته بـ "سلفي" في الحافلة. عندما كان يصطحب الطفل في الصباح الباكر إلى روضة الأطفال، دائما ما يتعرض للزحام. وفي يوم من الأيام، رفعت فتاة جميلة أنيقة سمراء الطفل، وأجلسته على حجرها. حدث هذا مرة، مرتين، ثلاث مرات، وبعد ذلك اعتادا على هذه اللقاءات المتكررة. كانت الفتاة سعيدة لذهاب الطفل لها، وجلوسه على حجرها هادئًا؛ كانت تتحدث إليه، وتمسح على رأسه، حتى إنها أصبحت تضع في حقيبة اليد الحلوة والفطائر الصغيرة من أجله. عندما تقابلا لأول مرة كان الوقت شتاءً؛ أي معطف، وغطاء رأس، وكوفية حمراء.

مضى الشتاء، وحل الربيع، وظهرت نعومة شعر "سلفي" الحريري، ورشاقتها، ونحافة رقبتها. كانت "سلفي" تهتم بأناقتها وبزينتها كثيرًا، وكأنها كانت تأتي لمقابلته بشكل خاص، كانت تبرز شيئًا ما في زينتها حتى تبدو جميلة أو تلفت الأنظار في حجرة مزينة. أحيانًا كانا لا يتقابلان – فكانت "سلفي" تغضب، أحيانًا يكون وحده، فتظل "سلفي" قلقة. من حين لآخر عندما تداعب الطفل، كانت تغوص في التفكير فجأة، ويتغير وجهها وتشعر بغصة.

كان يفطن لسبب هذه الغصة، كان يعرف ما يجول بخاطر "سلفي" – ليتها هي التي أنجبت هذا الطفل .. كانا آنذاك سيصطحبان الطفل سويا إلى روضة الأطفال، ويحضرانه منها، ليتها تحطم السد الذي يحول بينهما الآن، وتتحدث معه، وتلمس ذراعه بحجة أن تسأله عن شيء ما، وتبتسم في وجهه دون أن تخجل من أحد. لم يترك هو "سلفي" في الانتظار طويلاً...

من الجيد أن "سلفي" كانت لا تضايقه، ولا تعكر صفو حياته، ولا تقلبه رأسًا على عقب. وكان هو الآخر لا يلقن "سلفي" درسًا في الأخلاق، ولا يسعى أن يقول لها: إن الرجل الذي عنده زوجة وأولاد ليس له نصيب من فتاة شابة، ولا يسعى أن يُعيدها إلى رشدها. على أية حال، سوف يأتي يوم ما ويفترقان، سوف يحدث هذا عاجلاً أو آجلاً، إما فجأة، وإما تدريجيًا. فالحياة ذاتها مؤقتة. الروماتيزم، مرض القلب، الربو... أو حادث سيارة.

ذات يوم، كانت زوجته تشتكي إليه، كانت تقول، ماذا سيحدث، لو ذات مرة يبتسم لنا الحظ، ونحصل على شيء، أو نفوز بسيارة أو شيء من هذا القبيل. حقًا، الحظ لا يبتسم لهم كي يفوزوا بسيارة أو شيء ما، ولكن كم شخصًا تدهسه سيارة كل يوم أو يغرق في النهر، أو يتعثر فيسقط من على السلم. فهؤلاء أيضًا مثلنا لم يفوزوا بشيء. الحمد لله على هذا.

كان من حين لآخر عندما يحزن منها أو لا يذهب للقائها أو حتى مجرد أن يشتاق إليها يصبح كطائر، يطير ويحط على نافذة "سلفي". كان يريد أن يرى "سلفي" التي تبعد عنه خمس خطوات على الجانب الآخر، ويرى كيف تنظر، وتبتسم، وتتدلل على شخص ما، أو تحزن من أي أحد، كان لا يستطيع أن يُقنع نفسه أن هذه الفتاة ذات الابتسامة الغريبة التي تطوف وسط رجال غرباء ملك له، فيتعكر مزاجه بعض الشيء، ويتضايق، ويُوبخ نفسه بعض الشيء.

كانت حجرة "سلفي" صغيرة للغاية. علقت مرآة ضخمة في مدخل البيت. كانت "سلفي" تمشط شعرها وتتزين أمام تلك المرآة. وعندما كانت تنزل إلى فناء البيت أو تذهب للمتجر لشراء شيء ما، كانت تنظر للمرآة بسرعة. لو تزينت المرأة، هذا يعني أنها تريد أن تلفت الأنظار ويُعجب بها الآخرون، وتُحب. ولكن أغلب الرجال سُذّج. يعتقدون أنهم لو أبرزوا أنفسهم، سوف تغضب منهم المرأة، وتفكر فيهم بشكل سيئ. ولكن لا توجد امرأة تغضب عندما تشعر أنه مرغوب فيها، حتى وإن أظهرت نفسها غاضبة، فلا تغضب. هذه أيضًا من الحقائق التي تُنسى كثيرًا.

كانت "سلفي" وحيدة والديها ماتت أختها الكبرى وهي في سن الثالثة من عمرها. ذهب الأقارب والأخوة إلى المرعى لتناول الطعام والشراب، وانشغلوا، وفجأة رأوا أن الطفلة غير موجودة. لم يتركوا مكانًا لم يبحثوا فيه، وقلبوا الغابة رأسًا على عقب بحثًا عن الطفلة، فلم يجدوها مطلقًا. أخذت أختها تلطم على وجهها وقصت ما رأته في منامها: رأيتُ أننا نرحل، وسقط من السيارة حمل صغير، فصرختُ، أعميتم، ألا ترون أن الحمل سقط، فتحضرونه...

وجدوا الطفلة في الصباح، كانت في مكان بعيدٍ بعض الشيء عن المكان الذي كانوا قد أقاموا فيه مائدة الطعام. عندما انشغلوا بالطعام وإعداده، ذهبت الطفلة

ونامت وسط الأشجار. لذلك لم تسمع صوت من يبحث عنها. كانوا يقولون إن الأرض انشقت وابتلعت الطفلة...

كان هذا الحادث لا يغيب عن ذاكرة تلك الفتاة، ولا تنساه. كيف لم يعثروا عليها؟ ألم يدركوا أن طفلة في الثالثة من عمرها لا يمكن أن تذهب بعيدًا؛ كيف غلبوا قلبهم وعادوا إلى المنزل؟ في النهاية لم تتحمل، استرجعت في خيالها ذلك العام، وذلك اليوم، وفي ظلمة الليل، ذهبت إلى تلك الغابة، ووجدت الطفل الذي انفطر قلبه من شدة البكاء، فضمته إلى صدرها، وقبلته وداعبته، وأخرجته من الغابة، وذهبت به إلى والديه اللذين كانا في شدة الحزن.

كنت تلك الطفلة هي "سلفي". كانت هي لا تعرف هذا الأمر، ولكن بسببها كان الجميع مستريحًا في منزله، وكانوا يتذكرون هذا الحادث بهدوء من أجلها. لم يقولوا لـ "سلفي" النهاية التي أراحت قلبهم، لأنهم سواء قالوا أو لم يقولوا لا فرق. المهم أن الطفلة عندما كانت تصرخ وتنادي على أمها في الغابة وتنبش الأرض، ظهر أحد عباد الله ولم يتركها، حتى لا يُضف عذابًا آخر فوق عذاب هذه الدنيا المؤلمة.

يرغب الجميع في هذه الدنيا أن يبعد عن نفسه الأذى، وليجد لنفسه راحة بأي شكل من الأشكال. فالعيش أمر صعب حقًا. لقد وجدوا كل ما فكروا فيه، وماذا بقي لم يجدوه أو يخترعوه؛ توجد المدرسة والمصنع والجيش والسجن، والاشتراكي والرأسمالي، وعلاوة على ذلك مجموعة من القوانين والأوامر، والمحظورات. وكأن جميعها من أجل ملأ بطن المخلوق الذي يُدعى الإنسان، أو بناء سقف يأويه من المطر، أو غطاء يدثر به صغاره.

علاوة على القوانين المسلم بها، ما رأيك في القوانين غير المكتوبة: لا تفعل هذا، لا تنظر لذلك، اكتم نفسك، أحب أباك وأمك، الشرف، الضمير، الغيرة، والآن وسط كل هذا، افهم، لا تتعثر، لا تقع، لا تُذل.

كانت أمه في الآونة الأخيرة تذكر له كثيرًا أحد العرافين. تذكره وتتعجب، وتسب من يشك في وجود الله. هذا الأمر كان منذ فترة طويلة، لم يكن قد ولد بعد. ولكن قال العرّاف لأمه، سوف تُنجبين ولدًا. والقبض على والده، وزواجه من أخرى بعد "رحلة طويلة في السجن"، والأوجاع الموجودة في ظهر أمه، وأن هذه الأوجاع سوف تستمر معها حتى الموت – كل هذا تحقق بالفعل. ورأى العرّاف من قبل المستقبل البعيد لابنها الكبير، وأكد عليها هذا مرتين أو ثلاث.

كان يؤمن بالمكتوب على الجبين. ولكن كان لا يستطيع أن يقول على أخيه الكبير أنه سعيد، حيث كان أخوه لينا جدًا، ويخاف من زوجته كالمذنبين، ويذهب إلى المطبخ في خفية وهم يتناولون الطعام ويشرب الخمر. ربما السعادة هي أن يكون الإنسان ثريًا، صحيح البدن، لديه ذرية، وذو عُمر مديد، مثل السيدة "خيري"، لقد عاشت عمرًا مديدًا، لدرجة أنها نسيت كل ما فات، ماضيها، حتى كل أحزانها، فما للإنسان الذي نسي ماضيه من أحزان، يأتي الموت له، فيخلصه من الأوجاع الموجودة في جسده.

المزيد من المحبة، والخير والشر، كيف يمكن فهم كل هذا، لأي سبب الفرح! – ربما جعل الله هؤلاء على حسب أمل كل إنسان. إذًا فلنفكر نحن بشكل آخر. فمثلاً، يا سيدة "سلفي"، فلنقل: إن الإنسان جاء للدنيا للمعاناة. فلنفكر بهذا الشكل، ولنرضى بمصيرنا. من يعلم، ربما عندما نرضى بمصيرنا، أبهذا نكون سعداء؟!

ولكن "سلفي" تخفي عنه سرًا، هكذا يعتقد، وكان يعتقد أيضًا أن العفاريت السود ليس عندها علم، كم تسبب لها من أذى ليلاً في تلك الحجرة الصغيرة جدًا. تتابع العفاريت "سلفي" وتريد أن تلقي في قلبها الرعب، وتجعلها تتخبط داخل الشبهات، حتى تبتعد عنه. وليس لديهم القدرة على هذا حتى الآن. محبته لـ"سلفي" جعلته يتعلق بها، وعندما ينتهي هذا الحب، سوف تأخذ العفاريت "سلفي" منه، وتذهب بها خلف الجبال السبع.

لذلك عندما يشعر من "سلفي" بالجفاء، سرعان ما يُعدل من نفسه ويتحول إلى فتى حساس، حسن الطبع، يضحي من أجل محبوبته. ربما فقدان "سلفي" لا يؤثر عليه كثيرًا، ولكن الهزيمة شيء سيئ. كان يخاف ألا يتحمل ألم الفراق، ولا سيما وهو في هذه السن. كما كان يريد أيضًا أن يختبر نفسه هل لديه القدرة على مجابهة العفاريت، هل هو لازال قادرًا على عمل شيء!

مستحيل ألا تشعر زوجته بما يعتريه من نشوة مؤقتة، ربما لا تفكر في شيء آخر، تعتقد أن سبب هذه النشوة الجو الجيد لليوم أو من الطعام اللذيذ الذي طهته له.

عندما يكون مزاجه معتلا، يجتهد أن يرتدي جيدًا، ويحلق ذقنه، ويضع العطر، ويجعل على شفتيه الابتسامة. كان يقدر على رسم الابتسامة بشكل جيد. أحيانًا حتى ولو لم يتكلم مطلقًا، يبتسم. في المنزل، في العمل في الطريق. كان الجميع ممتنًا منه. لأنه كان يعرف نقطة ضعف الجميع، ويجتهد ألا يقترب منها. وكان يعرف أيضًا أنهم من الممكن أن يحبوه أكثر، لو كان ثريًا، كانت أسرته في المنزل تهتم به وترعاه أكثر من ذلك، وكذلك أصدقاؤه وأقاربه. كانوا عندما يأتي يقفون له، ويخلعون حذاءه، ويمسكون له المعطف، ويلبسونه إياه.

كان يرى ضوء تلك المحبة على وجه أطفاله. وكان لا ينتابه الضيق عندما لا يكونون هكذا دائمًا. لأن هذا أمر طبيعي. ولأنه كان يتفهم هذا ولا يتضايق، كان يحترم نفسه.

كانت زوجته تحب القطط، لذلك أحيانًا يكون مثل القطة.

(١٦)

قصة "الاحتضار"



الكاتبة/ آفاق مسعود

(١٩٥٧م)

كاتبة ومترجمة وكاتبة مسرح أذربيجانية شهيرة. حصلت على لقب "خادمة الفن القديرة". عضوة باتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام (١٩٨١م). لها عشرات الروايات والقصص القصيرة وكذلك المسرحيات المميزة والكتب مثل "في الدور الثالث" (١٩٧١م)، و"ليلة السبت" (١٩٨٤م)، و"الممر" (١٩٨٨م)، و"الوحيد" (١٩٩٢م)، و"الازدحام" (١٩٩٤م)، و"الحرية" (١٩٩٧م)، و"الكتابة" (٢٠٠٤م)، تم عرض مسرحياتها على مسارح أذربيجان عدة مرات. وقد ترجمت أعمالها إلى العديد من اللغات، منها اللغات الروسية، والإنجليزية، و"الألمانية"، والإسبانية"، و"العربية"، و"الفارسية"، و"التركية". حصلت على جائزة الأكاديمية الوطنية "هوماي". كما فازت بجائزة "خالدون طانير" من مؤسسة "توركصوى" عام ٢٠١٥م.

قصة "الاحتضار"

للكاتبة / أفاق مسعود

يُرى كالمعتاد من باب حجرة النوم المفتوح قليلاً لحافه ذا الغطاء الحريري، ومنضدة خشبية صغيرة منخفضة بجوار سريره، وعلى المنضدة كوب ماء يــشبه حوض أسماك صغير، ماؤه عكر بسبب عدم تغييره منذ فترة طويلة، وفــي قــاع الكوب يربض طاقم الأسنان يبدو كأنه هيكل عظمي لأحد الحيوانات المائية يــسبح في الماء.

شعر هذه المرة أيضًا بالقادم؛ فقد سمع حفيف المعطف الــذي خلعتــه عنــد الرواق، أو ربما أيضًا من رائحة العطر الذي وضعته منذ فترة. وفهمت أنه عرفها بحركات قدميه النحيفتين-التي أصابها الذبول من قلة الطعام في الأشهر الأخيــرة- تحت اللحاف، والتي كانت لا تظهر مطلقًا على وجه السرير.

شعر بزيارتي المرة الماضية بنفس الصورة في المكان الــذي يتمــدد فيــه وعيناه مغلقتان – دون أن يرفع رأسه من فوق الوسادة، ودون أن ينتصب ولو قليلا كالمعتاد، وينظر إلى الرواق الذي يمتد أمام الباب. في المرة الماضية عندما سرتُ على أطراف أصابعي في الحجرة حتى لا أوقظه، كان يتظــاهر بــالموت، وظــل يتململ مكانه في سكرات الموت حتى المساء، ولم يفتح عينيه حتــى ولــو لمــرة واحدة، إلى أن ذهبت إلى المنزل في حالة من البؤس والإرهاق من انتظار ي لــه

حتى يستيقظ. اتضح لي جليًا أنه يرغب من خلال هذه المشاهد "للاحتضار" المصطنعة أن يُرعبني ويبعدني عن هذا المنزل وعمن حوله، وبالرغم من ذلك، لم أدع نفسي لهذا الأمر، وكنتُ انتظر نهاية هذه المسرحية بفارغ الصبر.

كان يوجد هذه المرة رجلان غير الرجل المسن في حجرة نومه. ربما كانا من أقاربه قدما من القرية البعيدة.

كان شعر أحدهما يشبه القنفذ، والآخر فتى أحمر الوجنتين.

ما أن رآني الرجل حتى قال مبتهجًا وكأنه رأى شخصًا يعرفه منذ مائة عام:

-حسنًا أنك جئت، أيتها الفتاة، تغير حاله منذ فترة!!

ربما ساءت حالةُ الرجل المسن هذه المرة بالفعل. تدلت أنفه لأسفل مثل "الخطّاف" واصفر لونه، وغاصت عيناه في محجريهما العميقين السوداوين. وكأن نفسه لا يخرج. وكان يبدو من فمه شبه المفتوح جزءا من حنكه الجاف الشاحب.

-يمكن أن يظل على هذه الحالة حتىَ الصباح.

قال الرجل هذا بصوت منخفض كأنه يُحدث نفسه هذه المرة، ثم التفت ونظر إلى الخارج من النافذة الموجودة بجواره.

اقتربتُ وانحنيتُ نحو الرجل المسن، ونظرتُ إلى وجهه بإمعان.

ربما هذه المرة يموت بالفعل ... كان يُسمع صوتًا مملوءا بالأنين يتسرب من مكان بعيد مع أعماق أنفاسه القصيرة التي كان يتنفسها بصعوبة...

سألت:

-أين سعيدة؟

قال الرجل:

-صعدت إلى الجار لتستدعي الطبيب. لقد قطعوا خط التليفون قبل ذلك. عندما تتعقد الأمور، يحدث مثل هذا...

أنهى الرجل كلامه ونظر إلى بفرح لسبب ما. كان الرجل المسن المرة الماضية في هذه الحال ولكن كان يستطيع الكلام. كان يهذي كالمصاب بالحمى، يتكلم بكلمات غير مترابطة وهو يلهث، ومن حين لآخر يصمت كأنه تعب من الاحتضار، ويتفقد الحجرة بعينية شبه المفتوحتين. وعندما تقع عيناه عليّ، يبدو كأنه يتيه ويفقد الوعي، وكأنه يتعمد أن يجعل نفسه داخل الأوهام الشريرة. كنا أثناء هذا الهذيان، نشاهد جسده ووجه يحوم ان بحركات معينة في أماكن أخرى ويتمتم بهمسات مع أحد ما، وأنه يتابع بصبر وتوتر أشياء غريبة وحركات مبهمة.

كنا أنا وسعيدة في مثل هذه الأوضاع لا نستطيع مطلقًا تحديد هل هو بالفعل يتعمد مثل هذه الحركات أم ليس في؟ حتى يُشتت تفكيرنا.

طبقًا لقول سعيدة، يدخل في تلك الحالة عندما يراني فقط. أما بعد ذهابي، فيرتد إليه وعيه، ويستند على الوسادة، وكأن شيئًا لم يكن، يتناول وجبة العشاء حساء الخضراوات صامتًا دون كلام.

في مثل هذه الأزمات التي تنتابه مرارًا وتكرارًا؛ أي عندما ينعدم نبضه، ويتحشرج نَفَسه، وبعد فحصه والكشف عليه عدة مرات من قبل الفريق الطبي الذي يُستدعى له وهو في هذه الحالة؛ وبعد أن يقول الفريق الطبي بارتياح غريب دون أن يرفعوا رؤوسهم عنه "إنكم تؤذونه، أصبح الآن ليس لدينا من الأمر شيء"، بعد كل هذا نفهم أنه يحتضر بالفعل. ولكن في الوقت نفسه التف هذا الرجل المسن الذي هو في حالة "احتضار" كالعقرب بذراع الطبيبة – امرأة شابة مملوءة الجسم متوسطة العمر – جلست على حافة سريره تلف الشريط الخاص بجهاز قياس الضغط على ذراعه، فأصابتنا الدهشة وهو يحتك بها وينظر لها بشهوة.

لم يكن لدّي أنا أو سعيدة أي شك في أننا سوف نشاهد حتى بعد موته هـذه الحركات الخبيثة وشهوته المرضية نحو النساء. منذ فترة قريبة، عندما كان طريح الفراش وعيناه مسلطتين نحو المجهول، وواضعًا يديه علـى بطنـه كالأغـصان الجافة، فجأة تحركت عيناه، فأيقنا أنه لا يزال هناك الكثير من الوقت علـى موتـه بسبب تسليط نظره على فخذي زوجة ابن الجيران التي جاءت لزيارته، ثم بعد فترة – حتى لا نلاحظ هذا – حوّل نظره بمهارة بالغة من فخذي المـرأة إلـى أرجـل منضدة الطعام و... قدم صوت من رواق المنزل. كان القادم هو سـعيدة. دخلـت وهي تلهث قائلة:

-لم أستطع التوصل لهم عن طريق الهاتف.

ثم نظرت إلي وسألتني دون أي سلام:

-ربما أصطحبه بالسيارة؟...

قلتُ:

-إلى أين؟...

قالت سعيدة:

-إلى الإسعاف...

ثم أشارت إلى والدها برأسها مضيفة:

-ألا ترين كيف أصبحت حالته ثانية؟

كان لون "سعيدة" شاحبًا. وتدلى أنفها مثل أنف الرجل المـسن، وغاصـت عيناها في حدقتيهما.

قال الرجل الشبيه بالقنفذ:

-ماذا لو جاء الطبيب، ماذا سيفعل أيتها الفتاة؟... الرجل يقترب من الآخرة. أنا أعرف سورة "يس". لا تخافين. لن أتركه وأذهب لأي مكان. من لهذا المسكين غيري؟... كان وحيد والديه. ماتت أمه وهو طفل. غرقت في النهر. تربى المسكين على يد زوجة الأب. أنا رفيق عمره الوحيد، وأنا قد جئتُ. سوف أواريه التراب، ثم أعود.

اهتزت أرضية الحجرة من هذا الكلام الذي قاله الرجل. أما خُيِّل إلينا هذا؟!..

بعد فترة قصيرة فهمتُ أنا و"سعيدة" أن الأنين الذي صدر من الرجل المسن طريح الفراش والذي يتمدد عليه كالتمثال هو الذي هز أرضية الحجرة، وذلك عندما صدر صوت سعال من الأنين يشبه محرك السيارة الخربة عند تشغيلها.

اختفت الفرحة التي كانت تعلو وجه ابن عمه بعد أنين الرجل المسن.

همست "سعيدة" بصوت خانق بجواري وعينيها على أبيها:

-لا يزال هناك أيام سيعيشها.

ربما الرجل المسن هو الآخر سمع الكلام الذي قالوه حول موته.

نهض ابن العم واقترب من السرير، وأخرج من جيبه قطعة من مرآة ربما أحضرها معه من القرية، ووضعها عند فم الرجل المسن، وتفقد سطحها ومسحها بطرف ذراع سترته، ثم أعادها ثانية إلى جيبه وقال:

-بقي القليل جدًا.

جلس في مكانه، وشبك ذراعيه على بطنه.

لم تقترب "سعيدة" من الرجل المسن، جلستْ بجواري، وركزت عينيها اللامعتين من الخوف على أبيها. يمكن ببساطة أن يتضح مدى معاناتها وشعورها

بالخوف الرهيب خلال الأيام الأخيرة من تغييرات وجهها الشاحب، وحركات عينيها السريعة غير المفهومة، ومن خلال أيضًا النبرات المرتعشة الموجودة بصوتها.

ابيضت عينا "سعيدة" بهذا الشكل من الأسبوع الماضي أي منذ اليوم الذي ارتعد فيه الرجل المسن من سؤالي المفاجئ وسقط الشاي المغلي عليه، كان يحتسي الشاي وهو جالس متكئ على الوسادة وكان لا يزال في وعيه، ومنذ ذلك اليوم بدأ نَفَسه في الاختناق وانتابه سعال حاد. وحينئذ كاد الرجل المسن أن يموت من هذا السعال الذي تمكن منه... اختنق نَفَسه، وركز عينيه اللامعتين إلى نقطة مجهولة، وسقطت رأسه من على الوسادة التي كان يستند عليها.

بدأت سكرات الموت للرجل المسن منذ أن علم أني أكتب رواية حول الفترات التي أعقبت الثورة. إلى هذا الوقت، كان يتجول داخل المنزل بخطى مريحة، وعندما رآني، يسأل عن أحوال من في المنزل وهو مسرور، يدعوني إلى شرب الشاي الذي يشربه والطعام الذي يأكله. وبدأ كل شيء منذ أن أخبرته "سعيدة" بشأني وما أكتبه، وقالت له إني أكتب رواية حول الفترة التي كان يشغل فيها وظيفته. لقد فهمتُ أنا و"سعيدة" أنه استقبل هذا الخبر كأنه حكم مفاجئ بالإعدام، فعلا وجهه عبوس وتغيرت ملامحه فجأة في المكان الذي يجلس فيه، وبدأ يظهر في وجهه شحوب يشبه ظل الخوف من الموت. تسمر الرجل المسن بوجهه الشاحب، ثم نهض وخرج من الحجرة بخطى ثقيلة. وسار في رواق المنزل ودخل الحمام، وأغلق الباب من الداخل، ولم يخرج من هناك حتى المساء، حتى سأمتُ من انتظاره وعدتُ إلى المنزل.

انحنيتُ نحو "سعيدة" وسألتُها ببطء حتى لا يسمع الرجل المسن:

-هل رأيت أحدًا يحتضر قبل ذلك؟

هزت رأسها دون أن تنظر إليّ بشكل يعلوه الندم لسبب ما. ثم تذكرنا الخالة خديجة "رحمها الله" قبل عام في هذه الحجرة وعلى السرير نفسه الذي يرقد عليه الرجل المسن وهي تجلس القرفصاء ليل نهار تنتظر موتها، وهي تُقبل على الموت بشجاعة.

كانت الخالة خديجة عندما تسير يهتز المبنى كله بسبب وقع خطواتها، وتختفي في لمح البصر الطيور والأطفال الموجودون في فناء المنزل من صوتها الأجش، كانت تسحق بضربة واحدة من كفها الضخم رأس الفئران الكبيرة التي كانت تصطادها بجوار المبنى. لقد تذكرنا "الخالة خديجة" حين ساء حالها قبل موتها بساعة وقولها بصوت رقيق يشبه فتاة شابة "إني أخاف يا بُنيتي، أخاف بشدة"، ونظرها إلى الأرض كالذي يشاهد القبر الذي سيدفن فيه بعد قليل ...

أتذكر حينئذ، كيف خفتُ أنا و"سعيدة" وشعرنا بسبب التعبيرات المجهولة التي كانت تعلو وجه "الخالة خديجة" بوجود نفق مظلم وضيق وخانق يقود إلى الموت الموجود في أحد أركان الحجرة وقريب جدًا...

كان هذا الإحساس مرعبًا للغاية يشبه خوف التقدم نحو ظلام أبدي وطريق لا رجعة فيه...

بعد وفاة "الخالة خديجة"، تذكرتُ مشهد احتضارها وهي تلوح بود إلى أشخاص مقربين لها غير ظاهرين كانت تراهم بجواري، وهي تنازع الموت كالغريق داخل سرير بحجرة الضيوف في منزلنا الذي كانت جميع نوافذه مفتوحة...

والذي قبض روح خالتي في ذلك اليوم هم هؤلاء الأشخاص المقربون لها التي كانت تلوح لهم... وشعرتُ بشكل دقيق كيف أن أقاربها الذين تلجأ إليهم خالتي بارتياح جميل يقتربون منها، وينظرون عن قرب إلى وجهها واقفين عند رأسها...

ورأيتُ بعيني كيف أن خالتي واجهت وهي في النزع الأخير أشخاصًا ما بعيون تلمع من الدهشة، وكيف فاضت روحها بين يد هؤلاء الأشخاص الذين تجمعوا حولها بارتياح...

* * *

قالت "سعيدة" بعد فترة، عندما كنا جالستين في المطبخ معًا ننظف الأرز لطعام العشاء:

-لقد أصيب بهذه الحالة بسبب ما تكتبينه.

حركتُ منكبي كالمذنبة:

-ماذا في هذا الأمر؟...

كان خوف الرجل المسن يصل لدرجة الموت، ومساعٍ حثيثة لإخفاء آثار أسرار ما بداخله يمكن أن تُفضح حتى ولو بعد موته ... يشير إلى أن الرواية التي أكتبها سوف تتطرق إلى قضايا جادة وسرية أكثر مما كنت أظن، وتشير إلى بُعد الأشياء التي حدثت في الماضي في سنوات القمع السوفيتي التي كان الرجل المسن يتولى منصبًا فيها، وإلى جرائمه التي لا تُغتفر وحتى الخالة خديجة لا تعلمها، وإلى أسرار خفية ترقى لمرتبة الجرائم لا يعلمها إلا هو.

لقد أنهى هذا الرجل تعليمه أيام الحرب العالمية الثانية، وأُرسل مباشرة إلى القرية، وترأس إحدى المزارع التعاونية الكبرى بقرية نائية وفقيرة لمجرد الخبرة التي اكتسبها أثناء الدراسة، ثم بعد ذلك تولى رئاسة مجلس المحافظة. لقد سمعتُ منذ أيام الطفولة من لسان "الخالة خديجة" كيف كان هذا الرجل يتجول على ظهر الحصان في طرق القرية الوعرة في تلك الفترة، والإشراف على حقول القمح، وإطلاقه النار على الفارين من خط الجبهة أينما وجدهم، أو تسليمهم إلى الإدارة العسكرية، ورعايته أسر الجنود، واهتمامه اهتمامًا خاصًّا بالأرامل الجميلات.

آنذاك زاد وتضاعف اهتمامي بهذا الرجل المسن بسبب شعوري أن هذه المرأة التي لا تخشى في الحق لومة لائم تتجنب في حديثها الإشارة إلى ماضي زوجها، حتى تطرقها إلى بعض الأمور كان يشعرك كأنها تسير فوق جرفٍ هار مخيف، وأنها تتجاوز الحديث عن بعض الأشياء بمهارة.

عندما طهينا الأرز وعدنا إلى الحجرة، كان ابن العم قد جلس عند مؤخرة السرير، جمع يديه عند صدره كالذي يقرأ كتابًا، ربما كان يقرأ في سره سورة يس.

نام الطفل في المكان الذي كان يجلس فيه على الكرسي الموجود أمام التلفاز الذي انخفض صوته.

كان الرجل المسن على حالته السابقة... كان وجهه يشبه آنذاك الوجه الغاضب للبطل المخيف في الأساطير الروسية الذي يسمى "قاشي"...

اقتربت من السرير ونظرتُ إلى وجهه عن قرب.

لقد تغير وجه الرجل المسن عن قبل بشكل غريب... تقلصت تجاعيد وجهه، وانكمش خداه كقطعة لحم ذاب دهنها في مقلاة ساخنة.

شعر بدخولنا إلى الحجرة، فبدأ يرفع ويخفض أصابعه شديدة النحافة ببطء كالذي يُمررها على أصابع البيانو، وبدأ كأنه يعطي إشارات غير مفهومة لشخص ما من خلال عمل الأشكال الغريبة في الجو من حين لآخر.

جلستُ أنا و"سعيدة" في مكانها السابق، للناظر من بعيد يجدها خلف المنضدة المواجهة للسرير، كانت يدي الرجل المسن الشاحبة تشبه عقارب الصحراء الرملية التي احترقت من الظمأ وتفحمت تحت الشمس الحارقة... لقد رأيتُ هذه "العقارب" أيضًا في المنام في إحدى الليالي... رغم أنني كنتُ أتابعها وفي يدي حذاء طويل داخل الحجرات شبه المظلمة لمدة طويلة، وانشغل بقتلها، لم أستطع قتل واحدة

منها. كانت جميع الحشرات سريعة الحركة تقفز من حائط إلى حائط ومن منضدة لمنضدة بقفزات طائرة طيلة المنام، وتهرب من هذه الناحية إلى تلك بقفزات تشبه شرارة التيار الكهربي، وتدخل الجحور والفتحات الموجودة بالأرضية، وتلتهم هناك شيئًا، بأفواهها التي لا تظهر...

بصفة عامة في الآونة الأخيرة، كنت أرى في أحلامي وقائع شبه مظلمة وغريبة حول الرجل المسن، وكان خوف غريب ينتابني (في أعماق أحلامي) بسبب انتظاره استيقاظي من النوم وهو ينهج، ووقوفه بجواري في المنام، وكذلك بسبب بحثه في جيبه بحركات بطيئة عن مستند مهم من بين القصاصات التي أخرجها من جيبه.

* * *

أحضرت "سعيدة" الشاي في أكواب كمثرية الشكل، ونظمته فوق المنضدة. ووضعت المربى[1] في الوسط، وجلست، وقالت بالطريقة نفسها مثل "الخالة خديجة":

-لقد طهيتُ الأرز لطعام العشاء.

كأن ابن العم سمع هذه الكلمة من "سعيدة" متأخرًا فأنهى دعاءه وسحب كرسيه نحو منضدة الغداء، وبعد أن ارتشف رشفة من الشاي قال:

-ماذا تعمل؟

ثم تناول المربى.

شربتُ الشاي دون مربى ولم يكن لدي شك في أن رائحة العفن الدائم بالحجرة طغى على المربى.

---

(١) من العادات في شرب الشاي للشعب الأذربيجاني وبعض شعوب آسيا الوسطى والقوقاز أكل المربى بجوار الشاي، فهم لا يشربون الشاي بالسكر، ولكن يشربونه من خلال أكل مختلف أنواع المربى. (المترجم)

. منذ فترة، كنت أشعر أن هذه الرائحة التي تشبه رائحة عفن مستنقع تنبع من الخادمة التي تأتي لرعاية الرجل المسن عندما تكون "سعيدة" في العمل بالـصباح، وكانت هذه الخادمة امرأة عجوز قصيرة القامة صغيرة العينين إحدى أقارب أسـرة "سعيدة" من بعيد. كان حال "سعيدة" يتحول بسبب هذه الرائحة. رغم أنهـا كانـت بمجرد أن تدخل المنزل، تفتح الأبواب والنوافذ، وتُجدد هواء الحجرات، وتـضغط على زر معطر الجو بلا توقف، وتُنثر الرائحة في جميع الأرجاء، كانت الرطوبـة المختلطة برائحة العفن تعلق بالجو مثل البخار، ولمدة ثانية يقضي عليها المعطر ثم تعود كما كانت.

كنتُ أحيانًا أشعر أن هذه الرائحة تتعلق بجميع أرجاء الغرف مـن أعلاهـا لأسفلها مثل الستائر الشفافة، كما كنتُ أحس لسبب ما أنني كلما عبرتُ من حجـرة إلى أخرى، كأنني أعبر بين ألسنة نار جافة.

وطبقًا لما كانت تقوله الخادمة، كانت تُجدد جو الحجرات عدة مرات خـلال اليوم، وأن النوافذ التي تطل على البحر، تُفتح على مصراعيها في الـصباح وفـي أوقات الظهيرة، ورغم أن الرياح القادمة من البحر مختلطة برائحة السمك وتمـلأ المنزل وتتخلل الحجرات، كانت لا تستطيع التغلب على رائحـة المـستنقع الـذي يتسرب من سرير الرجل المسن، وربما من روحه.

وإن كانت الخادمة لا تخدعنا. فهي تقول إن هذه الرائحة تتميز بلون خـاص بها، وذكرت أنها تحل على جميع أثاث المنزل مثل ندى الصباح وتغـشى جميـع الأرجاء "صُفرة" غريبة، وتقول ناهجة نهجة غريبة تمر وهـي يـدها علـى ورق الحائط الذي لا تذهب الصفرة من عليه بالغسيل والتنظيف:

-كان لون هذا الورق قبل ذلك أزرق فاتحا...

* * *

-كأن نَفَسه توقف.

قرّبت "سعيدة" وجهها الشاحب من وجه الرجل المسن وكانت تنظر إليه عن قرب شديد...

كان فم الرجل المسن شبه المفتوح يبدو للناظر من بعيد مثل مدخل مغارة أسطورية تُوصل إلى أعماق قديمة ومخيفة - مدخل منطقة غامضة جفت طرقها بسبب أنه لم تطأها قدم منذ زمن بعيد...

قال ابن العم:

-لا زال يتنفس...

ثم شرب كوب الشاي الثاني برشفة واحدة متصلة، ووضع الكوب على الصحن بشكل معكوس. كان آنذاك يأكل بواقي المربى بالملعقة. وهو يلعق فمه بلسانه وينظر بنهم إلى ملفات الرجل المسن القديمة "التي وضعت على دولاب الكتب، ومن حين لآخر كان يقول بصوت منخفض وهو متأثر:

-يا ابن عمي العَالِم، يا أخي الكادح...

أما أنا فكنتُ أعرف أن هذه الملفات تملأ الغرف الأخرى، حيث كانت "الخالة خديجة" تصعد فوق الكرسي ببدنها الثقيل والمريض طيلة العام وتمسح الأتربة من عليها. واحدًا واحدًا... ربما كان في هذا المنزل المكون من ثلاث حجرات مقدار حمولة سيارة نقل من الملفات. كانت "الخالة خديجة" من أجل التخلص من هذه الكومة من الملفات المملوءة بالأتربة، ترمي في سلة المهملات سرًّا الملفات اثنين اثنين أو واحدًا واحدًا عندما كان الرجل المسن خارج المنزل، ولدي علم أنها عوقبت مرات عديدة بسبب هذا الفعل. كان الرجل المسن لا ينفق على البيت بالأشهر جراء الملفات التي أُلقيت في سلة المهملات دون إذن، وكذلك لا يكلم زوجته لمدة أشهر. كان قلب الرجل المسن لا يهدأ حتى ولو تم استخراج

الملفات من سلة المهملات وتنظيفها وإعادتها إلى مكانها، وكـذلك يظـل عـابس الوجه...

كانت "الخالة خديجة" تقول:

-يا بنيتي أنه يظل يكتب ليل نهار.

كانت تقول هذا كأنها مذنبة، كأن هناك أمرًا مريبًا، وكلما رددت ذلك كـان الرجل المسن يقول:

-هذا هو مصدر رزقكم، بعد أن أموت سوف تبيعون هذه الملفات وتنفقـون على البيت...

... في الواقع، لقد شاهدتُ أيضًا على مدار سنوات طوال عملية تكون هـذه الملفات بسبب كوننا جيرانا وأنني صديقة لـ "سعيدة". منذ اليوم الذي أحيـل فيـه الرجل المسن إلى التقاعد، كنت أشاهده يستيقظ في الصباح الباكر بـدافع الحفـاظ على الذات، ويحلق ذقنه في الحمام، ويرتدي بدلة العمل، ويضع رابطة العنق على القميص الأبيض المرتب، ويجلس خلف طاولة الكتابة، ويكتب بشغف غريب شـيئًا ما، ويظل من الصباح إلى المساء كما كان يفعل أثناء ذهابه للعمل، ويتابع التلفـاز الموجود في أحد الأركان بإحدى عينيه، وينصت إلى المذياع الـصغير الموجـود علي الطاولة. ومنذ ذلك الوقت، تولد لدي شغف شديد بهذه الملفات التي تـضاعفت من عام لآخر وازدادت حتى طمت جميع أرجاء المنزل. في الواقع، ربمـا الـذي أوحى إلي وحثني عل فكرة كتابة رواية حول الفترات التي عاشها هذا الرجل أكوام الكتابات المحفوظة داخل هذه الملفات المملوءة بالأسرار، وكـذلك أفكـار الرجـل المسن وذكرياته...

طبقًا لما قالته "سعيدة" الكتابات المحفوظة في هذه الملفات كانت مواد موثقـة تتحدث عن إحدى المراحل التاريخية للدولة.

أما بالنسبة لي، فأعتقد لسبب ما أن الرجل المسن يجمع في هذه الملفات ذكرياته السرية التي كتبها عن حياته، فقد شعرتُ أن هذا الرجل الذي يسكن في المنزل المجاور لنا منذ طفولتي يعيش مع هذه الملفات السرية أكثر من عائلته، وأنه يختبئ فيها كالمسترخ في عش الراحة، فزاد اهتمامي أكثر بهذا الرجل المسن.

وضعت "سعيدة" رأسها بين ذراعيها، ربما غاصت في النوم. واسترخى ابن العم على ظهر الكرسي في المكان الذي يجلس فيه، وغلبه النعاس دون أن يفقد توازنه.

بسبب هذا الصمت الغريب الذي حل بالمكان، أو إ حساس الحرية الغريب الذي شعرتُ به فجأة وسط النائمين من حولي، خطرت ببالي أنه آن الأوان للحصول على هذه الملفات السرية التي حُرم لمسها منذ سنوات طويلة. كنتُ أود أنهض بهذه الفكرة واتجه نحو الملفات المجمعة على أرفف دولاب الحائط الموجود في مقدمة الحجرة ...

انطلق كالرصاص في وسط هدوء الغرفة الغريب صوت الرجل المسن الذي بدأ يهذي بهذيان مجنون قائلاً:

-... هو، انظر له... أقول... الوغد! اقبضوا عليه!... أسرعوا!...

انتفض النائمون، وأنا أيضًا...

رغم أن عينى الرجل المسن كانتا مغلقتين، كان يُحس أن سواد عينيه يلمع تحت تجاعيد جفن العين، وأنه يصوبها بغضب نحو شيء ما وهي مغلقة ...

قال ابن العم وهو يرمش بعينيه التي احمرت من الأرق:

-بدأت ...

أسود تمامًا وجه سعيدة الذي هو في الأصل شاحب اللون:

-ماذا بدأ؟

أشار ابن العم برأسه نحو الرجل المسن قائلاً:

-عادة تبدأ هكذا، بقي القليل ... هو على عتبة الموت.

شعرت بضيق شديد ... وأردت أن أسأل هذا الرجل متى وأين اشتغل "مغسل للموتى"، ولكن لم أسأل، وانحنيتُ نحو "سعيدة":

-لقد سأمنا من أحاديث وهذيان هذا...

تأوه الرجل المسن هذه المرة من أعماق قلبه... وفتح بصعوبة بالغة جفون عينيه المنكمشة المائلة للسواد التي تشبه غطاء عين الجمل... وبدأ سواد عينيه الذي اصفر وقد أصبح ذابلا منذ زمن بعيد. كان ينظر ثانيًا إلى أحد ما... ويصرخ على أحد وهو ينهج، كأنه يحل مسألة ما...

-لقد بينتُ لك المرة الماضية أيها الفاشل اذهب، نادوا على "غفار" نادوه وليأت وليفتحه...

كان الرجل المسن يتحدث بهذا بلهجة غريبة متلجلجة تشبه حديث الأجانب.

عندما سمع اسم "غفار" تحرك في مكانه قائلاً:

-آه!... ينادي على "غفار"...

ثم نظر بعينيه اللامعتين تارة إلى الرجل المسن، وتارة أخرى إلينا مواصلاً حديثه:

-ينادي على ابن عمنا "غفار"... مات العام قبل الماضي... إنه ينادي عليه. أي حضرة الموت. واصل الرجل المسن كلامه مختنقًا:

-نادى أيضًا على "خاصاي"... هو الوحيد الذي يعرف لغة هذا...

سألتُ بقلق:

-من "خاصاي"؟

قال ابن العم دون أن ينظر إلي مشيرًا بيده إلى مكان ما إلى الخلف:

-هو أيضًا أحد أقاربنا ...

ثم نظر إلى وجهي وأضاف بنبرة غريبة:

-وهو أيضًا في العالم الآخر.

شعرتُ بارتخاء في ركبتي من الخوف أو من القلق ... كانت الحجرة مملوءة بالموتى ... التفتُ من حولي وأنا في ذعر ... أم أن الرجل المسن وهو موجود في السرير الذي أمام عيني، وفي الوقت ذاته في مكان آخر

كان وسط الذين رحلوا عن هذه الدنيا، ويتجولون بأبدانهم الشفافة بيننا؟

ربما الأسرار التي أخفاها الرجل المسن عني وهو في سكرات الموت منذ عدة أشهر ترغب أن تنكشف من تلقاء نفسها...

قال الرجل المسن:

-... نعم... نعم...

كان الرجل المسن يحترق من الداخل لسبب ما، ويتذمر غاضبًا، وكانت حدقة عينه تطوف داخل عينيه كقذيفة إلكترونية موصلة بالتيار.

وواصل الرجل المسن:

-فكر أنت بهذا ... فكر كما تشاء...

اقتربتُ من السرير، ونظرتُ إلى وجه الرجل المسن عن قرب.

انكمشت حدقة عيني الرجل المسن بسبب احمرار داخلها، أو كأنهـا تحـت ضغط شيء ما، لقد ذابت وشحب لونها.

جلست "سعيدة" بجوار السرير ببطء، ووضعت يد والدها في يدها...

قال ابن العم:

-لا تجلسي هناك، يا بنيتي، إنه يموت، ربما تخافين.

ساء حال الرجل المسن تمامًا بعد هذا الكلام الذي قالـه ابـن عمـه. وأدار وجهه إلى الحائط، وبدأ يأن أنات غريبة تشبه صوت الكمان...

ارتعدت "سعيدة"، ووثبت على قدمها، وتأثرت وبكت بكاء مكتومًا، ثم حوّلت وجهها جانبًا، وذهبت إلى الحجرة الأخرى.

كان الرجل المسن يهذي ووجهه نحو الحائط:

-اذهبوا بهؤلاء الأناس من هنا... أخرجوا من هنا... أخرجـوا، أخرجـوا! ممنوع الوقوف هنا!... نظر ابن العم إلي، وأنا نظرت إليه ...

قال ابن العم:

-يهذي، يا بنيتي، لا تخافي، سوف يستغرق الأمر وقتًا.

سألته:

-يعني... ألا يزال يحتضر؟

طار صوابي من القلق ...

قال ابن العم بحسم وعينه على الرجل المسن:

بعد ذلك رفع رأسه، ونظر إلي أولاً بتعبير غريب به بهجة، ثم إلى الطفـل الذي كان قد نام مكانه أمام التلفاز قبل ذلك.

اقتربتُ من السرير وجلستُ على كرسي قريب، وانحنيتُ ونظرتُ عن قرب شديد إلى وجه الرجل المسن قائلةً:

-أصبحت مقدمة أنفه نحيفة، وشاحبة.

أصبحت أمي قبل موتها بساعة بهذا الشكل. كأن صاعقة ضــربت الرجــل المسن طريح الفراش المصوب وجهه نحو الحائط بسبب كلامي هذا... نام بــبطء على ظهره، وأدار وجهه إلي، وفتح جفون عينيه، وهمس بتأسف وهو ينظر داخل عيني قائلاً:

-ماذا تريدين مني يا بُنيتي؟...

وثبتُ على قدحي في دهشة... ونهض ابن العم أيضًا معي قائلاً:

-لا تخافي يا بُنيتي، يهذي، تحدث مثل هذه الأمور أثناء الاحتضار.

لا زالت عينا الرجل المسن غير الواضحة مسلطة علي... كانت تتسلل مــن أعماق هذه العينين ومضات مخيفة وصفراء تُشبه عواء ذئب يسمع من بعيد...

رغم أنني غيرتُ مكاني، ظلت عينا الرجل المسن مسلطة على المكان الذي كنتُ أجلس فيه من قبل ... ولم يمض كثيرًا حتى انطفأت. وخيم من جديد صــمت متوتر استمر كثيرًا.

لقد زاد من إهتمامي أكثر بهذه الملفات المحفوظة بعناية مثل الوثائق القيمــة لمنزل أو أكوام النقود، وألعاب الغميضة الغامضة هــذه التــي كــان يقــوم بهــا الرجل المسن.

طفتُ بنظري في الحجرة. سلط ابن العم بنظرات غامضة نظره نحو فــراغ مجهول. كانت "سعيدة" في الحجرة الأخرى.

جمعتُ شتات نفسي، ونهضتُ على قدمي... وذهبتُ نحو الملفات التي مُنع المساس بها منذ سنوات... مددتُ يدي وأخذتُ أحدها، وعدتُ إلى مكاني، وفتحت عقدة رباط الملف.

ما أن انحلت العقدة، تناثرت كومة الورق التي كانت مضغوطة داخل الملف الضيق منذ سنوات فوق المنضدة مثل مجموعة كروت ناعمة.

أخذت إحدى الصفحات وبدأت القراءة. كانت الكلمات والجمل المكتوبة. بحروف متعرجة بدايتها في أعلى الصفحة متجهة إلى وسطها تشبه سير فراشة جريحة غاصت قدمها في حبر أكثر منها كتابة.

قرأت بضع جمل وأنا أتهجى الحروف.

كان هذا عبارة عن نسخ غير منظم عشوائي للنصوص التي كانت ترد في نشرة الأخبار في فترة الخمسينيات والستينيات... كان من الواضح كسطوع الشمس أن الرجل المسن كان ينسخ هذه النصوص من الأخبار التي تقدم في التلفاز الذي كان يشتغل في ركن الحجرة أثناء سير العمل المصطنع الذي كان يقوم به أو التي تقدم في المذياع الذي يعمل ليل نهار في أحد أركان منضدة الكتابة، وذلك كله بغرض خداع نفسه طيلة أشهر وسنوات امتدت كالأمعاء الغليظة وهو مُحال للتقاعد...

كانت هذه النصوص مملوءة بمصطلحات تاريخية لتلك الحقبة من الزمان.

كانت معظم الصفحات تبدأ بالتالي:

"مساء الخير أيها السادة المشاهدون..."

تمالكتُ نفسي، وتصفحتُ الأوراق الأخرى أيضًا. كانت هذه الجمل المقفعة التي لا معنى لها تتحدث عن أعمال مؤتمرات الحزب الشيوعي السوفيتي، وعن نتيجة أعمال بذر البذور في الحقول، وعن مسابقات الاشتراكية وعن فوز أم لتسعة

أطفال في إحدى المسابقات الجماعية، وإلى آخره، تُذكر هذه الجملة أكثر من كونها نص مذيع، بهذيان ما قبل الموت لإنسان يحب الحياة حبًا جمًا...

كان مكتوبًا بوسط الصفحة في إحدى المستندات عبارة:

"يا ... شعرك جميل وملفوف..."، ومنحرفة لأسفل بطول الصفحة... وكان مكتوبًا تحت هذا السطر بأحرف تشبه ومضات شرارة كلمات: "... انهيت رقمك القياسي..."، أما على جانب الصفحة عبارة "... طيلة الطريق من الناحية السفلية لجبل عرفات..."، وبعدها عبارة "... الموت لك..."، ويكتب بعض الجمل والعبارات الأخرى التي لا علاقة لها ببعضها البعض...

لقد انشغلتُ بترتيب الأوراق، حتى فزعتُ على صوت الرجل المسن فجأة بصوت مملوءة بالحشرجة:

-ابتعد من هناك! لا تلمس هؤلاء ...!

كانت عين الرجل المسن مغلقة... لكن فهم أنني أعيره اهتمامًا شديدًا، فألان صوته قائلاً:

-... أتوسل إليكِ... لا دخل لكِ بهذا...

وأضاف وكأنه عاد إلى وعيه كالمستيقظ تمامًا:

-ماذا تريدين، يا بنيتي؟...

رأى أنني لا أرد، فساءت حالته قليلاً، رفع صوته وقال:

-ماذا تريدين مني؟...

-ثم بدأ ينهج ....

رغم أنني كنت أفهم لمن يوجه هذا "الهذيان"، كنتُ لا أعيره اهتمامًا. كنت أجمع المستندات التي كانت تجذب انتباهي في جانب منفصل، وأجمع الباقي داخل الملف وأضعه في مكانه السابق.

أصبح الرجل المسن لا ينظر إلى بعد ... ركز عينيه المملـوءتين بالتوسـل إلى السقف، ربما يتوسل إلى الله...

-لا تفعلي... ابتعدي عني ... لا تفعلي... لا تمسيها، اتركيني أستريح... لا تلمسي هؤلاء...

دل ابن العم رأسه لأسفل، ووضع على عينيه منديله الكبير الذي أخرجه من جيبه، وغاص في التفكير. تظاهرت بالتجاهل وعدم الفهم وسألتُ ابن العم:

-مع من يتكلم؟...

رفع ابن العم رأسه ونظر إلى وجهي كمدرس كثير المطالب قائلاً:

-يقتربون منه...

وظل يركز نظره في وجهي.

-من؟

قال الرجل:

-عدم معرفتك بمثل هذه الأشياء أفضل يا بنيتي. أنـتِ شـابة، ولا حاجـة لكِ بهذا.

وركز عينيه اللتين احمرتا من البكاء نحو الشارع المظلم والخالي من الناس والذي كان يبدو آنذاك من النافذة. نهضتُ على قدمي، وأخذتُ أيضًا بعض الملفات من فوق أرفف الكتب، وأحضرتهم ورتبتهم فوق المنضدة، وفككتُ عقـد الأربطـة المربوطة بها.

من الدهشة شعرتُ بوخر بارد بداية من ذراعي حتى أطراف أصابعي.

كانت هذه الملفات مثل الملفات السابقة...

كان بها جمل مقطعة صباح الخير، أيها السادة المستمعون..."، وتبدأ الجملة الأخرى من منتصف الصفحة"... مع سهول "سفيستيول" الثلجية.."

وعقب هذا كان مكتوبًا: "كانت الحقيقة هكذا... لماذا لم يطلقوا سراحه؟"

-أقول لك، ابتعد عن هذا!!

فزع كل منا على صوت الرجل المسن الذي فرق هدوء الحجرة بصرير يشبه صرير باب ثقيل وقديم...

الآن عيناه الاثنتان مفتوحتان ... كانت تدور حدقة عينيه التي شحب لونها كفئران وضعت في المصيدة، وكأن عينيه تبحثان عن مكان للوثوب من مكانها ...

لم يكن الرجل المسن في وعيه، كانت عيناه القلقتان تحومان، وكان يركز من حين لآخر بغضب من شخص ما ... كان آنذاك يصدر صوته بصعوبة ويأخذ نفسه الذي يخفق تدريجيًا من مكان ما – من مكان ضيق...

تأوه:

-... قلتُ لكِ تلك المرة... قلتُ، لا تأت ... لا تأت... لا تأت!...

وأدار وجهه كأنه يختبأ من شخص ما، وقال آنذاك بصوت منخفض للغاية ثم صمت:

-إنني أخاف... أخاف منكِ... أنتِ تعرفين بنفسكِ، كم أنا أخاف...

شعرت باختناق في نفسي من الذعر، واتجهتُ خلف "سعيدة" إلى الغرفة الأخرى.

* * *

لم أستطع سواء أنا أو "سعيدة" ذلك اليوم أو بعده أن نحدد هل هذا الهذيان الأخير للرجل المسن كان موجهًا لي أم كما قال ابن العم موجه للرسول المعتبر القادم خلفه من العالم الآخر.

مات الرجل المسن قرب طلوع النهار بشكل مريح وغريب عند خروج روحه، كان الجميع ينام إلا أنا. كان الوقت يقترب من الشروق.

كنتُ أتناول أكوابًا من الشاي الثقيل الواحد تلو الآخر حتى أبعد عني النوم الذي خيم على جفوني، وكنت أقلب وسط أكوام الملفات "التاريخية" التي ستحمل على مقطورة إلى وسط المدن، وكان ما يُصيبني بالدهشة هو أن مضمون المكتوب في هذه الملفات – الجمل المختلفة والملاحظات والعبارات – يعتبر استمرارا أو بداية لما كان يهذي به الرجل المسن وهو يحتضر وذلك من خلال الجمل المقطعة والتي لا علاقة ببعضها البعض... والغريب في الأمر أن هذه الأوراق الصفراء المملوءة بحشد من الكلمات التي لا معنى لها، ولا ترابط منطقي بينها كانت تجسد مشهدًا لحياة مكتظة جدًّا ومؤلمة ثم ...؟ في أماكن غريبة لا نفهمها... شعرتُ بموت الرجل المسن ذلك الصباح بمحض الصدفة عندما رفعتُ رأسي على صوت يشبه فتح أو غلق بقلقلة متسقة لشيء ما يشبه قفل صغير قريب منه في الصباح الباكر... فتح الرجل المسن عينيه المملوءتين، وتركزت على وجهي...

أيقظت النائمين وعندما أخبرتهم بموت الرجل المسن، كانت الشمس قد طلعت بالفعل.

كانت "سعيدة" لا تبكي بعد، طافت وجالت الحجرات بوجهها ناصع البياض، وفرشت غطاء أبيض على المرايا ودولاب الأواني، ورتبت الغرف.

ظل ابن العم مشغولاً بوجه الرجل المسن طويلاً. ضغط على جفون عينيه التي كانت لا تريد الانغلاق مطلقًا في بداية الأمر، وفي النهاية أسكنها مكانها، وبعد ذلك ربط بقوة ذقنه بالمنديل الذي أخرجه من جيبه.

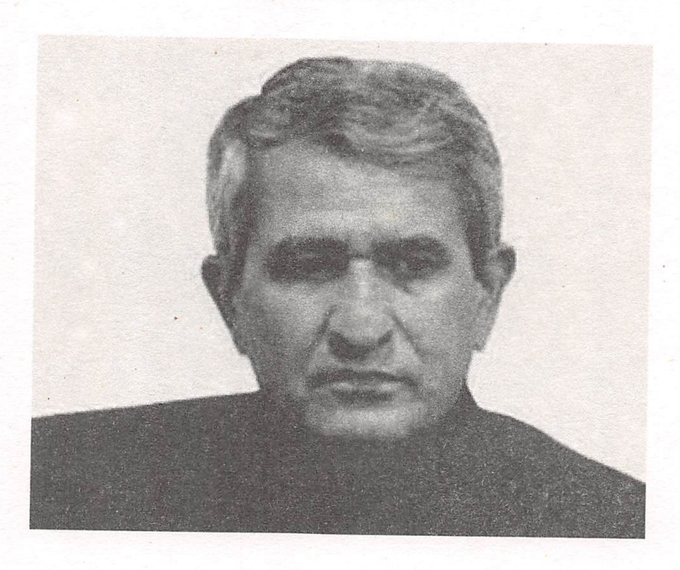
جلستُ على الكرسي الموجود بجوار السرير وشاهدتُ وجه الرجل المسن الذي كان يتغير كل دقيقة ويتجمل وينضر كلما انسل منه الدم، وذلك حتى جاءت عربة الموتى من المسجد... لقد تعجبتُ من تحول هذا الرجل المسن الغامض الذي كان يتجمل إلى صفة شاب في ريعان الشباب، رحل فجأة عن هذه الدنيا في أفضل أوقات عمره، وذلك عندما كانوا يلفونه في لحافه كالملفوف في حفاظه، من أجل إخراجه من المنزل والذهاب به لتغسيله.

أيقظ ابن العم الفتى الذي ينام طيلة الليل على الكرسي الموجود أمام التلفاز ثم نقله على الأريكة القريبة، نزلوا إلى فناء المنزل مع "سعيدة"، وهناك نظروا خلف سيارة الإسعاف التي تحمل الرجل المسن إلى المسجد من أجل تغسيله.

أما أنا فجمعتُ الملفات فوق بعضها البعض والتي استأذنت "سعيدة" في حملها إلى البيت، وربطها بالحبل بشكل مرتب، وذلك من أجل الانتهاء من الرواية التي أكتبها حول هذا "الفتى" الغامض...

(١٧)

قصة "الفراشة"



الكاتب/ نريمان عبد الرحمنلى

(١٩٥٨م)

كاتب، وصحفي، ومترجم، وسيناريست. لـه عـشرات الكتـب المنـشورة والروايات والقصص القصيرة مثل "كتاب المستقبل"، و"الإنسان الذي يعـيش فـي الذكريات"، و"العاصف"، وسفير القلوب"، و"المسافر"، و"الفاسد"، و"الـضحية". كما قام بتأليف أكثر من خمسين سيناريو لأفلام وثائقية وإبداعية. فـائز بجـائزة "الفـن الدولي" عام (٢٠٠٦م)، وجائزة "الكلمة الذهبية" عام (٢٠١١م) مـن وزارة الثقافـة والسياحة الأذربيجانية.

قصة "الفراشة"

للكاتب / نريمان عبد الرحمن

قيلت هذه العبارة بشكل أثر فيه كثيرًا! أو بمعنى أصح، لم تنته المـرأة مـن قول هذه العبارة المكونة من أربع كلمات، حتى شعر مسبقًا بما وراء هذه العبـارة وإن لم يفهم السبب، عجز عن الكلام بسبب غصة في حلقه؛ ومـا أن أدرك هـذه العبارة، حتى تصبب عرقًا من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، وتوقف عن التنفس تمامًا. "مات زوجي في الحرب...".

لسبب ما، لم يستطع إدراك هذه العبارة بشكل كامـل، ولكـن بـدأ بداخلـه الشعور باختناق شديد، كان يرغب في اللحاق بالمرأة التـي قالـت هـذه العبـارة وعيناها تذرفان بالدموع، وقد جمعت تلابيبها في يدها واتجهـت أسـفل المدينـة، ويرغب أيضًا في الاعتذار لها مرارًا وتكرارًا، وأن يخر تحت قدميها، ولكن كـان لا يستطيع أن يتحرك من مكانه لأن قواه قد خارت...

كانت بداية اليوم جيدة، حيث تناول في الصباح فطورا مـن البـيض، ولـم يتعرض للزحام في الطريق، وما أن وصل إلى الإدارة، حتى سمع أخبـارًا عـن الراتب من عاملة النظافة، ويبدو أنه سوف يتقاضى الراتب بعد الظهر؛ حقًا، هـذا هو الأسبوع الثالث الذي يسمع فيه هذا الكلام، ولكن كان لديه هـذه المـرة أمـل حقيقي لسبب ما، وسيتحول هذا الأمل إلى حقيقة بعد نـصف سـاعة بنـاءً علـى تأكيدات المدير.

قال المدير هذا الكلام بشكل مؤكد، كأن النقود معه، وسوف يخرجهـا مـن جيبه ويوزعها. على أية حال، قام المدير بالمن بشكل يوازي حجم وظيفته.

إضافة إلى أن هذا المن -بجوار النقود- لا يمثل شيئًا، ولم يكن يـستطيع أن يفسد هذا الجو من الأمل. بقي شيء واحد هو انقضاء الوقت بشكل ما حتى الظهر، وإبعاد الأفكار السيئة المتعلقة بالراتب من الذهن، وقد اعتاد على هذا أيضًا...

بعد ذلك انشغل ببعض الأوراق لمدة ساعة، وعنـدما أراد أن يخـرج إلـى الشارع من أجل أن يشرب سيجارة، اصطدم بفتى كان يسير جارًا ساقه، فاسـتدار من أجل أن يعتذر له، فنظر إليه وحينئذ عرفه من عينيه؛ إنه صديقه فـي الجـيش الذي لم يره منذ بضع سنوات؛ حقًا، لم يتذكر الاسم الحقيقي لهذا الفتى الذي كـانوا ينادون عليه في الجيش بـ "رمبو"، ولكن لا علاقة لهذا بالأمر؛ الأمـر الأساسـي كان هو أن هذا الفتى بعد أن أصيب ونُقل إلى المستشفى، لم يستطع أن يعرف هـل ظل على قيد الحياة أم لا؟ كان عندما يتقابل مع رفاقـه فـي الجـيش، يتـذكرون الأصدقاء الذين قاتلوا معهم، ولم يكن لدى أحد معلومات دقيقة عن "رمبـو"، كـان بعضهم يقول إنه بسبب فقده دماءً كثيرة مات في الطريق، والبعض الآخـر كـان يقول إنهم رأوه يعمل بالتجارة في محل صغير، وآخرون يتحـدثون بأنـه شُـفي والتحق بالشرطة، ويعيش حياة رغدة. الآن، ها هو، لقد اصطدم به فـي منتـصف الطريق بعد ما يزيد على خمس سنوات، وقفا وسط الناس وتجاذبا أطراف الحديث. وبدأ الحديث عن السنوات الماضية. حسنًا إنه انتبه بعض الشيء، وأدرك أن الفتـى يعرج وأنه يقف بصعوبة على قدمه المصابة، فصاحبه إلى مقهى قريـب، وجلـسا وأخذا يتذكران الأيام الماضية حلوها ومرها. وكأن الوجع الموجـود فـي مكـان الرصاصة بساقه، والذي كان قد هدأ منذ فترة، بدأ مرة أخرى، أو بمعنـى أصـح، تحول الوجع الذي كان لا يُعيره اهتمامًا قبل ذلك إلى ألم شـديد، بالإضـافة إلـى شعوره بالاختناق وتغير صوته؛ ولكن دار في عقله أن ما هو فيه بالنسبة لما يعانيه

هذا الفتى يعد كالذهاب لحفل زفاف؛ فقد مكث الفتى أربعة أشهر في المستشفى وتسعة أشهر وعشرين يومًا ممددًا في المنزل، وأرادوا أن يبتروا ساقيه من أعلى الركبة، ولكن بلطف من الله، فقد إحداها فقط، واستطاعوا إنقاذ الأخرى، والآن يستطيع أن يُدير حياته بشكل ما وهو يستند على قدم صناعية، ويكفل عائلته المكونة من ثلاثة أفراد من خلال معاش التضامن الاجتماعي الذي يحصل عليه بصعوبة. وعلاوة على ذلك، لم يعتمد على المعاش فحسب، بل يسعى للبحث عن عمل مناسب. سأله الفتى أثناء الحديث هل هو متزوج أم لا؟ فمزح معه وقال: "لا أريد الزواج قبل حل مشكلة الشقة". وسأله عن شيء آخر متعلق بهذا الأمر، ولكن لا يتذكره الآن. ما يتذكره هو أنه كتب عنوانه، وأخذ رقم هاتفه، وأكد عليه مرارًا وتكرارًا أن يتواصل معه، وغمز بطرف عينه لصاحب المقهى الذي يعرفه ليعلمه أنه من سيدفع ثمن الشاي، وصاحب الفتى حتى المحطة، ثم عاد إلى حجرته.

بعد ذلك قدمت "تاج رأس المدير" أي السكرتيرة، وقالت إن اليوم "عيد ميلاد كوبلاك"، وإنه استعد بشكل جيد، ويدعو الجميع بزوجاتهم الليلة. شعر في التو بما يحويه هذا الخبر من معنى: يجب أن نجمع من الجميع بقدر المستطاع لشراء هدية؛ سوف تأتي (السكرتيرة) مع المدير، ولو لزم الأمر يمكن أن تحضر معها صديقتها...

انظر إلى حظ الناس، يصادف يوم عيد الميلاد اليوم الذي استلموا فيه الراتب، لو أنت رجل حقًا، امتنع عن دفع ثمن الهدية، سوف توصم بعد ذلك "بالبخيل". على أية حال السكرتيرة تظل مع المدير طوال اليوم، ووجودها مع الموظفين لا يدفع إلى أي شك. صديقته قليلة الحياء. الله أعلم، كم شخصًا تعرفت عليه حتى الآن؛ تريد الآن أن ترتبط بشخص ما، ربما بحثت ولم تجد من يناسبها. هي خريجة جامعة. لديها عمل لا بأس به، إنها ليست جميلة، ولكنها ليست أيضًا بالقبيحة. فقد كانت متوسطة الجمال، وكانت مشكلتها الوحيدة هي أنها ليس لديها

منزل، وهذا أمر يمكن التغلب عليه؛ يوجد منزل خالٍ باسم جدتها منذ فترة طويلة، وهي رهن إشارة واحدة... ولكن هذا الظالم لا يعطي هذه الإشـــارة اللازمـــة، أو بمعنى أصح، كان لا يفكر في الزواج في امرأة مثلها.

لقد تحقق نجاح اليوم بالفعل بسبب الحصول على الراتب، الذين ذهبوا بحثًـــا عن الراتب اتصلوا من البنك بعد الظهر وبشروا الجميع بوصول الراتب، وبعد ذلك عادوا إلى العمل مرة أخرى. حقًا، حتى الساعة الثانية لم تفتح نافذة الصرّاف، كان المدير والمحاسب والصرّاف يعدون النقود، وقسموا النقـــود وخرجـــوا، وبعـــد أن استراحوا قرروا توزيع ما تبقى على العاملين. بالرغم من أنه كان الشخصية الثانية في الإدارة، فإنه في المسائل المتعلقة بالنقود يصبح في المرتبة الرابعـــة، أي أنهـــم كانوا يعطونه قبل باقي الموظفين راتبه أولاً (أي بعد أخذ ما يكفيهم) مما تبقى كنوع من الاحترام. عندما لف ثلاث رُزم من النقود بكيس بلاستيكي، وضعها فـــي درج المكتب ثم استشاط غضبًا: أراد فجأةً أن يفرش النقود على الأرض؛ مـــن حجرتـــه حتى حجرة المدير، ثم يمسك به من رقبته السميكة، ويجعله يجمع النقود المفروشة على الأرض أمام أعين الجميع. عندما جاءت "تاج رأس المدير" من أجـــل نقـــود الهدية، غير خطته، فكر في أن يعلن أن النقود التي أعطاها لشراء هدية بمناســـبة عيد ميلاد "كوبلاك" خاصة بالإدارة؛ ولكنه–رغما عنه–اقتطع جزءًا مـــن النقـــود، فأخذت السكرتيرة نصيبها وقالت: سوف آتي إلى عيد الميلاد وحدي، مع السلامة. وانصرفت في هدوء. ولكن كان يبدو من حالها أنها متضايقة.

في البداية لم يكن لديه رغبة في الذهاب إلى عيد الميلاد، لقد دفع نصيبه في النهاية، ويرغب في أن يبحث عن عذر، ويختفي. لأنه غير معجب بـــ "كـــوبلاك". فهو شخصية مكروهة، مستغلة، ولا يأتي من ورائه خير أبدًا، يوجد بينـــه وبـــين المدير تعاون مشترك يخفيانه عن الجميع، دائمًا يخرج من عند المدير غاضبًا.

غير "رأيه" قليلاً في نهاية اليوم؛ فهو لن يذهب مجانًا، لقد دفع ثمن الهدية، ولا بأس من تغريم "كوبلاك"، والضحك عليه حتى ولو قليلاً، فمتى ستتاح له فرصة كهذه. وكذلك في مثل هذا اليوم الموفق يجب أن يختمه في مكان ما، إما أن يذهب إلى عيد الميلاد، وإما أن يجد أحد أصدقائه ويذهب معه إلى حفلة ما...

دون أن يفكر كثيرًا، اختار الخيار الأول؛ لكي لا يكون بعيدًا عن زملائه في العمل، وكذلك ليستفيد بأي شيء من النقود التي دفعها للهدية. وعلاوة على ذلك كان متأثرًا جدًا من "تاج رأس المدير". قضى بقية وقته بشكل ما، وكان لا يزال مترددًا حتى ذهب إلى منزل "كوبلاك". ولكن بعد ذلك رأى أنه كان على صواب، كان "كوبلاك" وزوجته يتلألآن في ملابسهما مثل إعلانات الليل، وكادا يجلسانه على رأسيهما. كان الحاضرون واحدا وعشرين شخصًا. لقد دعا "كوبلاك" إلى هذا الحفل المحترم من رآه مناسبًا وليس الجميع. وأكثرهم حضر بصحبة زوجته، جلس المدير و"تاج رأسه" في مكان مناسب، وجلست النساء وكأنهن كن ينتظرن عيد ميلاد "كوبلاك"، لقد تزيّن بقدر استطاعتهن، وجلسن بجوار أزواجهن. كان المدير "ورئيسته" يتهامسان ويضحكان ضحكات خفيفة، كان "كوبلاك" يشعر بفرحة عارمة بسبب تهيئة سبب الراحة لمديره.

لم يكن الحفل سيئًا، ومنذ بداية الحفل عزف المدير عن إدارته، هكذا كانت رغبته، أكد بشكل حاسم "أنه يريد أن يتحرر من قيد القيادة". وفي هذه الحالة شعر بقيد في عنقه جراء اضطراره لإدارة الحفل، ورأى استحالة التخلص من هذا الأمر، فوافق على مضض. ونزولاً على رغبة المشاركين في العمل، انتقل بجوار "كوبلاك".

وبسبب أنه كان معتادًا على مثل هذا الأمر، استطاع أن يُدير الحفل ببعض عبارات المجاملة العامة، وبالاستشهاد ببعض عبارات الفلاسفة التي نذكرها، وبإلقاء مقطوعات شعرية من حين لآخر، وإعطاء الكلمة للجميع فردًا فردًا ليقول

بعض كلمات المجاملة. وقال الجميع كل ما يرغبون في قوله، أي أنهم أخفوا ما لا يرغبون فيه بكلمات معسولة وابتسامات كاذبة، وأسعدوا قلب "كوبلاك"؛ كان يجب عليه أن يتحمل كل هذا، كان من حين لآخر يرغب في ضرب قبضة يده في المنضدة، ولكن بدلاً من ذلك كان يجعل "كوبلاك" يحكي بعض النكات حتى يُهدئ من الغليان الذي بداخله: "ما حكاية ذلك المدير الذي يبحث عن سكرتيرة بمواصفات خاصة" عندما قال هذا كان يرمق المدير و"تاج رأسه"، ويتفقد التفاتتها وضحكاتها خلسة، وسلط "كوبلاك" نظره نحو المدير منزعجًا وهو يقول: "لا، سوف أحكي نكتة غيرها" كان هناك شخص أُعجب بامرأة...". كانت زوجة "كوبلاك" التي تجلس بجانبه تنهض من حين لآخر وتذهب إلى المطبخ، وعندما تعود وتجلس، كان طرف فستانها شبه العاري يظهر ركبتيها ناصعتي البياض. كان زوجها مشغولاً بالضيوف، ولم يكن في حالة تسمح له بأن يهتم بمثل هذا الأمر، لفتت المرأة انتباهه مرة أو اثنتين، ولكنها لم تحرك ساكنًا؛ كأنها ابتسمت بخجل وضمت ركبتيها، ثم بدأت تتحرك رويدًا رويدًا وكأن شيئًا لم يكن، وعندما شك بذلك قرر أنه من الأفضل ألا ينظر إلى هذه الناحية.

انتهت الحفلة بسلام. وبالنسبة للجميع، فإن أكثر شيء ظل في الذاكرة هو تبول ابن "كوبلاك" البالغ من العمر ثلاث سنوات فجأة بعد أن استيقظ من نومه وهو جالس في حضن أبيه. وعندما عرف الضيوف بالخبر أغشي عليهم من كثرة الضحك، كما انضمت إليهم زوجة "كوبلاك" وأخذوا جميعًا في الضحك، وآنذاك رفعت كأسها وقالت مازحة: "لقد أهداك ابنك اليوم أغلى هدية بمناسبة عيد ميلادك". ضحك الجميع على هذا الكلام وصفقوا. وشعر الجميع بضرورة الانصراف وقرروا ذلك أثناء ذهاب "كوبلاك" وزوجته لتنظيف هذه "الهدية". حقًا، لا يذكر من صاحبَ من أثناء الذهاب، الشيء الوحيد الذي يتذكره هو أن "كوبلاك" وهو يودعه، تحدث معه حديثًا طويلاً في شيء ما، وزوجته أيضًا ظلت يدها في يده أثناء مصافحته تقول له بعض الكلمات المعسولة.

عندما رأى أن الجميع انصرفوا وتفرقوا، وبعد أن وصل إلى محطة الحافلات، أدرك أن الظلام لم يحل بعد، أي أن الحفل استمر قرابة ثلاث ساعات. بالرغم من أنه شرب كثيرًا من الخمر، فإنه لا يزال يستطيع السير بشكل طبيعي مع هذا القدر من الخمر، شعر في عقله بما يشبه الضباب الخفيف، وعندما رأى أستاذه بين المنتظرين في المحطة وهو في هذه الحالة، اضطرب كثيرًا. لقد أصبح البروفيسور الذي كان طالبًا عنده قبل خمسة أو ستة عشر عامًا طاعنًا في السن، ولم يبق شيء من علامات الهيبة والقوة التي كان يتمتع بها آنذاك، كان يرتدي بنطالاً وسترة شبه حريرية، وعلى رأسه قبعة من نفس القماش. كان يضع يده في خصره، وكان يتجول في المحطة من هذه الناحية إلى تلك، كما كان يفعل في قاعة المحاضرات. حاول أن يُجبر نفسه على الاقتراب منه، ولكنه لم يستطع، كأن هذا الرجل هو سبب جميع الإخفاقات التي تعرض لها طيلة السنوات الماضية، لو كان سلم عليه، لربما كان على الأقل سوف يكذب عليه؛ "حالي جيد، وعملي ممتاز، وعائلتي على ما يرام، أنا تحت أمر حضرتك في أي شيء..." جيد حافلة الأستاذ وصلت، وأنهت هذا القلق الذي يشعر به...

في تلك اللحظة رأى المرأة: وقفت بجوار بائع السمك الذي جلس واضعًا سلته بجوار المحطة، وكانت تقلب سمكة حفش تزن اثنين كيلو جرام على جانبيها، وتفتح خياشيمها وتنظر إليها وتشمها، وكانت تجادل مع بائع السمك حول السعر. أثناء ذلك ألقى بائع السمك بعض الكلمات الغامضة وهو يبتسم، فلم ترد عليه المرأة، ولكن لم تشتر السمكة أيضًا، وابتعدت عنه ووقفت في المحطة تنتظر الحافلة. عند النظر إليها، كانت تبدو جميلة من مظهرها؛ فلم تتزين ولم ترتد لباسًا كاشفًا أو فاضحًا، وكانت تبدو عليها علامات الخجل. ولكن كانت تبدو أنها تعيش في حالة من اليأس، على أية حال، عندما رأى أن المرأة يبدو عليها أنها لا تنوي ركوب أية حافلة، خطرت بباله هذه الأفكار: "فرضًا، أنني غير مستعجل للذهاب إلى أي مكان، ولا أريد الذهاب والبقاء بين أربعة جدران في المنزل، ولو قابلت

أحد أصدقائي سوف أجلس معه ساعة أو اثنتين على المقهى وأُضيع وقتي، فماذا بك أنت؟". بعد قليل بدأ شاب صغير السن باثر الوجه يحوم حول المرأة، وما أن سنحت له الفرصة، قال شيئًا ما، وعندما غيرت المرأة مكانها كنوع من الاعتراض، دار الفتى مرة أخرى حولها ثم انصرف...

تلاقت نظراتهما مرة أو اثنتين، وعندما التفتت المرأة للمرة الثالثة ونظرت إلى عينيه، فهم بعضهما البعض من دون أي كلام. حقًا، في البداية لم يكن في ذهنه شيء آخر، ولكن بعد ذلك فكر في أنه لا بأس أن يختم هذا اليوم الموفق بالتعرف على امرأة. لا يتذكر جيدًا فيما تحدثا، عندما جلس في الحافلة بجوارها، بدأ يعود لوعيه بعض الشيء. كانت المرأة تتحدث عن بعض الأشياء الحميمية من أجل أن تكتم اضطرابها وقلقها، وكانت تجتهد في أن تُبعد شكوك الناظرين لهما من الركاب، فكانت تقول إنها خرجتْ للبحث عن عمل، علاوة على أن طفلها مريض، ويريد السمك، كان يجب أن تشتري له سمكًا، كما قالت أيضًا إنها بصفة عامة لا تحب الخروج إلى المدينة، وتحب الجلوس في المنزل، ولكن لو كانت قد وجدت عملاً براتب مناسب، كانت ستعمل فيها. كانت تعمل حتى نهاية الأسبوع الماضي؛ ولكن تم غلق الإدارة التي كانت تعمل بها، فأصبحت في الهواء الطلق دون عمل، ثم تحدثت عن صعوبة العيش وحيدة، وذكرت أنه ليس لديها أي مساعدة من أي مكان. فكر، وهو يصغي إلى كل هذا، في أن يتجرأ ويدعو المرأة لتناول القهوة في المنزل، ويتحين الفرصة بأي حُجة، ويضع في حقيبتها النقود التي بقيت بعد هدية "كوبلاك"، ثم يتركها تنصرف. كان يشعر أن المرأة تتحدث بصدق، ولا تقول كذبًا حتى تبرر لنفسها شيئًا.

عندما استدارت الحافلة من أحد الشوارع قال: "لقد وصلنا". دفع ثمن التذكرة ونزلا. وبالرغم من أنه شعر بأن حال المرأة التي كانت تتكلم بحميمية طيلة الطريق تغير تمامًا عندما نزلت، اعتقد أن سبب هذا هو تردد المرأة، فقال:

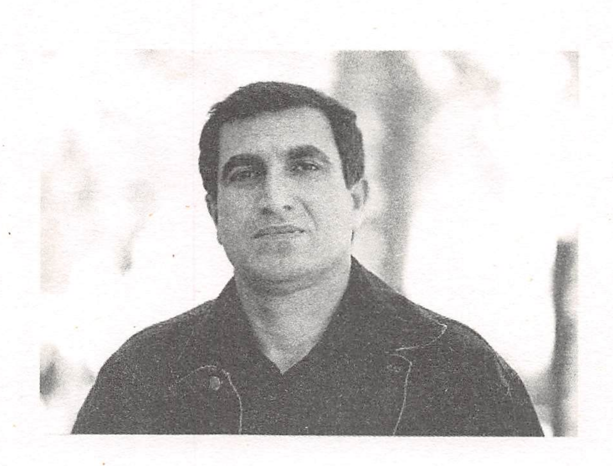
"هذا هو المنزل، أعيش في الطابق الأول فيه، الباب الأيسر". خطت المرأة خمس أو عشر خطوات كالمريض، وبعد ذلك توقفت، ووضعت يدها على جبينها: "لا، لا، لا أستطيع الذهاب". وكان في صوتها أنين وحزن. عندما سمع هذا تعجب وأصابته دهشة، أراد أن يوضح لها أمرًا ما، ولكنه شعر في داخله بشيء غريب: "لماذا، ماذا حدث لكِ فجأة؟" كانت المرأة ترتعد آنذاك، وقالت بصوت باكٍ وهي ترتعد: "مات زوجي في الحرب"، وعادت نحو المحطة وقدماها تتخبطان.

تجمد الدم في عروقه وغرق في عرقه. كان الطريق البالغ حوالي خمسين أو ستين خطوة نحو منزله عذابًا ومشقة وكأنه طريق إلى جهنم. كان بداخله ما يشبه الفراغ أو الثقل، كان يريد أن يقضي عليه. كان لا يتخيل أن أحد أيام حياته السعيدة إلى حد ما ينتهي فجأة بهذا الشكل من العذاب غير المتوقع. كان عليه أن يتعذب على الأقل لمدة أسبوع أو عشرة أيام حتى يتخلص من الإحساس بالخجل، ويقهر نفسه حتى يُنسيه الزمان ما حدث.

وقف فترة طويلة أمام الباب وفي يده المفتاح. كان لا يستطيع أن يدرك ماذا يجب عليه أن يفعل، ثم رأى فراشة حطت على ركن أعلى الباب، كانت الفراشة كبيرة، وسوداء، فوق أجنحتها نقط ملونة، وكان غبار اللقاح الذي يعلوها يلمع تحت الضوء. أراد أن يمد يده بهدوء ويُمسك بالفراشة، ولكنه تأخر، طارت الفراشة فجأة، واختفت وسط الظلام. عندما فتح الباب، كان لا يزال يفكر في الفراشة. لقد سمع في مكان ما أن من يمس الفراش الأسود بيده لن يعيش طويلاً.

(١٨)

قصة "ميناء التبغ"



الكاتب/ أجدر أول

(١٩٥٨م)

كاتب وصحفي، ومترجم، عضو اتحاد الكتـاب الأذربيجـانيين منـذ عـام ١٩٩٤م. له العديد من الكتب المهمة مثل "تعديل على مـا كُتـب علـى جبينـي"، و"معروف من صوته"، و"لحظات من الحكمة"، و"مـن الآن..."، و"الجميـع يُطلـق عليه حبيبتي"، و"حرب القلوب"، قام بترجمة القصص الـشعبية الخاصـة بطائفـة "الطاليش"، وأمثال طائفة "قوموق". وفاز كتابه "قـصص مـصورة" فـى مـسابقة الكتاب القومية.

قصة "ميناء التبغ"

للكاتب / أجدر أول

بعد أن ابتعدتُ بضع خطوات عن باب خروج ميناء سامسون [1] الجوي سمعتُ شخصًا خلفي يناديني باسمي. كان صوتًا رقيقًا لامرأة. فتوقفتُ والتفتُ ورائي.

فإذا بصاحبة الصوت تقف أمامي وقالت:

- أنت أستاذ "يشار"؟

أومأت برأسي "نعم"، وتفحصتُها لعلي أتعرف عليها.

- لعلك لا تعرفني؟ فقد رأيتك من مسافة قبل ثلاث ساعات في ميناء إسطنبول الجوي. ولكن لم تتملكني الشجاعة كي أقترب منك.

- لم أعرف أننا رفقاء طريق وأننا نتوجه إلى نفس المكان.

كانت ملامح المرأة مألوفة لدي. ولكنني لم أستطع أن أتذكر على وجه الدقة ما هي الأحداث المرتبطة بها، وما الذكريات المتعلقة بهذه الملامح المحفورة في مكان ما بذاكرتي.

- أنت لا تتذكرني! لقد التقينا مرة واحدة فقط. وتبادلنا الحديث، بضع كلمات فقط!

---

(١) ميناء بشمال شرق تركيا محافظة سامسون (المؤلف).

استغرقت في التفكير ثم استطردت حديثها:

- هذا قبل أربعة عشر عامًا ولم تفارق مخيلتي أبدًا.

ربما كانت المرأة تريد أن تلفت انتباهي. لقد شرد ذهني وأخذني الظن بعيدًا جدًّا. فلأتذكر قبل أربعة عشر عامًا مع من وأين تحدثت تلكِ الكلمات القليلة؟

ولكن المرأة كانت تبدو لي أنيقة. ومن الصعب أن يصادف المـــرء وجهًـــا بريئًا ومملوءا بالإحساس في أي وقت.

أغمضت عينيها وقالت بدلال:

- لا ترهق نفسك، سأخبرك من أنا؟

فبادرتها من فوري قائلاً:

- أنتِ السيدة "تاذرين"! لقد تقابلنا أثناء تـــصوير برنـــامج تليفزيـــوني فـــي "المسرح التليفزيوني".

فابتسمت لأن ظني جاء في محله.

استجمعت شجاعتي

- ليس منذ أربعة عشر عامًا، سأقول لك بالتحديد، إذا كان هذا اللقـــاء فـــي الثاني والعشرين من أكتوبر، فنحن-إذن-تقابلنا قبل خمسة عشر عامًا وستة أشهر.

- يا لدقة كلامك!!.

- وُلدت ابنتي في ذلك اليوم، وجئت مباشرة من المستشفى للتـــصوير بـــ "المسرح التليفزيوني". لذلك أنا أتذكر هذا التاريخ جيدًا.

- حينئذ كنت أكتب أول مقالاتي العلمية.

- وأنا أيضًا.

- كم مرت هذه السنوات بسرعة شديدة؟!

- معك حق ...

- قبل التصوير ... اقتربت مني على المسرح بطريقة غير متوقعة. وقلت مبتسمًا ... "فلنتعرف" أنا اسمي ... وذكرت اسمك وأنا أيضًا أخبرتك باسمي. وبجرأة ... أخذت من يدي الورقة التي كان مكتوبًا فيها كلمتي المختصرة والتي كنت سألقيها. وقرأتها في نفس واحد ثم أعدتها إليَّ. شعرتُ من ملامح وجهك ومن مشيتك آنذاك بشيء من التعالي وبأن كلمتي لم تعجبك؛ فغضبتُ منك. وكنت متوترة حينها. وتملكني الضيق. وكنت في احتياج إلى من يطيب خاطري ... وعندما اقتربت مني ثانية ظننت أن رغبتي تحققت ووجدت من يشجعني.

- هل مازالت غاضبة مني حتى الآن؟

قالت بصوتٍ رقيق:

- نعم، كنت أنتظر أن تطيب خاطري بعد التصوير ولكنك لم تفعل ذلك. فالكلمة تؤثر في بسرعة.

حركتُ كتفي متعجبًا:

- والله لم أكن أدرك ذلك تمامًا.

وأضفت مازحًا:

- وهل اعتذاري بعد خمسة عشر عامًا وستة أشهر، سيكون مجديًا؟!

ابتسمت المرأة:

- لا تتعجل بالاعتذار.

اندهشت للحظات ثم سألت:

- هل سيكون في استقبالك شخص ما؟

- لا، لا أحب أن يلقاني أحد، سوف آخذ سيارة أجرة وأذهب.

- ستنزلين في أي فندق؟

- فندق "بيوك أوتيل".

- أنا أيضًا سوف أقيم في فندق "بيوك أوتيل".

- إذاً طريقنا واحد ...

ركبنا التاكسي وجلسنا سويًا في المقعد الخلفي. وظلت عيني تدور فيما حولها.

سألتني:

- هل هذه أول مرةٍ تأتي إلى هنا؟

- نعم، سوف أشارك في المنتدى الاقتصادي الذي سيبدأ غدًا، وسوف أبقى هنا ثلاثة أيام.

ونظرت إليها:

- لا أعرف هل يمكن أسأل، وأنتِ ...

ردت قائلة:

- أنا سوف أحاضر لمدة ثلاثة أيام لطلاب جامعة "١٩ مايو".

كان النهار قد انتصف عندما وصلنا إلى الفندق. وكنا قد حددنا موعدًا للقاء في بهو الفندق الساعة السادسة مساءً، وصعد كل منا إلى غرفته.

أردت الاستراحة والاستحمام من أثر السفر. فقد أنهكني السفر بسبب تغيير رحلتي طيران من باكو وحتى الوصول إلى هنا.

دخلت تحت الماء. والمرأة لا تغادر تفكيري. يظل المرء في مخيلة شخص ما لمدة سنوات طويلة ولكن دون أن يدري. أمر عجيب!!

يا ترى لماذا ظللت في خاطرها بهذا الشكل؟ هل بسبب غضبها مني؟ هذا مستحيل. لعلها تعلقت بي عاطفيًا؟!

ربما عندما اقتربت منها في "المسرح التليفزيوني"، ظهر في نظراتي وفي حركاتي وفي كلامي شيء ما؟

انتهيت من الاستحمام واستلقيت. ظل الأمر يجول بخاطري وتموج الأفكار الجميلة بداخلي.

نعم، بدأت أتذكر شيئًا فشيئًا، عندما لفتت نظري من بعيد وأعجبت بها.

لقد حركت تصرفاتها النبيلة ومظهرها الأنيق مشاعري.

ربما لهذا السبب اقتربت منها وأردت التعرف إليها والحديث معها، وطلبت منها النص الذي سوف تقرأه في البرنامج.

لم أعجب بالنص رغم أنني قرأته بدقة. ودون أن أنطق بكلمة واحدة أعدت النص إلى صاحبته ومشيت.

ولكن حينذاك لم أجد ضرورة لوجودي هناك. وسألت صديقي المذيع "أغامير" الذي كان منهمكًا في إعداد البرنامج هامسًا:

- من هذه الفتاة؟ وماذا تعمل؟

فقال:

- باحثة شابة.

- لا أعرف كيف مر التصوير في "المسرح التليفزيوني".

وبعد التصوير خرجت المرأة مسرعة من الباب. فخرجت خلفها بشكل تلقائي.

لكني لم أرها في الخارج. فوقفت عند الباب انتظر "أغامير".

ربما لم يكن هدفي الجلوس معه على أحد المقاهي، بل معرفة أي شيء بشأن "تاذرين".

أزعجني "أغامير" قائلا:

-إنها امرأة جميلة تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا. تكتب بشكل جيد، متزوجة، جاءت مع زوجها إلى رئاسة التحرير، وأعربت عن رغبتها في الظهور بالبرنامج.

لم أحرجها وقلت في نفسي فلنشجعها. بعدها شعرت أن زوجها شديد الغيرة عليها ولا يريد أن يتركها ولو للحظة واحدة. ولو كنت قد سمحت له لجلس بجوارها في البرنامج.

ربما يستفسر زوجها عن سبب اقترابك منها وحديثك معها.

كان زوجها من بين المشاهدين في القاعة. ليتك لاحظت نظرات زوجها إليها!

قلت:

-من الغريب أن يوافق هذا الزوج على ظهور زوجته في البرنامج.

قال "أغامير":

-الرجل الغيور لا يعني أنه رجل قوي، بل بالعكس هذه علامة الضعف وقلة الحيلة.

رأيت "تاذرين" على الهواء عدة مرات. وبعد ذلك اختفت. لم أسأل عنها "أغامير".

لم أكن أعرف عن "تاذرين" أكثر من ذلك.

التقينا الساعة السادسة مساءً في بهو الفندق وخرجنا للتنزه.

- زرت هذه المدينة ثلاث مرات. وبها عدة أماكن جديرة بالمشاهدة. لكن أكثر مكان يعجبني "ميناء التبغ"[1] ومجسمات المجموعة التي كانت ترافق أتاتورك أثناء خروجهم للحرب. فالتماثيل المنحوتة من الشمع للمقاتلين في حرب الاستقلال كأنها حية، ومن ينظر إليها من بعيد يشعر كأنهم نزلوا لتوهم من سفينة "بندرما".

أردفت قائلة:

- لعلك تعلم أن مصطفى كمال أتاتورك بدأ حرب الاستقلال من مدينة "سامسون".

متذمرًا:

- بالطبع أعرف.

فابتسمت قائلة:

- يوجد مثال في هذه المدينة يرجع لشخص كان من أوائل من رأوا هذا الأثر.

فقلت باهتمام:

- أي مثل هذا؟

---

(١) خاض مصطفى كمال أتاتورك "حرب الاستقلال" التركية في التاسع عشر من مايو ١٩١٩ لتخليص تركيا من قيود الاحتلال التي طالتها عقب الحرب العالمية الأولى، وكانت نقطة الانطلاق من "ميناء التبغ" (نسبة لنقل التبغ من خلالها). ويوجد حاليًا نصب تذكاري مصنوع من الشمع يجسد لحظة انطلاق مصطفى كمال أتاتورك و١٨ من رفاقه لهذه الحرب بهذا الميناء (المترجم).

- من أصابه الضيق من حاله يقول: "كان يجب على أتاتورك الخروج من البحر الأسود إلى سامسون".

فابتسمت:

- ولكن حقًّا يحتاج كل إنسان في الحياة إلى ميناء التبغ.

عندما قلت هذه العبارة بدا على السيدة "ناذرين" الحزن.

وصلنا إلى المكان الذي ذكرته ونحن نتجول.

قلتُ:

- يشبهون هذه التماثيل بتماثيل مدام توسو[١].

قالت:

- تبدو هذه التماثيل من بعيد دون عيوب.

- تقصدين ألا نقترب منها؟

- على أية حال، يضم البرنامج عقد احتفالات وأنشطة ثقافية في محافظة "سامسون"، ومنها زيارة متحف "السفن الرواسي" وهو بعيد إلى حد ما عن الشاطئ، في مكان لا تهب فيه الرياح، سوف تشاهد المدينة غدًا أو بعد غد.

جلسنا في مقهى صيفي بالقرب من هذا النصب التذكاري في جو بديع. طلبت عصير فواكه، وطلبت الشاي.

أردت أن أكمل حديثنا الذي بدأناه في منتصف اليوم.

---

(١) يقصد به متحف "مدام توسو" بلندن. وهو أشهر متاحف الشمع في العالم ويضم هذا المتحف تماثيل للشخصيات العالمية البارزة في جميع المجالات. ولهذا المتحف فروع في بعض دول العالم. (المترجم).

- هل جاء وقت الاعتذار لك؟

تأوهت المرأة:

- هذه مجرد ذكرى. ولا يمكن إضافة أي شيء إليها. لو حدث، ستبدو كالبقعة. ولكن استمر طويلاً تأثير لقائنا المفاجئ هذا. الحقيقة أنه مرت عليّ أوقات وأنا ممتنة بسبب اليوم الذي تقابلنا فيه. لقد كنت بمثابة نقطة تحول في حياتي. اخترتك لي ملاذًا.

أصابني الذهول. هل هذه المرأة تفقد رشدها؟

- كنتُ أستطيع أن أستدعيك لمساعدتي. ربما كنت ستخلصني من بعض الصعاب.

- لماذا لم تستدعني؟

- لم أرد أن أطيل الأمر.

- أنتِ تتكلمين بالألغاز!

أخذت نفسًا عميقًا، وقالت بلطف:

- أرجو أن تصبر علي. هل تشاهد "الأخبار في التلفاز"؟ إنني أتحدث عن مصيري.

اجتهدتُ في أن أجعلها محقة:

- نعم، أنت تقولين الحق. لا توجد ذكرى من دون أهات أو دموع العين! سامحيني!

- انتهى غضبي منك آنذاك، منذ زمن بعيد، ويمكن أن تفسر كلامي على الوجه الذي ترغب فيه.

صمتُ، وربما ضاع مني الكلام الذي يجب أن أقوله. ركزت المرأة عينيها إلى مكان ما. وكأنها تشاهد من جديد الأحداث التي وقعت سابقًا فيه.

قالت:

- بعد ذلك اليوم، انقلبت حياتي رأسًا على عقب. رجعتُ من "المسرح" إلى المنزل وأنا في قمة اليأس والندم. اشتعلت نار الغيرة لدى زوجي. الذي كان دائمًا يضايقني ويغضبني. ولكن اقترابك مني في ذلك اليوم، وحديثك معي، وأخذُك الورق من يدي، وابتسامتي لك، أشعل نار الغضب لديه. تذمر طيلة الطريق، ولم يهدأ حتى النوم. وبعد أن عُرض البرنامج في مساء اليوم التالي – وأعترف لك بأن المخرج كان يُظهرني كثيرًا خلال البرنامج– انهالت الاتصالات الهاتفية. وكان زوجي هو الذي يرد. كانت جميع الاتصالات من معارفنا ليهنئوني. ولكن آخر متصل لم يرد. مهما قال زوجي "ألو، ألو"، كان الطرف الآخر لا يرد. ألقى زوجي الذي كادت تخرج عيناه من حدقتها بالسماعة على الهاتف. تكرر هذا الاتصال المجهول عدة مرات. كيف يتصرف شخص غيور بجنون في هذا الموقف؟ قال لي كل ما يحلو له – من شتم وسباب. وفي النهاية لدغني كالثعبان:

- منذ أمس وأنا أشك في الولد الذي تحدث معك في المسرح. هو الذي يتصل، الوقح لا يرد. ربما يظن أنني لست بالمنزل اليوم. ولا يعرف أنني أجلتُ سفري بسبب ظهورك الفارغ في التلفاز.

كان يجب عليه أن يسافر إلى "تفليس" يومها، ولكنه أخر سفره بسببي للأسبوع التالي:

أردتُ أن أبرئ نفسي:

- لم أكن المتصل.

ردت المرأة بثقة:

- أنا كنتُ أعرف من الذي يتصل. كان شابًا مجنونًا يعيش في البناية المجاورة لنا. كان مهووسًا بي. عارضني مرة أو اثنتين أمام المنزل. وبعد أن رأى

رفضي وعدم تجاوبي معه، غضب بشدة وبدأ في الاتصال كل فترة ولا يرد. كنتُ لا أعير الأمر اهتمامًا. كنت أظن أنه سوف ييأس بسرعة. وكان زوجي يختلق الأكاذيب. ولم يكن معروفًا أي عمل سيقدم عليه هذا الفتى الأخرق.

- لماذا لم تقولي له الحقيقة؟

- كنتُ أعرف مدي حمق زوجي. كان سيحدث ضجة ويفضحني في الحي.

- لو كان زوجك قد جاء فجأة وأمسك بتلابيبي؟!

كان سؤالا شديد الحماقة، لقد تضايقت من نفسي. سلطت المرأة نظرها علي وسألت:

- وهل ستخاف؟

فجأة أزالت المرأة حاجز التبجيل في حديثها معي؛ حيث استخدمت صيغة "أنت" في الحديث، بعدما كانت تستخدم صيغة الاحترام "حضرتك". ولم أعرف هل كانت متعمدة، أم بسبب أنها كانت تتحدث عن سنوات مضت. في تلك اللحظة بدت المرأة قمة في البراءة.

هززت كتفي "كناية عن الرفض":

- ما فائدة أن أقول الآن "لم أكن لأخاف"؟ كل شيء انتهى بلا رجعة. ولكن لا أستطيع أن أقول ماذا كنتُ سأفعل آنذاك.

ربما أعجبها ردى.

قالت المرأة:

- رغم أنني لم أكن أقر أو أنكر هذا الأمر، إلا أني كنت سعيدة لذكره اسمك. وكنتُ لا أستطيع أن أجد سندا لي حتى تلك الفترة. كان زوجي يختلق لي التهم. وكان صمتي يجعله يُصدق ما يختلقه من أكاذيب. استمرت هذه المهاترات في المنزل لمدة ثلاثة أشهر.

- وهل استمرت اتصالات الهاتف؟

- نعم...

- كنت تستطيعين الحديث مع والدّي هذا الشاب الأحمق، وتردعينه.

- لم أكن أرغب في ذلك. حتى في الآونة الأخيرة كنت أشتاق لتلك الاتصالات.

- لماذا؟

- كان زوجي يتصور أنه وحده الذي يحمي كرامتي. وهذا كان يدمرني. كنت أود أن تزداد شكوك هذا الرجل أكثر، فلا أغيب عن نظره، ويراقبني ليل نهار، وسرعان ما يفهم حماقته. ولكن لم يحدث ما أردته. كانت الغيرة داء عضالًا. فكان الانفصال -فقط- هو الذي يستطيع علاج هذا المرض. في النهاية لم أستطع الاحتمال. فانفصلنا.

- هل تشعرين بالبرودة؟

ارتعدت:

- أصبح الجو باردًا. ملابسي ليست ثقيلة. فلنمشي قليلًا.

نهضنا. وبدأنا بخطوات وئيدة السير نحو الفندق.

قالت المرأة:

- بالمناسبة أريد أن أسألك ما أخبار الأستاذ "أغامير"؟ لقد شجعني وأخذ بيدي وأظهرني في التلفاز.

قلتُ بهدوء:

- مات منذ ثلاث سنوات.

قالت متأوهة:

- مات منذ ثلاث سنوات!

وأردفت قائلة:

- رحل شخص آخر ممن كنتُ ألجأ إليهم... لقد تحول ماضينا إلى مقابر... أمر صعب!

كان وجه المرأة يعلوه الهدوء شيئًا فشيئًا. وكأنها كانت تضع أفكارها القديمة على رف الذكريات، وتفكر في الحاضر.

قالت السيدة "ناذرين":

- نعم، لنعد إلى الحاضر. فالحياة عبارة عن تفاصيل لا تنته. والمرء يرغب في أن يكون داخل الأحداث دائمًا. وأكثر الملاحظات إثارة وحيوية في الحياة هي الوقت الحاضر.

بعد لحظة صمت، رتبت سترتها، وهمست:

- أشعر بالبرد. أرجو ألا أصاب بالمرض. أعلن علماء الأرصاد الجوية أن الجو سوف يكون حارًا هذا اليوم. فلم أحضر معي معطفًا.

- فلنذهب ولنشتر لك معطفًا!

لا أعرف ما الذي دفعني إلى أن أقول هذا فجأة.

فردت كالطفلة:

- فلنذهب، لكن هل سنجد شيئًا مناسبًا؟

توجهنا إلى الطريق وأوقفنا سيارة أجرة. فهم السائق ما نريد وذهب بنا إلى السوق. اختارت السيدة "ناذرين" من قسم ملابس النساء بالسوق معطفًا فاتح اللون رخيصًا بعض الشيء. وكان هذا المعطف مناسبًا لها.

وبعد إصرار مني وافقت أن أدفع ثمن المعطف.

وقالت:

- منذ فترة طويلة وأنا أرفض أن يدفع لي أي شخص ثمن أشيائي...

وأضافت مازحة:

- ولكن إذا كانت ذكرى منك، فهذا أمر طيب. أنا أعرفك منذ خمسة عشرة عامًا وستة أشهر.

ضحكت:

- كما أنك نقطة تحولي ...

حان وقت طعام العشاء. خرجنا من السوق، وعلى مسافة منه وجدنا مطعم أسماك. طلبنا سمكًا مشويًا وكوكاكولا.

كانت الإضاءة خافتة داخل المطعم. فجلسنا على ضوء الشموع. كنت أرى آنذاك وجها كاملاً. كانت أشعة الشمع كالخيوط المتلألئة على وجهها. النساء تبدو أكثر جمالاً في هذه السن تحت ضوء الشموع.

كان ضعف نظري بعض الشيء يزيد من جمالها الخلاب.

قطعت حركة شفتيها أحبال خيالي. أمعنتُ التفكير. كأنها قرأت أفكاري. وكانت لا تريد أن تمكنني من الإعجاب بها. أدركت الكلام الذي قالته بعد لحظة:

- منذ أحد عشر عامًا وأنا أعيش في تركيا. عملتُ في جامعتين. والآن أنا في "تشناق قلعة". واعتدتُ هذه الأماكن.

أحضر النادل طلبنا. ربما جاء ليعيدنا إلى الحاضر. حقًا إن العودة إلى الماضي مستحيلة. إن أصوات الموسيقى والشموع وأصوات الشوك والسكاكين والستائر قد أغلقت أمامنا سبل الماضي.

ألقت المرأة جملة عابرة:

- أسماك البحر الأسود لذيذة الطعم.

شعرتُ بالإحباط. ودار في ذهني أن الحديث عن الأسماك لن ينتهي إلى شيء. ولكني لم أستطع أن أتراجع عن هذا الحديث.

تحدثنا في تلك الليلة عن موضوعات متنوعة. عن قصة صائد الأسماك في "سامسون" وقصة الزعيم "هوجو تشافيز".

عدنا إلى الفندق الساعة العاشرة والربع. كانت لديها محاضرة في الصباح، أما أنا فالمؤتمر.

انشغلتُ في اليومين التاليين، لدرجة أني لم أستطع أن أتحدث مع السيدة "تاذرين" هاتفيًا إلا مرة واحدة لسؤالها عن حالها. ولم يكن لديها وقت أيضًا لكثرة العمل.

في اليوم الثالث كان ختام المنتدى الاقتصادي. عدتُ إلى الفندق واتصلتُ هاتفيًا بحجرة المرأة. لم أجد ردًا. تمددت على السرير. إنها شغلتني طيلة الجلسات واللقاءات والحفلات والجولات والمطاعم. لذلك كان الاسترخاء له مذاق خاص.

اتصلت بها مرة أخرى. لا أحد يرد. ظللتُ طيلة ثلاث ساعات وأنا في سنة من النوم اتصل كل نصف ساعة، ولكن لا فائدة.

لم أعرف متى غلبني النوم. فزعتُ من مكاني على صوت الهاتف. السيدة "تاذرين" تتصل:

- السلام عليكم!

قلت وأنا أحاول أن أخفي أنني كنتُ نائمًا:

- السلام عليكم!

- لقد اتصلتَ بي كثيرًا؟

- كيف عرفتِ؟

- لقد خرب صوت التليفون من كثرة الاتصال... وأصبح يصدر صوتًا ضعيفًا.

- أنت تمزحين ... حقًا لقد اتصلت بك كثيرًا.

- سوف أسافر إلى إسطنبول الليلة في الساعة الواحدة.

- أما أنا فغدًا صباحًا. لا يزال لدينا وقت.

- حسن... انتظرني بعد ساعة ونصف الساعة في بهو الفندق.

- اتفقنا.

ارتديت ملابسي وعندما هممت بالخروج من الباب، دق الجرس الهاتف. رفعتُ السماعة. كانت السيدة "نازرين" مرة أخرى. قالت بصوت ضعيف:

- أرجوك، تعال إلى حجرتي.

شعرتُ بالقلق من صوتها الخافت، وخرجتُ من الحجرة مسرعًا.

انفتح الباب بمجرد أن طرقته. فدخلت.

قالت:

- فجأة شعرت بإعياء وألم

كان ألمها ظاهرًا.

سألتها:

- ماذا حدث؟

- لا أعرف بالضبط، ولكن شعرتُ خلال الأشهر الماضية مـرة أو اثنتـين بمثل هذا الألم. ولم أهتم. وكنتُ أكتفي بتناول المسكن.

نهضت على قدمي:

- إذًا، فلأسرع وأحضر العلاج!

أشارت إلى بيدها للجلوس:

- اجلس الآن. ربما يخف الألم من تلقاء ذاته.

عندما أتألم أخشى الجلوس وحدي. أحتاج رفيقًا بجانبي.

جلست رغمًا عني. كنتُ لا أعرف كيف أغير هذا الوضع.

وهي أيضًا جلست على الكرسي متألمة.

مرت أربع أو خمس دقائق على هذه الحال. كانت حالتها تتدهور. وكانـت تضغط على أسنانها لتتحمل الألم.

لم أستطع الصبر أكثر من هذا:

- أرى أنه ينبغي استدعاء سيارة الإسعاف.

- لا! لا أريد! من فضلك أحضر لي مسكّنا للآلام.

انتفضتُ من مكاني وهرولت إلى مقبض الباب. لم يستغرق نزولي وركوب سيارة الأجرة وشراء العلاج من الصيدلية أكثر من عشرين دقيقة.

تغير لون السيدة "نازرين". يبدو أن الألم اشتد عليها. أحضرت لهـا المـاء وأعطيتُها العلاج.

يجب علينا الآن أن ننتظر تأثير الدواء.

تأوهت!

- رائع أنني التقيت بك.

- لا تقلقي، سوف يذهب الألم. هل أحضر لك شايًا؟

- لا، لا أريد شيئًا على الإطلاق.

- في كم دقيقة يمكن أن يُظهر المسكن مفعوله؟

- حوالي خمس عشرة أو عشرين دقيقة.

أردت أن أشاركها أوجاعها:

- فلتصبري إذن.

ابتسمت المرأة قليلاً من كلامي. شعرت بالهدوء بعض الشيء. لأنـــه لا زال لديها طاقة للابتسامة.

مضت خمس عشرة أو عشرون دقيقة دون جدوى. ولم تنته آلامها. فبـــدأت في القلق أكثر:

- أرجوك، وافقي أن أستدعي الطبيب. لا داعِي للمخاطرة.

- حسنا، استدع الطبيب.

اتصلتُ بالاستقبال، وطلبتُ منهم استدعاء الإسعاف.

قالت متأثرة:

- لم أكن أريد مطلقًا أن تراني في هذه الحالة. أمر غريب، دائمًا نفكر فـــي الجانب المشرق للحياة. ولكن القضاء والقدر يجعلنا نندم دائمًا.

أردت أن أسري عنها:

- فلنعتبر أنني الآن مرضتُ، وأنت بجانبي. حينئذ دق الباب. ففتحته. كـــان القادم هم أطباء الإسعاف.

بعد كشف سريع عليها، قرروا نقل السيدة "تاذرين" إلى المستشفى.

نظرت إلى السيدة "تاذرين":

- يجب أن أسافر اليوم.

فابتسمتُ بصعوبة:

- بالتأكيد! بالتأكيد!

لم تجلس على الكرسي المتحرك الذي أحضرته الممرضة، وتحاملت على نفسها، وسارت على قدميها حتى ركبت سيارة الإسعاف. وأنا خلفها.

أمسكت بذراعي طيلة الطريق.

فحصها في مستشفى الطوارئ طبيب شاب طويل القامة. قاس لها ضغط الدم، وأخذ عينة لتحليل الدم وحقنها بمسكن للآلام. وبعد ذلك نظر إليّ وسألني قائلاً:

- "أنت ضيف".

فقلت له

- نعم.

فابتسم قائلاً:

- انتظر، وسوف تظهر نتيجة اختبار زوجتك.

سمعت السيدة "تاذرين" ما قاله، ولكنها كانت مشغولة بحالها. ولم أقف عند هذا الأمر. ولم تكن هناك حاجة لأن أشرح للطبيب أن السيدة "تاذرين" ليست زوجتي.

جلسنا على الأريكة معًا في انتظار النتيجة، قالت السيدة "تاذرين":

- لم أكن أعرف أنك دقيق لهذا الحد.

فأردت أن أُخرج نفسي من هذا الحديث فقلتُ:

- هل يقل الألم؟

قالت متأثرة:

- جيد إنك بجانبي. عندما كنتُ أمرض في السنوات الأخيرة، كنت أظن أنه ليس لدى أحد في الدنيا على الإطلاق. كنت لا أخبر ابني بهذا. ابني رجل، ولن يظل يكبر في حضني... هو الآن في أمريكا، يدرس في جامعة "ييل". يبني مستقبله بنفسه.

تجمدت عيناها، وخشيت من ارتعادة صوتها، فصمت للحظة. كنتُ لا أجد مجالاً للحديث.

ثم هدأت بعض الشيء وقالت:

- هناك أمور غريبة في الحياة. بعد خمسة عشر يومًا ونصف ظهرت في مدينة بعيدة صغيرة كي تنقذني.

نادت علينا الممرضة من أجل الذهاب للطبيب. ظهرت نتيجة التحاليل. قال الطبيب وهو ينظر في نتيجة التحاليل التي بيده:

- لا يوجد شيء يدعو للقلق. يوجد التهاب في المريء.

تناولي العلاج المكتوب. وسوف تتماثلين للشفاء.

أخذنا نفسًا عميقًا. وخرجنا من المستشفى، وذهبنا بالتاكسي الذي ركبناه إلى الصيدلية. اشترينا العلاج وعدنا إلى الفندق. كانت السيدة "تازرين" متعجلة. لقد حدثت لها صحوة، وكأنها لم تكن مريضة منذ قليل.

نظرت إلى ساعتها:

- بقي على إقلاع الطائرة ساعة وخمس عشرة دقيقة.

قلتُ:

- لا تقلقي. الطريق من الفندق إلى المطار لا يستغرق سوى عشرين دقيقة. سوف نلحق.

صعدت هي لأعلى، وانتظرتها كما طلبت.

كان الذي يشغل بالي هو توصيلها إلى المطار بسرعة. كانت عيناي مسلطتين على المصعد. والدقائق تطول. في النهاية رأيتُ السيدة نانرين، من بين الخارجين من المصعد. وكان العامل يحمل لها الحقيبة.

حسب ظني، كان يجب أن نذهب إلى المطار معًا. لذلك بعد أن وضع العامل حقائبها في السيارة، فتحت باب السيارة الخلفي حتى تركب السيدة "نانرين".

أخذت هي بيدي اليمنى بين يديها وقالت:

- فلنودع بعضنا البعض! لقد تعبت معي. سامحني.

قلت:

- كنتُ أود أن أصطحبك إلى المطار.

- منذ عدة سنوات وأنا ألغيت من جدول أعمالي موضوع الاستقبال أو الوداع في المطار. أرجو أن تأخذ في الاعتبار هذا، ولا تقل لي شيئًا بهذا الخصوص أكثر من ذلك. لقد اعتدتُ على الوحدة. أشكرك! لو جئتَ إلى "تشناق قلعة" اتصل بي. عنواني معك. لا أنوي الذهاب إلى باكو قريبًا. لو جئتُ، بالتأكيد سوف نتقابل. هذا اللقاء سوف يكفيني خمسة عشر عامًا.

لم أجد كلامًا آخر.

- ربما كنت تقصدين خمسة عشر عامًا وستة أشهر.

ضحكنا.

نهضت على أطراف أصابعها كالفتاة الشابة، وقبلتني من وجهي، وخطت خطى سريعة وركبت التاكسي.

كان يجب علي أن أسافر في رحلة صباح الغد. لا يزال هناك الكثير حتى الصباح.

(١٩)

قصة "حادث غريب"



الكاتب/ أورخان فكرت أوغلو

(١٩٦٦م)

كاتب أذربيجاني، وسيناريست. عضو اتحاد الكتاب الأذربيجانيين منذ عام ١٩٩٢م. درس في قسم النشر بمعهد الأدب باسم غوركي في موسكو. قام بتأليف العديد من الكتب مثل "حكاية طويلة جدًا حول العالم" (١٩٩٩م)، و"الصباح (١٩٩٤م)، و"رجل اليوم الثالث" (١٩٩٩م). ترجمت أعماله الأدبية للعديد من اللغات. ألف العديد من سيناريوهات أفلام إبداعية ووثائقية.

قصة "حادث غريب"

للكاتب/ أورخان فكرت أوغلو

الغريب يعرف أن هناك قرية من صوت نباح كلابها، فماذا يفعل الغريب بالضوء؟ [1] جميع القرى تضج بأصوات نباح كلابها. فنباح الكلاب يُعدّ حدًّا للقرية...

كان هذا الطفل الغريب يبلغ من العمر ست سنوات. أي أنه لم يشب عن الطوق بعد. همسوا في أذنه بكلمات: "احكم قبضة يدك، فبها كلمة، لقد ولدتَ كي تحملها إلى الأسطى الموجود في الناحية الأخرى من الجبل. هو يعرف معناها، وسوف يخبرك بها!".

كان الطفل مثل الكبير، لا يلعب بالألعاب! وبعد أن شب عن الطوق، أستأذن والده ليسمح له بعبور الجبل، ويذهب إلى مكان الأسطى. ورغم أن والده كان يعتبر أن رغبة هذا الطفل الصغير تنبع من حداثة سنه، فإنه كان يخشى هذا العناد الغريب الذي يتملك ابنه. كان العناد أكبر من الطفل...

ذات يوم أمسك الأب ابنه من ذراعه وألقى به في "الظلام". خر الطفل على الأرض فاقدًا توازنه للحظة، ولم يعرف ماذا يفعل. فوقف أمام الباب الذي أغلقه والده في وجهه، أينتظر طلوع النهار؟ ... أم يُوصل الكلمة للأسطى؟

---

(١) هذا المعنى مقتبس عن إحدى القصص الشعبية بأذربيجان، وفيها ضل البطل الطريق وسط الصحراء، ووجد أمامه مفترقا طريق أحدهما يبدو منه الضوء والطريق الأخر يسمع منه نباح الكلاب، فاختار الطريق الثاني ظنًا منه أن صوت النباح يعني وجود حياة. (المترجم)

انحنى الطفل وأخذ حجرًا من الأرض. لقد عرفت كلاب الدنيا كلها الطفل الغريب، وكانت ترد النباح بنباح. لقد تفقد الطفل الدنيا من مشرقها إلى مغربها وفطن إلى أنه في الغربة.

قالوا له إنك بمجرد أن تتخطى القمة الموجودة في نهاية طريق الجبل سوف يظهر أمامك ستة أكواخ، أول كوخ ناحية اليمين هو كوخ الأسطى. لو لم يكن لديه ثقة بضرورة المهمة التي همست في أذنه، لتراجع منذ زمن.

كان يدرك أنه قضى حياته كلها في هذا الطريق، لذا فإن كل خطوة يخطوها كانت في سبيل فك لغز هذا السر.

يجب أن يصعد إلى قمة الجبل من أجل معرفة معنى السر الذي همُس في أذنيه. استراح قليلاً، وسار كثيرًا. كان عمره يقاس بالشبر وليس بالعام. كان هادئًا ولا يشعر بشيء، كان الإحساس الوحيد المألوف لديه هو "التيه". وكلما تقدم به السن أثناء الطريق، كان يضايقه هذا الإحساس. كان يعرف أن والده من أجل أن يُخيفه ألقى به في العراء، اعتقادًا منه بأنه لن يصعد إلى الجبل، فيخاف ويعود إلى المنزل، ولا يذكر اسم الأسطى مرّة أخرى. كان الوالد بالنسبة للولد المتكأ والسند – وقد استغل الطفل هذا الأمر وتجرأ لكي يصعد الجبل. كان يعرف أن والده يحبه أضعاف حبه له. ولكنه أصبح بالنسبة لوالده ضائعًا. لا يدعه يذهب إلى الأسطى بسبب خوفه الشديد عليه. أما هو فكان يعتقد أن والده لا يرغب في فك لغز هذا السر الكبير. كان الطفل لا ينسى الجدال الأخير الذي دار بينهما. اقترب ليلاً من والده وسأله: "إن كان الإنسان يتكاثر بهذا القدر وهو يعلم أنه سيموت، فهل هذا يعني أنه شريك لله في هذا الأمر؟ أجاب الوالد على السؤال هكذا: "التكاثر ليس بيد الإنسان".

آنذاك ابتسم الطفل من الإجابة قائلاً:

"أنت إنسان عادي يا والدي؛ اسمح لي أن أعرف من الأسطى سر المعنى الذي استعصى عليك".

سأله والده متعجبًا: "عن أي سر تتحدث؟

فقال الطفل: "السر الموجود في كفي".

اغرورقت عينا الوالد بالدموع وقال غاضبًا:

"افتح كفك، لو رأيتُ شيئًا فيه، سوف آتي معك بنفسي إلى الأسطى!"

آنذاك صاح الولد:

-لا، لقد هُمس في أذني أن من يجب أن يخبرني بالسر هو الأسطى فقط.

بعد هذا الكلام غضب والده وقال له:

-أنت وسرك، إلى الجحيم!

وأغلق الباب في وجه الطفل.

عندما وصل الطفل إلى القمة، كان قد تجاوز المائة عام، أصبح محنّي الظهر، وصار أكبر من والده كثيرًا. إما أن القمة كانت بعيدة جدًّا، أو أن الطفل قد شاب سريعًا. ولكن لا أهمية لهذا الأمر الآن. ربما الطفل "وصل" إلى نهاية عمره، كما وصل إلى نهاية الطريق. وهناك كان كوخ الأسطى في المكان الذي حدد له.

لم يكن وجهه ومظهره كما كان متوقعًا. عندما وصل الطفل إلى الأسطى، أراد أن يفتح كفه حتى يعطيه الكلمة. ولكن كلما حاول، لم تفتح راحة يده التي انعقدت. لقد انغرست أصابعه داخل راحة يده طيلة المائة عام. وقد نبتت فوق يده خمس أشجار جذورها هي أصابعه. مهما حاول الطفل، لم يستطع أن يفتح راحة يده حتى يشرح هدفه للأسطى الذي كان يتابعه باهتمام غريب من قبل. وفي نهاية

الأمر رفع قبضة يده لأعلى ووقف أمام باب الأسطى. لقد ندم على انعقاد السر الموجود في راحة يده، وخجل من الأسطى وأرخى عينيه إلى الأرض...

ابتسم الأسطى وسأله: "هل جئتَ لضربي؟!

قال الولد:

-لا ... يوجد في كفي كلمة يجب أن تصل لك، وكان يجب أن تفسر معناها لي!".

الأسطى:

-التفكير في الكلام ضرورة للتواصل مع من لا يفهم معناه. أنا لا أعرف الكلمة. افتح راحة يدك، لأرى من خدعك؟

نكّس الطفل رأسه وأراد أن يقول "كَفى لا يُفتح". ولكنه لم يقل شيئًا. لأن راحة يده انفتحت بنظرة واحدة من الأسطى.

وكانت راحة يد الطفل فارغة.

سأله الأسطى:

-أين الكلمة؟

سأل الطفل الأسطى وهو يبكي: "أين الكلمة؟". لم يتكلم الأسطى. وأمسك الطفل من ذراعه وذهب به نحو الكوخ. عند عتبة الباب، دفع الأسطى الطفل للداخل بحركة سريعة لا تتلاءم مع سنه. وظل هو في الخارج، وأغلق الباب بغضب...

سأله من وراء الباب:

-هل هذا المشهد مألوف لديك؟

استعرض الطفل في لحظة عمره كله أمام عينيه، وقال:

-سامحني، يا أبي. أنت كنتَ محقًا! فذلك الصوت خدعني!

فرد الأسطى من وراء الباب قائلاً:

-كان يجب أن تعيش بشكل آخر.

ثم انطلق نحو قمة الجبل.

خشي الطفل من ابتعاد الأسطى فسأله:

-أكان العمر هكذا؟

لم يرد الأسطى. ولم ينفتح الباب أيضًا. نظر الطفل إلى الفضاء الفسيح الواصل للسحاب والذي يبدو من فوق قمة الجبل والظاهر من بين ألواح الكوخ الخشبية، وفكر:

"يا ترى إذًا، من الذي همس في أذني آنذاك بهذا الأمر؟".

المترجم فى سطور:

د/ أحمد سامي عبد الفتاح

- تخرج في كلية الآداب جامعة عين شمس – قسم اللغات الشرقية وآدابها.
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة باكو الحكومية بأذربيجان.
- نشر أكثر من ثلاثين مقالة باللغات الأذربيجانية والعربية والتركية حول الأدب الأذربيجاني والتركي، ولاسيما الرواية الأذربيجانية المعاصرة، وذلك في المجلات العلمية المحكمة والصحف الأدبية المتخصصة بأذربيجان وتركيا ومصر.
- شارك في العديد من المؤتمرات الدولية في مصر وتركيا وأذربيجان.
- صدر له العديد من الترجمات مثل ترجمة السيرة الشعبية الأذربيجانية (قاتشاق نبي)، ورواية (المخطوط المبتور)، وكتاب (خوجالي: مذبحة القرن العشرين) ، ورواية (دنيا الناس)، وكتاب (ملحمة ده ده قورقود المستشرق الألماني العالم هاينريش فريدريش فون ديتس ٢٠٠٠)، وكتاب "تاريخ الشعب الأذربيجاني أو سيرته الذاتية" كلها عن اللغة الأذربيجانية، وكتاب "رؤية السلام العالمي" وكتاب "الثورة الصامتة" عن اللغة التركية .
- يعمل أستاذا مساعدا بكلية الآداب جامعة عين شمس – قسم اللغات الشرقية وآدابها.
- ويعمل حاليا ملحقا ثقافيا ومدير مركز مصر للعلاقات الثقافية والتعليمية بسفارة مصر بأذربيجان.

التصحيح اللغوى : محمود فتحى

الإشـــراف الفنى : حســـن كامل